سيرة
عمرو بن العاص

تأليف

حسن ابراهيم حسن

سيرة
عمرو بن العاص

تأليف
حسن إبراهيم حسن

الإسكندرية ت: ٤٩٥٦٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مقدمة الطبعة الثانية ﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد فقد طبع كتاب « تاريخ عمرو بن العاص » للمرة الأولى سنة ١٩٢٢ م ، ولم تمض سنة واحدة حتى كادت تنفد نسخه ، وكنت على وشك إعادة طبعه ، لكن حال دون تحقيق هذه الأمنية انتخابى بالبعثة العلميــة المصرية فى انجلترة فى يونيو سنة ١٩٢٣م ، ولكن طلب الى حضرة نجيب افندى مترى صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها طبع الكتاب للمرة الثانية على نفقته ، فأجبته الى ذلك

وقد وصلتنى تقاريظ عدة من كبار المؤرخين سيما المستشرقين منهم وكلها ألسنة مدح وثناء ، وقد سنحت لى فرصة انتسابى الى جامعة لندن فأهديت بعض كبار أساتذتها المستشرقين نسخًا منه أخص بالذكر منهم جناب الأستاذ السير دنسن روس مدير مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن وجناب الأستاذ السير توماس أرنولد أستاذ التاريخ الإسلامى بالجامعة المذكورة ، فأعجبا بهِ أيما إعجاب ، وكان وقوف حضرات الأساتذة على حالتى العلمية من اختبارات ومناقشات داعيًا الى تقرير الجامعة قبول طلب انتسابي إليها للحصول على درجة الدكتوراه فى الفلسفة (فى التاريخ) بناء على توصية حضرات أساتذتى ، وهى ميزة لم يتمتع بها أحد من المصريين قبلى .

وقد اخترت « الفاطميون والدعوة الشيعية فى مصر وعلاقتها بالشيعة فى العالم الاسلامى » موضوعًا لرسالتى تحت إشراف جناب الأستاذ السير توماس أرنولد المستشرق الكبير وصاحب التآليف الهامة فى تاريخ الاسلام . وسآخذ على عاتقى أن انقلها الى العربية حتى يتيسر انتشارها بين جميع قراء التاريخ فى مختلف البلدان الغربية والشرقية .

وقد قرأت الكتاب بإمعان لتنقيحه وجعله ملائماً للطلبة من ذكور وإناث عسى أن يسد بعض فراغ برامج بعض المدارس الثانوية والعالية فى التاريخ الاسلامى سيما الأبواب المتعلقة بفتح فلسطين والشام ومصر وحالة مصر قبيل الفتح الاسلامى والخلاف بين علىّ ومعاوية وما كان من أمرهما وإصلاحات عمرو فى مصر ونحو ذلك .

وأنا أكرر جزيل شكرى لحضرة صاحب العزة الأستاذ اسماعيل رأفت بك ، وحضرة صاحب العزة الأستاذ الشيخ محمد الخضرى بك ، وحضرة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار ، وحضرة الأستاذ الدكتور طه حسين ، وحضرة الأستاذ يوسف افندى احمد المفتش بلجنة حفظ الآثار العربية بوزارة الأوقاف ، وحضرة الأستاذ الشيخ محمد مختار يونس ناظر مدرسة المعلمين الأولية بالمنصورة ، وحضرة محمد افندى يوسف المهندس بوزارة الأشغال ، وحضرة صديقى العزيز شحاته افندى عيسى ابراهيم الموظف بمصلحة الأملاك الأميرية بالقاهرة الذى يرجع الفضل اليه فى اعادة طبع الكتاب لصدق اخلاصه ومحبته الخير لى وتفانيه فى القيام بكل ما يعود علىّ بالنفع وأنا بعيد عن الوطن . وفقنا الله لما فيه الخير والنفع أنه سميع مجيب .

لندن فى ١٧ اكتوبر سنة ١٩٢٤

حسن ابراهيم حسن

مصادر الرسالة

تنقسم أهم المصادر التى رجعنا اليها فى رسالتنا إلى قسمين : عربية وإفرنجية
ومن المصادر الافرنجية الانجليزى والفرنسى

(ا) المصادر العربية :

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن الأثير	: الكامل فى التاريخ طبع مصر سنة ١٣٠١ ﻫ
ابن الزيات	: الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة
ابن اسحق	: فتوح مصر وأعمالها . مصر سنة ١٢٧٥ ﻫ
ابن برهان الدين	: السيرة الحلبية : ثلاثة أجزاء
ابن حجر	: الاصابة فى تمييز الصحابة . مصر سنة ١٣٢٣ ﻫ
ابن خلدون	: العبر وديوان المبتدا والخبر . بولاق سنة ١٢٨٤ ﻫ
ابن خلكان	: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . مصر سنة ١٣١٠ ﻫ
ابن دُقماق	: الانتصار لواسطة عقد الأمصار . القاهرة سنة ١٨٩٣ م
ابن طباطبا	: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية . مصر سنة ١٣١٧ﻫ
ابن عبد الحكم	: فتوح مصر : طبع بمجلس المعارف الفرنساوى
ابن عبد ربه	: العقد الفريد : ٣ أجزاء
ابن قتيبة	: (ا) كتاب المعارف (ب) الامامة والسياسة
ابن هشام	: سيرة ابن هشام : مصر سنة ١٣٢٩ ﻫ
أبو الفرج	: مختصر تاريخ الدول : بيروت
أبو المحاسن	: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ليدن سنة ١٨٥١ م
البلاذُرى	: فتوح البلدان : القاهرة سنة ١٣١٩ ﻫ
البغدادى	: سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب . بغداد سنة ١٢٨٠ ﻫ

اسم المؤلف	اسم الكتاب
الاصفهانى	: كتاب الأغانى : مصر سنة ١٣٢٣ هـ .
الألوسى	: بلوغ الأرب فى أحوال العرب : بغداد سنة ١٣١٤ هـ
الخضرى بك	: تاريخ الأمم الاسلامية
رفيق العظم بك	: أشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة : مصر سنة ١٣٢١ هـ
السيوطى	: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة : المطبعة الشرقية
الشهرستانى	: الملل والنحل : مصر سنة ١٣١٧ هـ
الطبرى	: الأمم والملوك : المطبعة الحسينية المصرية .
عبد اللطيف البغدادي	: الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر
على مبارك باشا	: الخطط التوفيقية : بولاق سنة ١٣٠٦ هـ
القلقشندى	: أبو العباس احمد : صبح الأعشى : المطبعة الأميرية
القلقشندى	: محمد بن عبد الله : نهاية الارب فى معرفة قبائل العرب خط يد
المبرد	: الكامل فى اللغة : طبع لايبسك
المرحوم محمود فهمى	: مصر فى عهد الرومان : مصر سنة ١٩١٦ م
المسعودى	: مروج الذهب ومعادن الجوهر : بولاق سنة ١٢٨٣ هـ .
المقريزى	: المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار : مصر سنة ١٢٧٠ هـ
وستنفلد	: تاريخ مكة : لايبسك سنة ١٨٦١ م
ياقوت	: معجم البلدان . مصر سنة ١٣٢٣ هـ
الواقدى	: فتوح الشام : مصر سنة ١٣٠٢ هـ
اليعقوبى	: تاريخ اليعقوبى : ليدن سنة ١٨٨٣ م

(ب) المصادر الافرنجية :

اسم المؤلف — اسم الكتاب

Ameer Ali, Sayed : A Short History of the Saracens, London 1891.

Amélineau : (*a*) Fragements Coptes, Journal Asiatique, 1888.
(*b*) Géographie de l'Egypte à l'Époqne Copte, Paris, 1893.

Butler, Alfred J. : (*a*) The Arab Conquest of Egypt, Oxford, 1902.
(*b*) Babylon of Egypt, Oxford, 1914.

Bury, J. B. : History of the Later Roman Empire, London, 1889.

Caussin de Perceval, A.P. : Essai l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mohamet.

Gibbon, Edward : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.

Huart, C. L. : Histoire des Arabes, Paris, 1913.

Irving, Washington : A History of the Lives of the Successors of Mohamet, London, 1912.

Lane-poole, Stanley : A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.

Le Bon, Gustave La Civilisation des Arabes, Paris, 1884.

Marcel, M. J. J. : l'Egypte, depuis la Conquête des Arabes, jusqu'à la Dominion Française, Paris, 1848.

Milne, J. Grafton : A History of Egypt under Roman Rule, London, 1913.

Muir, Sir William Temple : The Caliphate; Its Rise. Decline and Fall, Oxford, 1902.

Quatremère, E. : Journal Asiatique, 1850.

Sédillot, L. B. : Histoire Générale des Arabes, Paris, 1877.

Sharpe, Samuel : (*a*) Chronology and Geography of Ancient Egypt, London, 1838.
(*b*) A History of Egypt under the Ptolemies, London, 1849.

فهرست الرسالة

الكتاب الاول

عمرو بن العاص من ولادته الى أن وَلِيَ فتح مصر

الصفحة الموضوع

١١ الباب الأول : عمرو قبل أن يُسلم

(ا) قبيلة عمرو : بنو سهم

(ب) أسرة عمرو : (١) العاص أبو عمرو (٢) النابغة أم عمرو

(ح) ولادة عمرو (ء) تربية عمرو (ﻫ) احتراف عمرو التجارة

(و) سفر عمرو الى مصر فى الجاهلية

٢٨ الباب الثانى : عمرو منذ أسلم إلى أن انتهت حروب الردة

(ا) إسلام عمرو (ب) احترام الرسول عليه السلام مقدرة عمرو وتنصيبه قائداً لأحد الجيوش (ح) سرية عمرو الى ذات السلاسل (ء) سرية عمرو الى سواع (ﻫ) تولية عمرو على الصدقة بعمان (و) عمرو وردة العرب

٣٩ الباب الثالث : عمرو فى فتح الشام وفلسطين

(ا) كتاب أبي بكر لعمرو وهو بعمان وانفاذه الجيوش لغزو سورية وفلسطين

(ب) وصية أبي بكر لعمرو بن العاص عند مسيره الى فلسطين

(ح) شروع عمرو فى قتال الروم بفلسطين — عمرو بن العاص يقاتل مائة الف من الروم

(ء) اشتراك عمرو فى وقائع اليرموك ودمشق والأردن

(ﻫ) عمرو وموقعة أجنادين (و) عمرو وفتح بيت المقدس

(ز) عمرو وهزيمة قسطنطين بن هرقل

الكتاب الثانى

عمرو كزعيم من زعماء الدولة العربية

الصفحة — الموضوع

٥٣ الباب الأول : حالة مصر قبيل الفتح الاسلامى
(ا) الحالة الدينية (ب) الحالة السياسية – حالة مصر إزاء ما كان بين الروم والفرس فى مصر.

٦٥ الباب الثانى : عمرو وفتح مصر
(١) (ا) كيف عرضت لعمرو فكرة فتح مصر وكيفية مسيره اليها
(ب) شروع عمرو فى الفتح واستيلاؤه على العريش (حـ) استيلاء عمرو على الفرما (ء) إستيلاء عمرو على بلبيس (هـ) استيلاء عمرو على أم دنين
(و) عمرو وغزو الفيوم وواقعة عين شمس
(١) غزو الفيوم (٢) واقعة عين شمس.

٨٨ (٢) حصار عمرو لحصن بابليون ومراسلة المقوقس عمراً بشأن الصلح
(ا) المقوقس (ب) مراسلة المقوقس عمراً بشأن الصلح (حـ) معاهدة الصلح بين عمرو والمقوقس (ء) رفض هرقل الصلح واستئناف القتال بين المسلمين والروم (هـ) اقتحام الحصن.

٩٩ (٣) مسير عمرو الى الاسكندرية واستيلاؤه عليها
(ا) استيلاء عمرو على كوم شريك وسلطيس والكريون (ب) عمرو وفتح الاسكندرية (حـ) عمرو ونسبة حريق مكتبة الاسكندرية إليه

١١٨ (٤) عمرو وتتمة الفتح فى مصر
(ا) عمرو وتتمة الفتح فى مصر (ب) هل فتحت مصر صلحاً أو عنوة

١٢٦ (٥) عمرو وتثبيت الفتح
(ا) عمرو وفتح برقة وطرابلس (ب) عمرو وفتح بلاد النوبة
(حـ) عمرو وانتقاض الروم بالاسكندرية – إنتصار عمرو على الروم

١٣٠ الباب الثالث : ولاية عمرو الأولى على مصر وأعماله الادارية فيها

(ا) عمرو ووصف مصر لعمر بن الخطاب (ب) تحول عمرو إلى الفسطاط وتحببه الى القبط ورده بنيامين الى كرسيه (ح) عمرو وتأسيس مدينة الفسطاط (١) ما قيل فى تسمية الفسطاط (٢) الفسطاط ودار الأمارة (٣) الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط (ء) عمرو وتأسيس الجامع العتيق (ﻫ) خطبة لعمرو فى هذا الجامع (و) عمرو وحفر خليج أمير المؤمنين (ز) عمرو ومقاييس النيل وزيادته (ح) عمرو وخراج مصر فى الاسلام (ط) المكاتبات التى دارت بين عمرو وعمر بشأن الخراج (ى) استقرار أمر مصر لعمرو (ك) إعتزال عمرو ولاية مصر

الكتاب الثالث

عمرو منذ اعتزل ولاية مصر إلى أن مات

١٥٦ الباب الأول : أخبار عمرو مع عثمان

١٥٩ الباب الثانى : عمرو وسياسته مع علىّ ومعاوية

(ا) لماذا انضم عمرو الى معاوية (ب) عمرو وموقعة صفين (ح) عمرو والتحكيم (١) عقد التحكيم (٢) اجتماع الحكمين ونتائج التحكيم

١٧٩ الباب الثالث : ولاية عمرو الثانية على مصر

(ا) عمرو وفتح مصر (ب) استكثار معاوية أن تكون مصر طعمة لعمرو ونشوء الجفاء بينهما (ح) محاولة قتل عمرو (ء) بعض أخبار عمرو ومعاوية (ﻫ) وفاة عمرو (و) قبر عمرو

١٨٨ خاتمة القول فى عمرو

الخرائط

(١) خريطة بلاد العرب فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً بها القبائل (٢) فتح الشام وفلسطين (٣) خريطة الوجه البحرى لتوضيح الفتح الاسلامى (٤) الطريق من العريش الى تنيس

الصور الشمسية

(١) حصن بابليون والباب الذى خرج منه المقوقس اثناء الفتح (٢) الباب العمومى لحصن بابليون ، وهو الباب الذى خرج منه المقوقس (٣) جزء من أطلال مدينة الفسطاط مبيناً عليه جامع عمرو وحصن بابليون والاديرة التى بينهما (٤) جامع عمرو بن العاص

بلاد العرب
للدكتور حسن ابراهيم حسن
ورسمه وحققه الاستاذ الشيخ
محمد مختار يونس
اليمامة
حضرموت
المحيط الهندي

الكتاب الاول

عمرو بن العاص

من ولادته الى أن وَلِيَ فتح مصر

الباب الاول

﴿ عمرو قبل أن يُسلم ﴾

(١) قبيلة عمرو : بنو سهم

لما كان من قصدنا أن ندرس حياة عمرو بن العاص السهمي القرشي الذي نضع له رسالتنا لتقصي أخباره وتتبع آثاره وفتوحه وسياسته واخلاقه لزم أن نذكر كلمة يسيرة عن عشيرته بني سهم . لأن للبيئة التي يولد فيها الشخص ويترعرع تأثيراً كبيراً في نشأته وأعماله . وبالاحاطة بها يسهل استنباط الحكم على حياة الرجل مما يحيط به من المؤثرات

ولكن التاريخ لم يحفظ لنا لسوء الحظ شيئاً ذا غناء وانما هي أخبار مبعثرة ليست بذات الخطر ولا بالتي تمثل لنا حياة هذه القبيلة تمثيلاً صحيحاً واضحاً . فكل ما نعرفه هو أن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بطن من بطون قريش اشتهروا في الجاهلية وفي الاسلام بمناقب رفيعة وكانوا من أصحاب السيادة والسلطان

فى مكة وكان لهم فى ادارة شئون قريش نصيب كبير صاروا به ذوى بأس وكرم وعز وجاه وسلطان .

وقد ذكروا أن بنى سهم كانوا أصحاب الحكومة فى قريش قبل الاسلام ولسنا ندرى حقيقة هذه الحكومة ولكنا نعلم أن قد كانت العادة عند العرب وعند غيرهم من الأمم فى عصورها الأولى أن تتقسم الأسر الكبيرة بينها الاعمال الاجتماعية . فلعل هذه الحكومة كانت شيئاً يشبه القضاء بحيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم ممن يفد على مكة من العرب الى بنى سهم أو بعبارة أصح الى زعماء بنى سهم فيما كان يقع بينهم من الخصومات . هذا شيء يظهر ان ليس فيه من شك . فاذا عرفنا أن الذين قد اختصوا بالحكومة عند العرب فى الجاهلية انما كانوا أصحاب رأى وحلم ودهاء (وكلنا يعلم ما يروى عن أكثم بن صيفى وذى الأصبع العدوانى وغيرهما من حكماء العرب) . واذا كانت الحكومة قد بقيت محصورة فيهم زمناً طويلاً حتى كان الاسلام ، فليس من شك فى أنهم قد احتفظوا بما كانت تستلزمه هذه الحكومة من عادة وخلق . ولا شك فى أنهم قد استبقوا بقدر ما استطاعوا دهاءهم وحلمهم وحزمهم ، بل لا شك في أن هذا قد أصبح كأنه خلق يتوارثونه و يتناقلونه . وليس من البعيد أن يكون لذلك شيء من الأثر فيما سيمتاز به عمرو من الحذق السياسى والدهاء العظيم .

وكانت لبنى سهم أيضاً الرئاسة على الأموال الخاصة بآلهتهم وهى أشبه شيء بالاوقاف العامة . فنى قبضة صاحب هذه الوظيفة الأموال المحجَّرة (كما كانوا يسمونها) يتصرف فيها على حسب ما تقتضيه القواعد التى جروا عليها فى العمل بأموال أوثانهم . ولا شك فى أن هذا يستلزم غير قليل من التدبير وحسن القيام على الأموال وهذا شيء قد ظهرت آثاره فى حياة عمرو كما سترى فقد كان حسن العناية بجمع المال واستثماره لم يقصر فى ذلك وربما أسرف . وآية ذلك قوله لمعاوية حين سأله عما بقى مما يستلذه : « مال أغرسه فاصيب من غلته وثمرته »

اشتهر بنو سهم بالعز والشرف والشعر وفصل الخصومات والكرم واليسار وغيرها من الصفات . فكان منهم قيس بن عدى الذى كان يضرب به المثل فى العز فيقال كأنه فى العز قيس بن عدى . ومنهم من اشتهر بالكرم وقرى الضيف : وهو الحارث ابن سعيد بن سهم . واشتهر نفر منهم بالشعر من أمثال عبد الله بن الزِبَعرى بن قيس ابن عدى أحد شعراء قريش المعدودين وكان من أشد الشعراء على المسلمين قبل فتح مكة .

ولا يفوتنا ما كان للعاص بن وائل أبي عمرو من السيادة والجاه والشرف فى الجاهلية (كما سيأتى) فقد كان كبير بنى سهم وزعيمهم فى يوم الفجار الثانى قبل الهجرة . وكان تاجراً من ذوى اليسار فى مكة تجوب تجارته الشام واليمن وغيرهما من البلاد . وما كان لابنيه هشام الذى كان من المهاجرين الأولين واشتشهد باليرموك وعمرو، وما كان لابنيه عبد الله ومحمد من الشهرة فى الادب واصابة الرأى . وقد اشتهر بنو سهم باقامة دعائم العدل فى الجاهلية ، وكانوا كذلك فى الاسلام . وكان أول من ولى القضاء بمصر منهم قيس بن أبي العاص بن عدى واشتهر بالشرف والثراء وقرى الضيف . وكان أول من بنى بمصر داراً للضيافة . وولى القضاء بمصر ابنـه عثمان بن قيس فى آخر سنة من خلافة عمر رضى الله عنه . واستمر على ذلك الى سنة ٤٢ هـ فى خلافة معاوية . ومنهم قيس وعبـد الله ابنا حذافة بن قيس بن عدى وكانا من السابقين الى الاسلام وصحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجرا الى الحبشة . وحمل عبد الله كتاب النبى الى كسرى يدعوه الى الاسلام .

تعلم مما تقدم أن بنى سهم اشتهروا فى الجاهلية والاسلام بالشرف والعز وفصل الخصومات والكرم وقرى الضيف واليسار والادب والشعر والجاه وغيرها من الصفات التى أنبتت فى نفوس ابنائهم الاخلاق الفاضلة والعادات السامية . وكان لها أعظم الاثر فى تكوين أفراد ابنائهم النابهين .

وكان عمرو بن العاص أثراً من آثار قومه ورث عن آبائه كثيراً من المواهب

النادرة التي أهلته لأن يقوم بما عهد اليه من الأعمال خير قيام بما اشتهر عنه من بعد النظر والدهاء والشجاعة وعلو الهمة والفصاحة وغيرها

لا نكران أن للبيئة التي يولد فيها الطفل ويترعرع تأثيراً كبيراً في تكوينه [1]

(ب) أسرة عمرو

(١) العاص أبو عمرو : هو العاص بن وائل بن سعيد بن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب السهمي القرشي . كان من سادات العرب وأعيانهم وأشرافهم في الجاهلية . وكان كبير بني سهم وزعيمهم في يوم الفجار الثاني قبل الهجرة أدرك الإسلام ولم يسلم وكان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم اشتهر بطعنه عليه وايذائه لاصحابه وانكاره للدعوة الإسلامية . وهو القائل لما مات القاسم ثم عبدالله ابنا النبي عليه السلام [2] : إن محمداً أبتر . فأنزل الله فيه (إن شانئك هو الأبتر) أي المقطوع عن الخير ، ومات بعد هجرة النبي بشهر وعمره خمسة وثمانون سنة كما رواه ابن الأثير في تاريخه [3]

وقد كان العاص بن وائل تاجراً في الجاهلية ومن ذوي اليسار في مكة والظاهر أنه كان يتجر ببضائع اليمن والحبشة الى الشام وبضائع الشام الى اليمن . كالجلد من اليمن والطيب من الحبشة والزبيب والتين ونحوه من الشام

واتفق ذات مرة ان ابتاع العاص سلعة من رجل من زبيد من اليمن فمطله العاص حتى عيل صبره وأعيته الحيل فملا جبل (ابي قبيس) وقريش حول الكعبة وجعل يتظلم بشعر رقيق وهو يقول :

---

(١) راجع خزانة الادب جزء ٣ ص ١٠١ — ٣٠٢ . الكامل للمبرد طبع باريس ، والامم والملوك لابن جرير الطبري . الاغاني للاصفهاني طبع بولاق وأسد الغابة في معرفة الصحابة . والاصابة في تميز الصحابة . وسبائك الذهب للسويدي

(٢) ذكر ابن الاثير أن العاص قال ذلك لما مات ابراهيم . وهو يخالف ما ذكره ابن إسحق من أنه قالها لما مات القاسم ثم عبد الله وهذا أصح (٣) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٢٩

يا للرجال لمظلوم بضاعتـــه ببطن مكة نائى الحى والنفر
ان الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام كيومى لابس الغدر

فاجتمعت قريش وأجمعوا أمرهم على الاجتماع بدار عبد الله بن جدعان حيث تحالفوا على أن ينصروا المظلوم من الظالم . فسمى هذا (حلف الفضول وشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم)

وذكر ياقوت فى معجمه أن سعيد بن المسيب[1] مرَّ فى بعض أزقة مكة فسمع مغنياً يغنى من دار العاص بن وائل قصيدة منها :

تضوع مسكا بطن نعمان إن مشت به زينب فى نسوة عطرات

فضرب برجله الأرض وقال : هذا والله مما يلذ استماعه

ومنها :

وليست كأخرى أوسعت جيبَ دِرعها وعضَّت بنان الكف للجمرات
وعلَّت بَنان المسك وخفّا مرجّلاً على مثل بدر لاح فى الظلمات
وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت برؤيتها من راح من عَرفات

ومن هنا نستدل على أن بنى العاص بن وائل كانوا مولعين بالطرب محبين للأدب ميالين لسماع رقيق الشعر ومستملحه . وقد ذكرنا فيما سبق نفراً من بنى سهم قالوا الشعر وأجادوا فيه ومن بينهم عمرو بن العاص (كما سيأتى) ولا يبعد أن يكون سعيد ابن المسيب قد سمع هذه القصيدة من إحدى الجوارى فى بيت العاص أو من بعض أبنائه : وكان للعاص من الأولاد عمرو وهشام . وكان هشام أصغر من أخيه عمرو . وأمه أم حرملة بنت هشام بن المغيرة وهى خالة عمرو بن الخطاب رضى الله عنه .

---

(١) ولد سعيد بن المسيب بعد خلافة عمر بسنتين . فان كان سمع شيئاً من دار العاص فيكون بعد وفاته بأكثر من نصف قرن

(ب) سلمى أم عمرو : سأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال : سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بنى عنزة[1] أصابتها رماح العرب فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جُدعان ثم أصبحت الى العاص بن وائل فانجبت فان كان جعل لك شىء فخذه .

وقد ذكر المبرد (ص ٤٧٧) فى كتابه : سئل عمرو بن العاص عن أمه ولم تكن فى موضع مرضى فأتاه الرجل وهو بمصر أمير عليها فقال : أردت أن أعرف أم الأمير . فقال نعم كانت من عنزة[2] تسمى ليلى وتلقب النابغة . اذهب وخذ ما جعل لك . وقيل له مرة أأنت أفضل أم هشام ؟ فقال عمرو : ان لهشام علىّ أربعة : أمه ابنة هشام بن المغيرة وأمى عنزية . وكان أحب إلى أبى منى وبصر الوالد بولده من قد عرفتم وأسلم قبلى واستشهد وبقيت . (كتاب المعارف لابن قتيبة ص ٩٦)

(حـ) ولادة عمرو : لم تتفق كلمة المؤرخين فى تحقيق ثبوت السنة التى ولد فيها عمرو وفى سنه حين توفى . ولم يمكنهم بالطبع تحقيق الأمر الثانى لأنه مبنى على الأمر الأول : أى سنة ولادته

وقد روى ابن حجر فى كتابه (الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٥ ص ٣) أن عُمْر عمرو ابن العاص حين ولد عمر بن الخطاب كان سبع سنين وأنه مات بعد عمر بعشرين سنة

---

(١) بنو عذرة بطن من قضاعة من القحطانية . وهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث ابن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة . وقد سكنت عدة عشائر من قضاعة فى الاخطاط التى بين المدينة وينبع الى الشمال فى متسع من أرض الحجاز . وبلاد عذرة وراء ذات القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام

(٢) بنو عنزة بطن من أسد بن ربيعة وديارهم عين التمر من برية العراق على ثلاث مراحل من الانبار ثم انتقلوا عنها الى جهات خيبر فأقاموا هنالك

وذكر ابن خلكان والواقدى واخرج ابن حجر عن يحيى بن بكير أن عمرو بن العاص عاش تسعين سنة . وقال العجلى انه عمَّر تسعًا وتسعين سنة (الاصابه ج ٥ ص ٣) . وقال ابن قتيبه فى كتاب (المعارف ص ٩٧) انه مات وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ومات سنة ٤٢ أو سنة ٤٣ أو ٥١ للهجرة [1] وان ابنه عبد الله مات سنة ٦٥ للهجرة وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . وانه كان أصغر من أبيه عمرو باثنتى عشرة سنة . اهـ

واذا صح ذلك فتكون ولادة عبد الله سنة ٧ ق . هـ (٦١٥ م) وولادة عمرو سنة ١٩ ق . هـ (٦٠٢ م) . وتكون سن عمرو حين توفى (على ما ذكره ابن قتيبة) اثنتين وستين سنة .

وقال ابن قتيبة أيضًا : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مات وهو ابن خمس وخمسين سنة . وأخرج عن الواقدى أن سن عمر بن الخطاب كانت حين حضرته الوفاة ثلاثًا وستين سنة . وعلى هذا تكون ولادة عمر سنة ٤٠ ق . هـ (٥٨٣ م) وولادة عمرو سنة ٤٧ ق هـ (٥٧٥ م) : أى قبله بسبع سنين . فتكون سن عمرو حين توفى تسعين سنة

ولا يمكن مع ما قدمناه الاهتداء الى رأى قاطع لسببين :

(١) لأن سن عمر بن الخطاب حين توفى مشكوك فيها . فمن قائل أنه مات وله ٦٣ سنة ومن قائل ٥٥ سنة

(٢) وكذلك فى عبد الله بن عمرو فقد ذكر ابن قتيبة أنه توفى سنة ٦٤ . وذكر فى أسد الغابة (ج ٣ ص ٢٣٣) سنة ٦٣ وقيل سنة ٦٥ بمصر وقيل سنة ٦٧ بمكة وسنة ٥٥ بالطائف وسنة ٦٨ وسنة ٦٣ مما يدل دلالة واضحة على التخبط البين

---

(١) ذكر بطلر فى كتابه (ص ٥٦٤) خطأ أن ابن قتيبة ذكر أن عمرًا مات وهو ابن احدى وخمسين سنة مع انه لم يذكر هذا العدد الا عند كلامه سنة وفاته فقال . وقد اختلف فى موته فقيل سنة ٤٢ وقيل سنة ٤٣ وقيل سنة ٥١

فى روايات المؤرخين بحيث لا نستطيع الجزم بأن عمرو بن العاص توفى وله تسعون سنة أو تسع وتسعون أو أكثر أو أقل

ولم يقتصر المؤرخون على هذا بل ذهبوا الى أبعد منه فذكر أبو المحاسن أن عمرو بن العاص مات وله تسع وتسعون سنة وقيل مائة سنة وذكر النووى أنه مات وسنه سبعون سنة

وقد رجح بطلر قول النووى على غيره من الأقوال :

(١) لأنه لو مات وهو ابن تسعين سنة لكانت سنه حين فتح مصر ستاً وستين سنة . أعنى أنه قد طعن فى السن بحيث ما كان يمكنه ان يقود الجيوش الى ساحات النصر . و يتحمل مشاق الحرب وهو فى مثل هذه السن

(٢) ولأنه لا يتصور أن يقوم بتمثيل أدوار الحرب والسياسة فى موقعة صفين وعند عقد التحكيم وقد ناهز الخمس وثمانين أو الاثنتين وتسعين

وقد عزا هذا الترجيح الى احتمال خطأ المؤرخين المتأخرين فى نقل لفظ (سبعين) الى (تسعين) لما بين اللفظين من المشابهة (بطلر ص ٥٤٨)

ولا ندرى لم يستبعد (بطلر) ان عمرو بن العاص فتح مصر وهو فى السادسة والستين لأن هـذه السن تعوقه عن القيام بهذا الأمر . وقد شاهدنا أسماء كثير بن من القواد العظام فى الحرب الأوربية العامة من أمثال (هندنبرج) و (مولتك) و (تربتز) و (فوش) و (جوفر) و (فرنش) وغيرهم قد خاضوا معامع هذه الحرب الطاحنـة وقادوا الجيوش الجرارة وقد ناهزت سنهم الستين ؟ وهذا هو (كليمانصو) رجل فرنسا قد تولى قيادة الأمة الفرنسية كلها أثناء الحرب حتى أرسى سفينتها على ساحل السلامة ، وهو شيخ تربو سنه على السبعين كثيراً وقد رأيناه فى السنة الماضية وقد عم بياض الشيب رأسه وشاربيه وهو الآن يسيح فى بلاد الشرق الأقصى و يخطب فى النشء فى المستعمرات الفرنسية وقد حفظ لنا التاريخ عن كثير من العرب أنهم كانوا يحاربون وهم فى أعظم من هـذا السن . فان عمرو بن

ظننتُ انه قد كسره : فقلت : والله أيها الملك لو ظننت انك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟ فقلت : أيها الملك : أكذاك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فانه والله لعلى الحق وليظهرنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قال : قلت فتبايعنى له على الاسلام ؟ قال : نعم فبسط يده فبايعته على الاسلام ثم خرجت الى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه وكتمت أصحابى اسلامى ثم خرجت عامداً لرسول الله لأسلم فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبل الفتح (بستة أشهر) وهو مقبل من مكة فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسم وان الرجل لنبىّ ، أذهب والله أسلم فحتى متى ؟ فقلت : والله ما جئت إلا لأسلم . فقدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتقدم خالد بن الوليد وأسلم و بايع . ثم دنوتُ فقلت : يا رسول الله انى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من دينى ولا أذكر ما تأخر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمرو بايع فان الاسلام يَجُبُّ ما قبله وان الهجرة تجب ما قبلها ثم انصرفت . (الطبرى ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤)

وروى ابن عساكر فى تاريخه عن الزبير بن بكار قال : قيل لعمرو بن العاص ما أبطأ بك عن الاسلام وأنت أنت فى عقلك ؟ فقال « إنا كنا فى قوم توازن حلومهم الجبال ما سلكوا فجاً فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً فلما أنكروا على النبى صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم ولم نفكر فى أمرنا وقلدناهم . فلما ذهبوا وصار الأمر الينا نظرنا فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتدبرناه فاذا الأمر بين فوقع فى قلبى الاسلام فعرفت قريش ذلك فى إبطائى عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم فبعثوا الىّ فتى منهم فقال : أبا عبد الله إن القوم قد ظنوا بك الميل الى محمد . فقلت له يا ابن أخى إن كنت تحبُّ أن تعلم ما عندى فموعدك الظلُّ من حِراً . فالتقينا هناك فقلت : أنشدك الله الذى هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك . أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال : اللهم بك نحن . فقلت : أفنحن أوسع معاشاً وأوسع ملكاً

أم فارس والروم ؟ قال : بل فارس والروم . قلت : فما ينفعنا فضلنا عليهم فى الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمراً قد وقع فى نفسى ان ما يقول محمد من البعث حقٌّ ليجزى المحسن فى الآخرة باحسانه والمسىء باساءته . هذا يا ابن أخي الذى وقع فى نفسى ولا خير فى التمادى فى الباطل »

وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص رضى الله عنهما : « لقد عجبت لك فى ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين ؟ فقال له عمرو : وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستطيع التخلص منه إلاّ إلى ما أراد الذى هو بيده ! فقال عمر : صدقت »

ومن نظر فى أمر قريش ومسلكها مع النبى صلى الله عليه وسلم عرف أن شيوخها وشبابها كانوا ذوى حماسة شديدة فى جهاد الاسلام فى أول الأمر وكان انتصار النبى لا يزيدهم إلاّ شدة وحماسة . ولكن هذا الانتصار قد تكرر وعظم أمره فى جميع البلاد العربية وقتلت سادات قريش ومات ذوو الحلم فيها فأخذ الشبان وأصحاب المطامع يترددون ويتساءلون عن أى الأمرين أوفق لهم . رأوا قوةً من جهة وضعفاً من جهة اخرى فكانوا يودون لو انضموا الى هذه القوة الناشئة فنفعوا وانتفعوا . ولكنهم كانوا يخشون سوء رأى قومهم فيهم وضياع ما كانوا يستمتعون به من الحرية من جهة أخرى . فمنهم من تغلب على هذه المخاوف فذهب الى المدينة وأسلم . ومنهم من اشتد تردده فاعتزل الطرفين حيناً حتى إذا ثبت له من غير شك أن أمر محمد ظاهر على قريش أسرع فادرك الفرصة قبل ضياعها واسلم قبل الفتح . من الأولين خالد بن الوليد ومن الآخرين عمرو الذى اعتزل البلاد العربيــة وذهب الى أرض محايدة هى أرض الحبشة ليرقب الأمر فرأى ما كان من حسن الصلة بين المدينة و بين النجاشى وأيقن أن أمر الاسلام سينتهى بالظفر وأن سقوط مكة قريب وانه إن أراد أن يدخر لنفسه مكانة بين أقرانه الذين سبقوه الى الاسلام فليس له بدٌّ من أن يسلم طائعاً قبل أن يسلم كارهاً .

أقر أحد علماء الفرنجة ان وصفه مصر لعمر بن الخطاب (كما سيأتى) من اكبر آيات البلاغة .

وأن نفس عمرو لتبين أجلى بيان من خلال أقواله المأثورة وحكمه البليغة فهى البرهان الساطع والدليل القاطع على رجاحة عقله وسمو مداركه وسرعة خاطره وإصابة رأيه وحسن حديثه . ولندلِ الآن بشئ يسير من هذه الأقوال لكى تكون شاهداً على صحة ما نقول .

من ذلك قوله : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ولكنه الذى يعرف خير الشرين . وروى ابن عساكر عن عمرو بن العاص انه قال يوماً لمعاوية : ان الكريم يصول اذا جاع واللئيم يصول اذا شبع . فسد خصاصة (حاجة) الكريم واقمع اللئيم

وروى عن هشام الكلبى قال : قال معاوية لعمرو بن العاص : من أبلغ الناس ؟ قال : من كان رأيه راداً لهواه . قال : فمن أسخى الناس ؟ قال : من بذل دنياه فى صلاح دينه . قال : فمن أشجع الناس ؟ فقال : من رد جهله بحلمه . اه .

ومن غرر أقواله ما رواه صاحب كتاب سراج الملوك وهو : موت الف من العليه أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة . وما رواه المبرد (ص ٢٨) ان عمرو بن العاص قال لمعاوية حين وصف عبد الملك بن مروان : آخذ بثلاث تارك لثلاث : آخذ بقلوب الرجال اذا حدَّث وبحسن الاستماع اذا حُدِّث وبايسر الأمرين عليه اذا خولف ، تارك للمراء تارك لمقاربة اللئيم تارك لما يعتذر منه كقوله :

فقلت له تجنَّبْ كلَّ شيء ... يُعاب عليك إن الحر حرُّ

وقوله وقد نظر على بغلة قد شمِط وجهها هرماً فقيل له : أتركبُ هذه وأنت أميرُ مصر ؟ فأجاب : لا ملل عندى لدابتى ما حملتنى ولا لامرأتى ما أحسنتْ عشرتى ولا لصديقى ما حفظ سرى إن الملل من كواذب الأخلاق . وقوله : اذا أنا أفشيت سرّى إلى صديق فأذاعه فهو فى حل . فقيل له . وكيف ذاك ؟ قال : أنا كنت أحق بصيانته — المبرد — ص ٢٨

ومن أخبار عمرو التى تدل على علمه وتعقله وبعده عن الأوهام أنه لما كان بالاسكندرية انكسف القمر فقال له رجل من القوم : لقد حدثنا شيطان هذه المدينة أن القمر سيكسف من الليلة . فقال رجل من الصحابة : كذب عدو الله هذا هم علموا ما فى الأرض فأعلمهم ما فى السماء ! فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له : انما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون ثم قرأ الآية (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير)

فانظر كيف دحض عمرو حجة الرجل بهذا الدليل النقلى الذى يدل على إلمامه بأسرار كتاب الله العزيز فبزّ الصحابى وأقام الدليل على أن العقل إذا نما ونضج سهل عليه الاهتداء الى معرفة أسرار الطبيعة والوصول الى معرفة كثير من مكنونات الكون !

والظاهر أن ممارسة عمرو التجارة من صغره وكثرة أسفاره الى الشام والحبشة ومصر وغيرها ومخالطته لأقوام مختلفين قد أكسبته فوائد جمة من معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والادبية مما كان له تأثير كبير فى تثقيف عقله وسمو مداركه وأفاده فائدة تذكر . وسيظهر من سيرته انه لم يكن تاجراً فحسب بل كان شاعراً وسياسياً محنكا وقائداً ماهراً حتى عدوه من دهاة العرب وأبطالهم وذوى الرأى فيهم

والخلاصة أنه سوف يتجلى من استقصاء أخبار عمرو انه قد أوتى من الشجاعة والأقدام وحسن البلاء وكذا العلم والحكمة والحزم والوفاء وثبات العزيمة والدهاء وغير ذلك من جليل الصفات مما لم يجتمع مثلها لمثله إلاّ فى القليل النادر من مشاهير الرجال ممن أتم الله نعمته عليهم وهداهم الى التوفيق فى أعمالهم والفوز فى جميع فعالهم . ولهذه جميعها كان عمرو فريداً فى عصره ونابغة بين قومه ونابًا من أنياب العرب وليثًا من ليوثهم ودعامة من أقوى دعائمهم صادق العزيمة قوى الحجة ثابت الجأش . ومن هذه صفاته وتلك أخلاقه فهو كفء للقيام بعظائم الأمور .

(ه) احتراف عمرو التجارة :

من المعلوم أن تربة مكة صخرية تبعد عنها المزارع. وقد ذاعت شهرة قريش وامتازوا على غيرهم من العرب بالنشاط وكان لهم احترام فى نفوس غيرهم من القبائل ومكانة لا تنكر لأنهم ولاة الكعبة الذابون عن حياضها الحافظون مجدها. ولكن تربة بلدهم حالت دون اشتغالهم بالزراعة. الا أن مركز مكة الجغرافى قد ساعد قريشاً على ممارسة التجارة. فكانت مكة واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام والحبشة فامتازوا بالنقل بين هذه البلاد. وكانت ميناء جدة التى تبعد عن مكة بنحو أربعين ميلا واسطة عقد التجارة بينها وبين الحبشة. فكانت تحمل كنوزها (الحبشة) فى جزيرة العرب الى القطيف فى أقليم البحرين حيث تنقل فى القوارب مع اللؤلؤ الذى كان يستخرج من سواحل الخليج الفارسى الى مصب الفرات وتقع مكة فى نحو منتصف المسافة بين اليمن جنوباً والشام شمالاً. وكانت ابل قريش تحمل الطيب من أسواق صنعاء ومن موانئ عمان واليمن. ومن أسواق بصرى ودمشق كان يشترى القمح والمصنوعات. لذلك كانت قريش حضرا أهل تجارة وتجارتهم قائمة بالحجاج الذين يفدون الى مكة من جميع الجهات فى المواسم. فكانت الكعبة مصدر أرزاق أهلها ولولاها ما استطاعوا الحياة فى ذلك الوادى وهو غير ذى زرع. وقد اكسبتهم أسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدين فى أطراف العراق والشام وفى بلاد الحبشة واليمن خبرة وتجربة وذكاء حتى صاروا أوسع العرب علماً واكثرهم خبرةً ودرايةً. لذلك بذلوا العناية القصوى فى إدارة شؤون الكعبة وسهلوا على الناس القدوم اليها. وقد بلغ من اهتمامهم بالتجارة انهم كانوا يرحلون رحلتين فى العام : رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام. وكانت بلاد العرب وعرة الا عليهم فلم يكن لأهل الشام والحبشة وغيرهما من سبيل لولوج هذه الفيافى والقفار الكثيرة الوعورة والأخطار فاحتكروا تجارة البلاد السعيدة (اليمن) والشام وغيرهما واستقلوا

بتبادل سلعها، وقدكان من وراء تبادل تلك التجارة وانتشارها فى مكة ما عاد على أهلها بالأرباح الطائلة . ولم يكن حب أبناء الأشراف والنبلاء وأهل الشرف فيهم للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التى كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم[1]

كان عمرو بن العاص أحد ابناء هؤلاء الأشراف تاجراً فى الجاهلية . والظاهر أنه كان يتجر ببضائع اليمن والحبشة الى الشام وببضائع الشام الى اليمن كالجلد من اليمن يتجر به فى الحبشة . والطيب من هذه والزبيب والتين ونحوه من الشام . وقد ذكر الكندى أن عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته إلى مصر وهى الأدم والعطر[2] والظاهر من قول الكندى أن أنواع السلع التى كان يتجر فيها عمرو ويختلف الى الشام والحبشة واليمن ومصر من أجلها كان أخصها الأدم والعطر . وقد عادت ممارسة التجارة على عمرو بأعظم الفوائد مادية كانت أو أدبية فقد اكتسب شيئاً كثيراً من أسفاره المتصلة واختلاطه بأقوام على جانب عظيم من المدنية والارتقاء اذ ذاك . فتولدت فيه المواهب النادرة ونمت وازدهرت فتجلت مظاهرها فى جميع أدواره وكل فعاله مما كان له أعظم الأثر فى مواقفه السياسية والحربية . وهذه الأسفار قد اكسبت عمراً شيئاً من الدهاء غير قليل وضرب به المثل واخترعت فيه الروايات : من ذلك ما رواه صاحب الأغانى (ج ٨ ص ٥٠)[3]

(و) سفر عمرو الى مصر فى الجاهلية :

ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٤١) أن عمرو بن العاص قدم إلى بيت المقدس بتجارة فى نفر من قريش . وكان عمرو يرعى فى بعض جبالها إبله وإبل أصحابه . وكانت رعية الابل نوباً بينهم . فبينما عمرو يرعى إبله إذ مرّ عليه

---

(١) جيبون ج ٩ ص ٩٤ (٢) كتاب القضاة والولاة (ص ٧)

(٣) اكتفينا بالاشارة الى المصدر لطول الرواية وبعد تصديقها

شماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فأسقاه عمرو من قربة له حتى روى . ثم نام الشماس في مكانه وكان الى جانبه حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها سهماً فقتلها . فلما استيقظ الشماس وعلم بذلك أقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال له : قد أحياني الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية . فقال له الشماس : وكم ترجو أن تصيب من تجارتك ؟ قال : رجائي أن أصيب ما أشترى به بعيراً فتكون لى ثلاثة أبعرة . فقال له الشماس : أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي ؟ فقال : مائة من الابل . فقال له الشماس : لسنا أصحاب إبل نحن أصحاب دنانير . قال : تكون الف دينار . فقال له الشماس : انى رجل غريب في هذه البلاد وانما قدمت أصلى في بيت المقدس وأسيح في هذه الجبال شهراً جعلت ذلك نذراً على نفسى وقد قضيت ذلك وانما أريد الرجوع الى بلادى فهل لك أن تتبعنى الى بلادى ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله تعالى قد أحياني بك مرتين ؟ فقال له عمرو : وأين بلادك ؟ قال : مصر في مدينة يقال لها الاسكندرية . فقال له عمرو . لا أعرفها ولم أدخلها قط[1] فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو : تفى لى بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق . فقال الشماس : نعم لك الله علىّ بالعهد والميثاق أن أفى لك وأن أردك الى أصحابك . فقال له عمرو : كم يكون مكثى في ذلك ؟ قال : شهراً تنطلق معى ذاهباً عشراً وتقيم عندنا عشراً وترجع في عشر ولك علىّ أن أحفظك ذاهباً وأن أبعث معك من يحفظك راجعاً . فقال له : أنظرنى حتى أشاور أصحابى . فانطلق عمرو الى أصحابه وأخبرهم بخبر الشماس وما عاهده عليه وتعاهد معهم أن يقيموا ريثما يعود اليهم وأن يشاطرهم ذلك المال على أن يصحبه رجل منهم يأنس به . فاتفقوا على ذلك وانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس الى مصر حتى انتهى الى

(١) وهذا يخالف ماذكره الكندى أن عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته الى مصر فى الجاهلية

الاسكندرية فرأى من عمارتها وآثارها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه ذلك حتى قال : ما رأيت مثل مصر وكثرة ما فيها من الأموال . ونظر الى الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال فازداد تعجبًا على تعجبه .

ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيداً فيها عظيماً يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم وفيما اختبروه من تلك الاكرة أن كل من وقعت فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم . فلما قدم عمرو الاسكندرية اكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه اياه وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة . وبينما هم يتلقونها باكمامهم رمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو . فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الاكرة قط الآ هذه المرة أترى هذا الأعرابى يملكنا ؟ هذا لا يكون أبداً . وان ذلك الشماس مشى فى أهل الاسكندرية وأعلمهم انه أحياه مرتين وأنه قد ضمن له الفى دينار وسألهم أن يجمعوا له ذلك فيما بينهم ففعلوا ودفعوها إلى عمرو . فانطلق عمرو وصاحبه و بعث معهما الشماس دليلاً ورسولاً وزودهما واكرمهما الاكرام كله حتى رجع هو وأصحابه الى أصحابهما . فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد واكثرها مالاً . فلما رجع عمرو الى أصحابه دفع اليهم فيما بينهم الف دينار وأمسك لنفسه الفًا . قال عمرو : فكان هذا أول مال تأثلته . اهـ بتصرف

والذى نراه ان هذه القصة ملفقة والتلفيق فيها ظاهر ظهوراً بيناً سنكشف الستار عنه . ومع ذلك فلا يبعد أن يكون عمرو بن العاص قد زار الاسكندرية (كما ذكر الكندى) فعرف مسالك البلاد وطرق القدوم اليها . على أن شهرة مصر وعاصمتها الاسكندرية لم تكن لتخفى على عمرو بن العاص بعد أن فتحت اكثر مدائن الشام على يديه ووقف بنفسه على أخبار مصر التى أخصها هجرة الألوف من المصريين الى بلاد الشام لاضطهاد الروم لهم وقتل اليعاقبة منهم . فانتهز

هذه الفتن وانشغال الروم بقمع هذه الثورات فرصة سانحة لاستيلائه على مصر.

والذى يدعو الى العجب من هذه القصة ترامى الملوك بالاكرة ووقوعها فى كم عمرو. وأن من وقعت فى كه لم يمت حتى يملكهم. والتاريخ لم يذكر لنا رومانيا تعين حاكماً لمصر ينطبق عليه قول السيوطى. ومن المعلوم أن حكام مصر كانوا يعينون من قبل امبراطور الروم مباشرة ومن طبقة الفرسان أو من أهالى الاسكندرية الذين يتمتعون بالحقوق الرومانية المدنية وأن امبراطرة الرومان حظروا على أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ذوى الانساب الدخول فى وادى النيل من غير ترخيص منهم(١). واذا كان كذلك فأين كان هؤلاء الملوك الذين ذكر السيوطى انهم كانوا يترامون بالكرة فى ذلك الاحتفال. ولم يتمكن أحد من الروم من دخول مصر اللهم الا إذا كان تاجراً غير مشهور أو سائحاً لاحيثية له لزيارة هذه البلاد؟ ثم بأى لغة كان الحديث بين عمرو وبين الشماس أكان باليونانية أو القبطية وعمرو يجهلهما أم كان بالعربية وما كان أهل مصر يعلمونها؟ ثم كيف يعده هذا الشماس بالفى دينار فاذا أتى الى الاسكندرية مشى فى أهلها ليجمع هذا المال؟

---

(١) ملن (ص ٣)

الباب الثاني

﴿ عمرو منذ أسلم إلى أن انتهت حروب الردة ﴾

(١) إسلام عمرو :

ذكر الطبري سبب إسلام عمرو بن العاص قال : قال عمرو :

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرَون رأيي و يسمعون مني فقلت لهم : تعلمون والله أني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً واني قد رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فانا أن نكون تحت يديه أحبّ الينا من أن نكون تحت يدي محمد وان يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلا يأتينا منهم إلاّ خير. فقال : ان هذا لرأى قلتُ فاجمعوا له ما نهدى اليه وكان أحب ما يهدى اليه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدما كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فو الله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه اليه فى شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه . قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده . قال : فقلت لأصحابي : هذا عمرو ابن أمية الضمرى لو قد دخلت على النجاشى سألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه فاذا فعلت ذلك رأت قريش أنى أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال : مرحباً بصديقى أهديتَ لى شيئاً من بلادك ؟ قلت : نعم أيها الملك قد أهديتُ لك أدما كثيراً ثم قربته اليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له : أيها الملك انى قد رأيت رجلاً من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله فانه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . فغضب ثم مدّ يده فضرب به أنفه ضربة

معد يكرب الزبيدى كان ممن أبلى البلاء الحسن فى القادسية . وكان يحمل على الأعداء ويطعنهم بسيفه وقد ناهزت سنه المائة ومع ذلك فقد بز الشباب حمية وبسالة واقداماً وقوة

وقول (بطلر) الذى يستبعد أن يفتح عمرو بن العاص مصر وهو فى سن السادسة والستين مردود عليه . لأنه اذا سلمنا بهذا القول جدلاً فان عمراً قد فتح مصر الفتح الثانى وهو فى سن السادسة والستين أيضاً !! أى قبل بلوغه السبعين باربع سنين .

ولهذا لا نستبعد موت عمرو بن العاص وله تسعون سنة تقريباً وهى السن التى نختارها وربما زادت أو قلت بسنة أو اثنتين

أما قول ابن قتيبة أن عبد الله بن عمرو أصغر من أبيه باثنتى عشرة سنة مما يزيدنا ارتياباً فى صحة هذه الرواية اذ لا يعقل مطلقاً ان تحمل أم عبد الله ولأبيه احدى عشرة سنة تقريباً

(د) تربية عمرو

كان بيت العاص كما أسلفنا من البيوتات العالية الرفيعة العماد وكان عمرو ولا شك قد شب فى حجر أبيه ونشأ مع أبناء الأشراف فى مكة الذين يترفع آباؤهم عن الدنايا فيصبغون أبناءهم بآدابهم ويعلمونهم عالى الهمم وجميل الخصال لأنهم فخرهم الدائم ومجدهم الخالد . وكانت بلدهم مكة مركز حركة الحجاز التجارية والأدبية فكان يفد اليها العرب من كل صوب وحدب أيام الحج والمواسم فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض ويتناشدون الأشعار الحماسية ويتحدثون بكرم أصلهم وشرف مجدهم . فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والأدبية فى نفوس أطفالهم المواهب النادرة والقرائح الوقادة والخصال الكريمة والعادات السامية وتدفع بهم الى جليل الأعمال وأسمى الغايات

وليس هنالك سبيل الى البحث عن تربية عمرو العلمية فان هذا النوع من التربية لم يكن موجوداً اذ ذاك لأن العرب فى هذا الوقت لم يكن لهم بالعلوم عهد . ومع ذلك فقد كان عمرو كاتباً قارئاً وكنا نود لو عرفنا متى وكيف تعلم ذلك ولكن المؤرخين لم يذكروا منه شيئاً . ويخيل الينا أنه انما كتب وقرأ بعد أن شب وحين مارس التجارة فما نظن ان مكة كانت فى هذا العصر تعنى بتعليم أطفالها الكتابة والقراءة انما كان يشعر الرجل من أهلها بالحاجة الى ذلك فيتعلمه .

وقد ذكر لنا التاريخ أن عمرو بن العاص كان يجيد الشعر وقد روى عنه شعر كثير جيد . وان كان الرواة لم يكادوا يتركون واحداً من الصحابة من غير أن يرووا له شعراً . واشتهر بالفصاحة والإبانة فى القول[1] . يدلك على ذلك قوله حين شاوره معاوية فى أمر عبد الله بن هاشم بن عُتْبة بن مالك بن أبي وقّاص . وكان أبوه أحد فرسان على فى صِفِّين فأشار عليه عمرو أن يقتل عبد الله فرأى معاوية العفو عنه فخرج عمرو مغضباً وكتب اليه .

أمرتُك أمراً حازماً فعصيتنى ... وكان من التوفيق قتلُ ابن هاشم
أليس أبوه يا معاوية الذى ... أعانَ علينا يوم حَزّ الغلاصم
فقتلنا حتى جرى من دمائنا ... بصفين أمثال البحور الخضارم
وهذا ابنهُ والمرء يشبه عِيصَه ... وتوشك ان تلقى به جدَّ نادم

ولا أدل على فصاحة عمرو من السبائك الذهبية التى نظمها فى خطبه وكتبه — تلك الأقوال التى ينبعث منها الإخلاص فى العمل والسعى لترقية رعيته واستنهاض همم جنده قبيل المواقع الحربية . ولم يكن فى الوصف باقل بلاغة منه فى الشعر فقد

---

(١) هذه العبارة عن اليعقوبى (ج ٢ ص ٦٣) وابى المحاسن (ج ١ ص ٧٢) وهذا ما يخالف ما رواه ابن حجر ان عمر بن الخطاب كان اذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه فيقول : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وتروي هذه العبارة عن معاوية بن أبى سفيان . ولا معنى لها الا أن الشخص الذى يراه فدما عيياً هو وعمرو بن العاص ضدان لفصاحة عمرو وطلاقته وحسن بيانه مع أن خالقهما واحد .

وقد قدمنا ما كان من اعتذار عمرو حين سئل عن سبب ابطائه عن الاسلام فزعم أنه كان يأتمُّ بسادة قريش. وليس من شك فى أن هذا الجواب انما كان يراد بهِ التخلص من مسألة كانت تورط من تلق عليه. ولم يكن هذا أمر عمرو وحده وانما كان أمر طائفة كثيرة من الذين أسلموا متأخرين. ولسنا نشك فى أن عمراً حين أسلم كان وثق بأن أمر الاسلام ليس مقصوراً على بلاد العرب بل هو متجاوزها الى غيرها وأنهُ قد تنبأ بما سيكون للمسلمين من فُتح. ولسنا نزعم أنهُ إنما أسلم طلباً لحسن المكانة فحسب و إنما كان يطلب الى ذلك أن ينفع المسلمين بما أوتى من قوة وحزم وليس من شك فى انه كان قد أعد لنفسه برنامج عمل هو الذى أنفذه حين بدأ المسلمون بالفتح. على أن الرجل لم يكد يبايع النبى صلى الله عليه وسلم حتى صحت عزيمته على أن يبذل ما ملك من قوة لرفع شأن الاسلام. ولسنا نستطيع أن نصف مقدار ما كان لعمرو من الايمان الدينى ولكنا نستطيع أن نجزم بان إيمانه الوطنى وحرصه على اعلاء كلمة العرب و بسط أعلامهم على ما جاورهم من البلاد كانا عظيمين جداً. يدلك على ذلك قول الرسول عليهِ السلام: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص» وكل ما سنقوله منذ الآن يبين هذا الرأى

(ب) احترام الرسول عليه السلام مقدرة عمرو وتنصيبه قائداً لأحد الجيوش

على أن النبى صلى الله عليهِ وسلم لم يفته شيء من ذلك ولم يرد ان يفرق بين هؤلاء الذين أسلموا بعد تردد و بين من سبقوا الى الاسلام وانما علم من كثير منهم صدق النية فقربهم ومن الآخرين الخوف والريبة فأمَّنهم وأراد أن ينتفع الاسلام بهم جميعاً.

روى عن عمرو أنهُ قال: ما عدل بى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم و بخالد بن الوليد أحداً من أصحابه فى حربه منذ أسلمت. وقد وثق بصدق عزيمة عمرو ونصحه للمسلمين منذ أسلم. وكان يعلم من دهائه وذكائه ما عرفه الناس فولاه قائداً على

سرية (ذات السلاسل) وهي تلك السرية التي كانت تضم بين رجالها ثلاثة من عظماء الاسلام وأقطابه وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم . كذلك ولاه على سرية لهدم (سُواع) واستعمله على عُمان .

(ح) سرية عمرو الى ذات السلاسل :

كان النبي صلى الله عليهِ وسلم يرسل السرايا الى القبائل يدعوهم الى الاسلام . وكان اخوال العاص بن وائل من بلى[1] وعذرة من أرض جذام . وقد بلغ رسول الله عليهِ السلام ان قضاعة أرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة فأرسله رسول الله صلى الله عليهِ وسلم الى قضاعة كى يستألفهم بذلك. سيره بثلثمائة من اشراف المهاجرين والانصار حتى إذا كانوا على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل خاف عمرو على من كان معهُ لقلتهم فبعث إلى النبي صلى الله عليـهِ وسلم يستمده فأمده بأبي عبيدة بن الجراح و بمائتين من سراة المهاجرين والانصار فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وزوده بالنصائح وحذره عاقبة الاختلاف فخرج حتى قدم على عمرو .

ومما يسترعى الأنظار أنهُ كاد يقع ما حذر النبي صلى الله عليـهِ وسلم أبا عبيدة عاقبته وكادت تتطاير نيران الشقاق بين عمرو وأبي عبيدة لولا أن تلافى أبو عبيدة الشر. ذلك أن أبا عبيدة أراد أن يؤم الناس فقال عمرو : انما قدمت عليَّ مدداً وأنا الأمير ولا امارة لك . فقال أبو عبيدة : لا ولكن أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه . فتشبث عمرو برأيه واستمسك بكلمته فتذكر أبو عبيدة قول رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وأطاع له و بذلك حسم النزاع وزال الخلاف .

ثم سار الجيش الى العدو وحمل المسلمون عليهم حملة منكرة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فتشتت شملهم وتمزقت جنودهم فهربوا فى البلاد وتفرقوا

---

(١) بليٌّ : قبيلة كبيرة ينسبون الى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة وعذرة قبيلة تنسب الى سعد بن قضاعة و بلادهم وراء وادى القرى بينها و بين المدينة عشرة أيام

ولما هزم المسلمون الأعداء طمعوا فيهم وأرادوا أن يقتفوا أثرهم فحال عمرو بينهم وبين ما يشتهون . ثم أرادوا أن يوقدوا ناراً يصطلون عليها من البرد فمنعهم أيضاً وأمر بأن من يفعل ذلك يقذف بهِ فيها فشق على المسلمين ذلك ولم يحتملوا تلك الشدة التى عاملهم بها عمرو وهى تلك الشدة التى رآها من مستلزمات الخطط الحربية التى لا غنى للقائد المدبر عنها . فلما انصرفوا شكوا منهُ إلى النبى صلى الله عليهِ وسلم . فكلمه فى ذلك فقال له عمرو قولاً يدل على كفاءته فى الحرب وبعد نظره فى عواقب الأمور : كرهت ان آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم وكرهت ان يتبعوهم فيكون لهم مدد .

فأعجب بهِ رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أيما إعجاب وحمد رأيه

(ى) سرية عمرو الى سواع :

وسواع صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة . وكان هذا الصنم على صورة أمرأة يحجون اليهِ ويعبدونه على نحو ما كان بين العرب وبين سائر أصنامهم فبعث رسول الله صلى الله عليهِ وسلم عمرو بن العاص فى جماعة من أصحابه الى سواع ليكسروه . فلما وصل الى سواع قال السادن : ما تريد ؟ فقال عمرو : أمرنى رسول الله أن أهدمهُ . قال : لا تقدر على ذلك فقال عمرو : ولِمَ ؟ قال : تمنع . فقال له عمرو : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك وهل يسمع أو يبصر ؟ ودنا منهُ عمرو وكسره وأمر أن يهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيها شيئاً ثم قال للسادن : كيف رأيت ؟ فقال : أسلمت لله رب العالمين : (١) بإيجاز .

ولم يذكر المؤرخون عدد من كان مع عمرو . على أننا نرجح أنهُ كان فى رجال لا يتجاوزون عدد أصابع اليد لانهُ لم يكن على هذا الصنم غير السادن . وانما نرجح أن وجود هذا المدد مع عمرو كان لهدم بيت خزانته

---

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٧٩ ، وتاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ٢٧٣

(هـ) تولية عمرو على الصدقة بعمان :

لا نرى من مؤرخ أو باحث بيننا إلاّ وهو متفق معنا على مقدرة عمرو الحربية وتصرفه فى الأمور بحكمة وروية نادرتين . فلا غرو اذا وضع النبي صلى الله عليه وسلم ثقته فيه لكفاءته ومهارته وأسند اليه تولية الأعمال السياسية والدينية الخطيرة ففى شهر ذى الحجة سنة ثمانٍ من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملكى عمان[1] جيفر[2] وعباد ابنى الجُلَنْدَى كتاباً مع عمرو بن العاص يدعوهما الى الاسلام . وكان دين تلك البلاد المجوسية وهذا نصه : —

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى جيفر وعبّاد ابنى الجلندى : سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوكما بدعاية الاسلام أسلما تسلما فانى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين . وانكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما . اه

أهل عمان

لم يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم عمراً فى الحرب فحسب بل استخدمه فى السياسة أيضاً لعلمه بدهائه وبعد نظره فبعث به سفيراً إلى جيفر وعباد ملكى عمان حتى إذا ما انتهت سفارته ونجحت دعوته وأسلم أهل عمانٍ على يديه عينه والياً للصدقة عليها جزاء خدمته العظيمة فتقلد هـذه الوظيفة السامية حتى وفاة الرسول عليه السلام . ولا بد أن يكون لعمرو سابق معرفة ببلاد عمان لتردده عليها قبل إسلامه ومعرفته بأحوال أهلها وعاداتهم . فتمكن بحسن سياسته من توطيد دعائم الاسلام فى أرجائها . وفضلاً عما كان لهذه الخدمة من الأهمية الدينية فقد كانت لها أهمية سياسية كبيرة ليس لها إلا أمثال عمرو كما سترى

فخرج عمرو حتى انتهى إلى عمان حيث قابل عباداً وكان أصغر من أخيه جيفر وأحلم وأسهل خلقًا منه فسأله عباد عن حاجته فأجابه عمرو : إنى رسول الله صلى

---

(١) عمان (بضم العين وتخفيف الميم) بلدة باليمن سميت باسم عمان بن سبأ . وأما عمّان (بفتح العين وشد الميم) بلدة بالشام (٢) جيفر على وزن جعفر

الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك فقال : أخي المقدّم على بالسن والملك وأنا أوصلك اليه كي تقرأ كتابك عليه . ثم سأله عما يدعو اليه هذا الدين وهل أسلم أبوه أم مات على غير الاسلام ومتى أسلم عمرو وأين كان إسلامه وما الذى يأمر به هـذا الدين وينهي عنه . فأجابه عمرو بما اشتهر عنه من الأبانة فى القول و إقامة الحجة حتى أقنعه وأراه الحق عياناً فمال قلب عباد إلى الاسلام ورغب فيه . يدلك على ذلك قوله : ما أحسن هذا الذى يدعو اليه ولو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به . ولكن أخى ضنّ بملكه من أن يدعه و يصير ذنباً (تابعاً) بعد أن كان متبوعاً . فقال له عمرو : إن أسلم ملّكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه يأخذ الصدقات من غنيهم ويردها على فقرائهم فأعجب عباد بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما أعجاب لما فى ذلك من مواساة الفقراء و إغاثة الملهوف وقضاء حاجة المعوزين .

أقام عمرو بباب جيفر أياماً من غير ان يقابله وعباد يخبر أخاه بكل ما يدور بينه وبين عمرو من أطراف الحديث حتى دعاه عباد يوماً ليدخل على أخيـه : ولما تم لعمرو ما أراد من مقابلة جيفر أذن له هذا بالحديث فدفع اليه الكتاب مختوماً بختم النبي صلى الله عليه وسلم فقرأه ثم دفعه إلى أخيه فقرأه كذلك . وحينذاك سأله عما صنعت قريش فقال عمرو : إما راغب فى الدين وإما مقهور بالسيف وان لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويبيد خضراءك (رجالك) فأسلم تسلم فيوليك على قومك وتبقى على ملكك مع الاسلام ولا تدخل عليك الخيل والرجال وفى هذا مع سعادة الدارين راحة من القتال

ودعاه جيفر أن يمهله يوماً ريثما يعمل فكره ويرجع إليه فى اليوم الثانى فلما كان الغد عاد عمرو إلى أخيه الذى استصحبه الى الملك فأجابه بالنفى وصمم على أن لا يسلم تراث ملك آبائه وأجداده لأحد وأظهر استهانته بما تضمنه خطاب النبى صلى الله عليه وسلم بأنه لاينبغى للمسلمين التغلب على بلاده مع ما هو فيه من بعد الشقة وزوده بأنه سوف يقف فى سبيل المسلمين و يبعدهم عن بلاده فهمّ عمرو بالانصراف غير

أن عبادا فطن لعواقب هذا العناد فنبه أخاه ونصح له بتلبية دعوة النبي صلى الله عليه وسلم واعتناق الاسلام فأرسل الى عمرو وأجاب للاسلام هو وأخوه وخليا بين عمرو والصدقة و بين الحكم فيما بينهم وكانا عونًا له على من خالفه وأسلم معهما خلق كثير.

ظل عمرو متوليًا هذا المنصب الديني السياسي الكبير زُهاء سنتين يهدي الناس الى الاسلام فيدخلون في دين الله أفواجا وكان يأخذ الصدقة من الأغنياء ويردها على الفقراء ولم يزل مقيما هناك حتى جاءه نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه كتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه مختومًا وفيه ان لا يحلّ عقالاً عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لا يعقل عقالاً لم يعقله رسول الله. فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلاً وحزن حزنًا شديداً ثم خرج على القوم فأعلمهم الخبر فعزوه.

(و) عمرو وردة العرب

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم منيت الأمة العربية باضطرابات جسيمة زعزعت مركزها وكادت تودى بعصبيتها وعظمتها. فقداختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة وكان من وراء ذلك ما هو معلوم. ولو كان عمرو في المدينة اذ ذاك لما ظل ساكنًا هادئًا بل لا بد أن يكون قد دخل في هذا الخلاف ولعب فيه دوراً مهمًا وان كان اليعقوبي قد ذكر انه كان له ضلع فيه فانه لا سبيل الى تصديقه اذ ليس من شك في أنه كان لا يزال بعمان حتى دعاه أبو بكر. ولكنهُ اشترك فيما كان بين الأمة العربية في كافة أنحاء الجزيرة عقب تولية أبي بكر. ذلك أن القبائل العربية بعد وفاة الرسول عليه السلام لم تكن ترغب في أن تخضع لسلطان قريش وقد أخضعوا اما طوعًا أو كرهًا. فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم خيل اليهم أن هذا السلطان منحل لأن بعضهم كان لا يستطيع أن يصدق موت النبي فلما تحققه شك في الدين و بعضهم كان يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعد ما مات زعيمهم ولأنهم كرهوا سيادة قريش التي ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم

وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين ولكي تحافظ على هذه السلطة كان لا بد لقريش من محاربة هذه القبائل الخارجة عن طاعتها فرفضت أكثر قبائل العرب أن تخضع لسلطان أبي بكر وامتنعوا عن أداء الزكاة . وما زال دبيب العصيان يثور فى نفوس القبائل الواحدة بعد الأخرى حتى تزعزع مركز الاسلام وانكمش إلى مدن مكة والمدينة والطائف (وكذا قبيلة عبد القيس)

أما عمرو بن العاص فقد أرسل فى طلبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فأقبل حتى قدم إلى بلاد بني عامر ونزل بقرة بن هبيرة وقرة يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بنى عامر فأكرم قرة مثواه ولما أراد الرحيل خلا به قرة وقال : يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة (الرشوة) فان أعفيتموها فتسمع لكم وتطيع وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم

ولكن ماذا صنع عمرو ؟ أظهر لديه من الشهامة والشمم ما لا يقوى عليه الاصناديد الرجال وليوثهم فأجابه على الفور جواباً يدل على استهانته بردة العرب وينم عن الهول والثبور لكل من ناوأ الدين أو أراد به شراً أو أذى حين قال : أكفرت يا قرة ؟ تخوفنا بردة العرب ؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل فى حَفْش[1] أمك . وقدم على المسلمين فأخبرهم فطفقوا يسألونه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا الى المدينه ولما قدم بقرة بن هبيرة أسيراً على أبي بكر استشهد قرة بعمرو على إسلامه فأحضر أبو بكر عمراً فسأله فأخبره بقول قرة الى أن وصل إلى ذكر الزكاة فقال قرة : مهلاً يا عمرو . فقال : كلا والله لأخبرنه بجميعه . فعفا عنه أبو بكر وقبل إسلامه . إبن الأثير ج ٢ ص ١٧٠

---

(١) الحفش بيت ينفرد فيه النفساء

أما نصيب عمرو فى قتال أهل الردة فان أبا بكر[1] أمره على جيش كثيف من المسلمين لحرب المرتدين من قضاعة وكان قد حاربهم فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة « ذات السلاسل » وأصلاهم ناراً حامية وقتل منهم مقتلة عظيمة وعاد من بقى منهم إلى الاسلام .

وكانت قضاعة قد انست فى المسلمين الضعف بعد وفاة الرسول عليه السلام وهم لم يسلموا رغبة فى الاسلام واهتداء بهديه بل دخلوا فى هذا الدين ككثير من القبائل تحت عوامل الخوف أو طمعاً فى مال أو جاه يصيبونه فلم يكن قد تمكن الاسلام من قلوبهم . فلما أنفذ اليهم أبو بكر الصديق هذا الجيش تحت قيادة عمرو بن العاص سار عمرو بجيشه فى الطريق الذى سلكه من قبل حتى وصل الى بلاد قضاعة فأعمل السيف فى رقابهم وغلبهم على أمرهم وأرغمهم على أداء الزكاة والرجوع الى الاسلام وعاد الى أمير المؤمنين حاملاً لواء النصر والظفر

(١) عقد أبو بكر الالوية لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن أمية المخزومى القرشي وخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وحذيفة بن محصن الغلفانى من حمير وعرفجة بن هرثمة البارق من الازد وشرحبيل بن حسنة حليف بنى زهرة ومعن بن حاجز السلمى وسويد بن مقرن من أوس والعلاء بن الحضرمى حليف بنى أمية .

الباب الثالث

عمرو فى فتح الشام وفلسطين

(١) كتاب أبي بكر لعمرو وهو بعمانه وانفاذه الجيوش لغزو سورية وفلسطين

إنتصرت قريش على العرب فكان همّ أبي بكر أن يشغل العرب والجيوش التى قهرتهم بالحروب الخارجية وكانت هذه الحروب تفى بما أمر الدين من نشر الاسلام من جهة و بما كان العرب فى حاجة اليه من الاشتغال بالأعمال الخارجية عن خلافاتهم الخاصة الداخلية . فانه ما كادت حروب الردة الطاحنة التى شنها العرب بعضهم على بعض تنصرم حتى وجدنا تلك الأمة الفتية تتأهب لفتح البلاد وتمصير الأمصار ولم تكن همة عمرو الكبيرة وعزيمته الماضية لتقف به عند هذا الحد بل رأيناه يخوض غمارها تارة يقود الجيوش الجرارة وأخرى ينشر الاسلام فيدخل الناس فى دين الله زرافات ووحدانا . فاشترك اشتراكاً فعلياً فى فتح الشام وفلسطين وعلى يديه فتح العرب مصر .

وقد كان حكام الروم فى آخر أيامهم يعاملون الأهلين بالظلم و يسومونهم العذاب فتأفف من جورهم أهالى البلاد التى كانت تحت سلطانهم ومالوا الى الخلاص من ربقة الذل والاستعباد وتغيير الحال التى أصبحوا فيها على أى شكل كان . ولم تكن الروم وقد ضعف أمرهم وكادت تدول دولتهم من القوة بحيث يتمكنون من دفع العرب عن بلادهم ، فخامر نفوسهم شىء من اليأس فساعد هذا تلك الأمة الطموحة مع ما عليه رجالها من الشجاعة وقوة الايمان وعدم المبالاة بالموت على فتح الشام وفلسطين وغيرهما من البلاد .

وقد كانت نيران الانتقام والحقد تأكل قلوب الروم من جرّاء الغارة التى شنها على بلادهم أسامة بن زيد . فجمع الامبراطور (هرقل) جيشًا جراراً عسكر به على مقربة من حدود بلاد العرب وفلسطين .

فدعا أبو بكر الصديق رضى الله عنه المقاتلين من جميع أرجاء جزيرة العرب فلبوا الدعوة بحمية وحماس شديدين . وكتب أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص رضى الله عنه : انى كنت قد رددتك على العمل الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكه مرة وسماه لك أخرى مبعثك الى عمان انجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه إلاَّ أن يكون الذى أنت فيه أحب اليك (الطبري ج ٤ ص ٢٨)

فكتب إليه عمرو : انى سهم من سهام الاسلام وأنت بُعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئًا ان جاءك من ناحية من النواحي

وسرعان ما أنفذ أبو بكر الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة بعد أن عقد لأربعة من الأمراء هم :

(١) أبو عبيدة بن الجراح : ووجهته حمص ومركز القيادة الجابية

(٢) عمرو بن العاص : ووجهته فلسطين .

(٣) يزيد بن ابى سفيان : ووجهته دمشق .

(٤) شُرحبيل بن حسنة : ووجهته وادى الأُرْدُن .

وأمرهم أبو بكر أن يعاون بعضهم بعضا وأن يكونوا جميعا تحت إمرة أبى عبيدة . وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين وعليه أن يمد الجيوش الأخرى اذا دعت الحاجة الى ذلك .(١)

---

(١) الطبرى (ج ٤ ص ٨٢) ؟ وابن الاثير (ج ٢ ص ١٩٥) والأمير على (ص ٣٤ - ٣٦) ؟ و إيرفنج (ص ١٢) وميور (ص ٦٧)

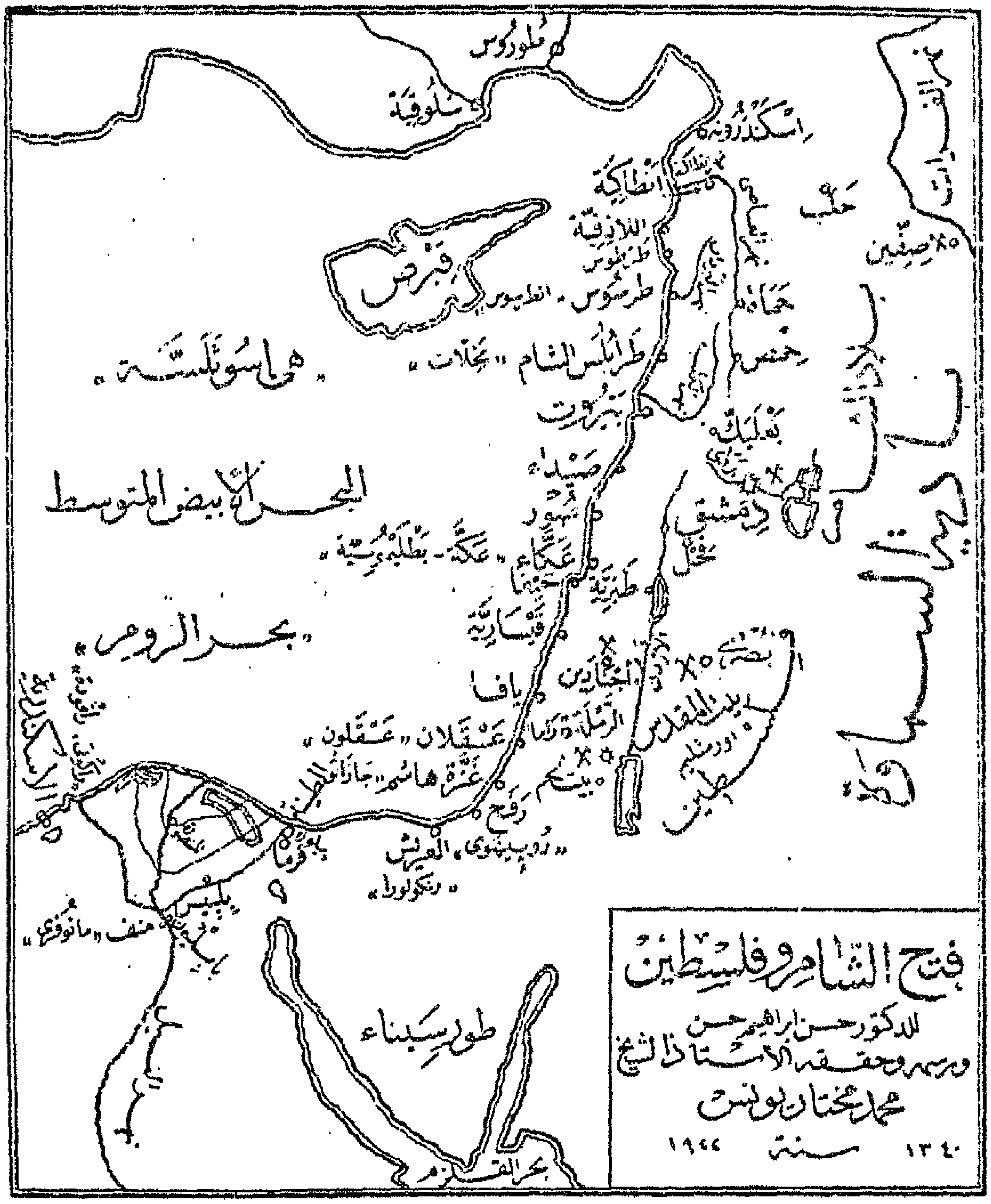
فتح الشام وفلسطين
للدكتور حسن إبراهيم حسن
ورسمه وحققه الأستاذ الشيخ
محمد مختار يونس
١٣٤٠ سنة ١٩٢٢
سلوقية
إسكندرونة
أنطاكية
حلب
صفين
اللاذقية
قبرص
طرطوس
حماة
حمص
طرابلس الشام
بيروت
بعلبك
صيدا
صور
دمشق
عكا
حيفا
طبرية
فحل
قيسارية
بصرى
أجنادين
يافا
الرملة
عسقلان
بيت المقدس
غزة هاشم
بيت لحم
رفح
العريش
الفرما
بلبيس
طور سيناء
بحر القلزم
البحر الأبيض المتوسط
بحر الروم

(ب) وصية ابي بكر لعمرو بن العاص عند مسيره الى فلسطين :

وقد آثارنا ان نقتطف من هذه الوصية البليغة بضع شذرات علّنا نقف على شيء من أخلاق عمرو وحرص أبي بكر على المسلمين وسلوك الامراء مع الامم التى فتحها العرب . قال الواقدى :

دعا أبو بكر عمرو بن العاص فسلم اليه الراية وقال : قد وليتك هذا الجيش (يعنى أهل مكة والطائف وهوازن و بنى كلاب) فانصرف الى أهل فلسطين وكاتب أبا عبيدة وانجده اذا ارادك ولا تقطع أمراً الا بمشورته. إتق الله فى سرك وعلانيتك واستَحِهِ فى خلواتك فانه يراك فى عملك وقد رأيت تقدمتي لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة . فكن من عمال الآخرة وأرد بعملك وجه الله . واسلك طريق إيلياء حتى تنتهى الى أرض فلسطين . و إياك أن تكون وانياً عما ندبتك اليه و إياك والوهن و إياك أن تقول جعلني ابن أبي قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به . واعلم ياعمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم وأعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول إنما ولانى أبو بكر لأنى خيرهم . و إياك وخدائع النفس وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة ثم الصلاة اذّن بها إذا دخل وقتها . واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس ولتكن انت بعد ذلك مطلعا عليهم . وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك وأقم بينهم واجلس معهم واتق الله اذا لاقيت العدو وقدّم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك . واذا وعظتَ فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك و إذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك فخراً منك . وألزم أصحابك قراءة القرآن وأنههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها فان ذلك يورث العداوة بينهم . وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقى بمن مضى من سلفك . وكن من الائمة الممدوحين

فى القرآن اذ يقول الله تعالى (وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) . ثم قال لعمرو : أمض بارك الله فيك وفيهم . فساروا فى تسعة آلاف يريدون أخذ فلسطين . الواقدى ج ١ ص ٩

ومن أنعم النظر فى هذه الوصية التى ترجمها كثير من مؤرخي الفرنج مثل جيبون وأيرفنج الفيناها آية فى البلاغة لما لها من الأهمية فى هذا الظرف . يحذره فيها مغبة الوهن ونخوة الشيطان والمطاولة على من معه . و ينصح له أن لا يفرق بينه و بينهم فيقيم بينهم ويجلس معهم . وأن يكون مثالا حسنًا لمن معه فينصلح أمرهم بصلاح أمره وأن لا يباشر عملا حربيًا الا بعد أن يخبر عدوه و يبث العيون حتى لا يؤخذ على غرة أو يطوح بهم فى مهاوى التهلكة . و يرغّبه فى الآخرة فانها أفضل من دار الفرار ولا ريب أن هذه النصائح الغالية مما تفيد القواد فائدة كبيرة وتؤدى إلى النصر المبين .

(ح) شروع عمرو فى قتال الروم بفلسطين :

عمل عمرو بن العاص بما رسمه له أبو بكر فى وصيته التى كانت أشبه شيء بالخطة الحربية فسار فى طريق إيلياء حتى وصل الى فلسطين ونزل «بغمر العربات» فلما علم (هرقل) بكتائب المسلمين أراد أن يشغل كل طائفة منهم بطائفة من جنده الكثير ليضعف بذلك قوة المسلمين . و بلغ عمرو بن العاص أن مع الروم أكثر من مائة الف مقاتل مما أوقع الرعب فى قلوب المسلمين فعقد راية وأعطاها لعبدالله بن عمر بن الخطاب وضم اليه الف فارس داهم بهم عشرة آلاف من الروم وحمل بنفسه على كبيرهم وطعنه طعنةً نجلاء فخر ميتًا . فداخل الفزع والهلع قلوب الأعداء واقتتل الفريقان قتالاً أسفر عن انهزام الروم فولوا الأدبار واستولى المسلمون على ما كان معهم من الاسلاب والغنائم عدا ستمائة أسير . وقتل من المسلمين على ما رواه الواقدى (ج ١ ص ١١ —١٢) سبعة [1] اه باختصار

---

(١) ولم يرو الطبرى هذه الموقعة ولعلها أكثر احتياطاً فى رواية الاخبار

عمرو بن العاص يقاتل مائة الف (١) من الروم

ولما لاح صباح اليوم التالى أشرفت على المسلمين عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف . فأقبل عمرو ورتب الجند وجعل فى الميمنة الضحاك وفى الميسرة سعيد بن خالد وعلى الساقه أبا الدرداء . وثبت هو فى القلب ومعه أهل مكة وأمر الناس أن يقرءوا القرآن وجعل يحببهم فى القتال ويرغبهم فى ثواب الله وجنته وهم كالبنيان المرصوص . فلما شاهدهم (روبيس) بطريق الروم انكسرت حميته وسُقط فى يده .

ثم باشر الفريقان القتال وعمل المسلمون الحيلة فى الاعداء وبعجوا دوابهم بالاسنة وحملوا عليهم حملة منكرة ولم تزل الحرب تضطرم نارها بين الفريقين إلى الأصيل إذ أتى الله المسلمين بالنصر وولى الروم منهزمين والمسلمون فى أعقابهم مسرعين . وبينما كان المسلمون يتعقبون الفالة إذ دهمتهم قوة من الروم فقتلوا سعيد بن خالد أخا عمرو بن العاص لأمه . وقد كانت خسارة الروم فى هذه الموقعة خمسة عشر الفاً ، وخسارة المسلمين مائة وثلاثون . ولما تمت لعمرو هزيمة الروم كتب لأبى عبيدة : قد وصلت إلى أرض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له (روبيس) فى مائة الف فارس فمنّ الله علينا بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر الف فارس وفتح الله علىّ فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلاً فان احتجت الىّ سرت اليك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته (٢)

لا ندرى من أى مصدر جاء الواقدى بهذا الكلام الذي يقول فيه عمرو أنهُ تم له فتح فلسطين لانتصاره فى هذه الموقعة والروم مرابطون فى جميع أرجائها وغزة والرملة وبيت المقدس وأجنادين وغيرها لا تزال بأيديهم ولم يفتحوها إلا بعد اليرموك ودمشق . وكيف قوى المسلمون على مائة الف من الروم وزيادة ولم تزد قوة عمرو

---

(١) : (٢) الواقدى (ج ١ ص ١٣) . اما الطبرى فقد ذكر ان هذا الجيش كان سبعين الفاً وذكر ابن الاثير انه كان تسعين الفاً

عن تسعة آلاف مقاتل ؟ أضف إلى ما تقدم أن خسارة المسلمين فى اليوم الذى سبق الموقعة الكبرى (وكانوا سبعة) وكذا خسارة الروم فى هـذه الموقعة قد أغفلت . فكانت خسارة المسلمين مائة وسبعة وثلاثين وخسارة الروم أكثر من خمسة عشر الف . ومما ذكره (الواقدى) فى هذا الكتاب يناقض ما ذكره (الطبرى) و (ابن الاثير) و (والأمير على الهندى) من أن عمرو بن العاص حين رأى (هرقل) قد سير اليهم أربعة جيوش جرارة لسحق جيوش المسلمين الأربعـة مما أدخل الفزع والحيرة فى قلوب القواد كاتب أبا بكر وشاور قواد الشام عمراً فى أمرهم فأشار عليهم بالاجتماع ليكون لهم بذلك قوة يدفعون بها العدو إذ لا يتأتى لهم النصر إلاَّ بالمعونة ورأى أن يكون اجتماعهم باليرموك ، فكتب أبو عبيدة بما كتبوا لعمرو فوافاهم كتاب أبي بكر بما رأى عمرو .[1]

ومن هنا يعلم أن عمرو بن العاص و إن لم يكن أمير المسلمين فى حرب الشام فقد عرف له المسلمون اصالة الرأى و بعد النظر فاستشاروه فى مهام الأمور . ويكفيه فخراً أن جاء جواب أبي بكر مطابقاً كل المطابقة لرأيه وكان من وراء رأيه ما جناه المسلمون من ثمار الانتصار فى موقعة اليرموك مما أضعف العدو وسهل عليهم اجتناء ثمار الفوز والظفر فى الوقائع المتوالية .

ولسنا نشك فى ان حزم عمرو وحسن رأيه هذين إلى ما أظهره من الخدمة والمهارة من قبل — كل ذلك قد أهله لثقة عمر فيما بعد . فمع أن عمراً وخالد بن الوليد كانا يكادان أن ينزلا منزلة واحدة فى الاسلام ، ومع أن خالداً قد أظهر من التفوق فى حرب الردة وفتح العراق والشام ما كان يعده لأحراز المكانة العليا فان عمر لم يرض عنه ولم يثق به ورضى عن عمرو ووثق به طول حياته .

---

(١) الطبرى (ج ٤ ص ٣١) ، وابن الاثير (ج ٢ ص ١٩٨) ، وميور (ص ٦٨ـ٢٨) ، وايرفنج (ص ٣٧)

(د) اشتراك عمرو فى وقائع اليرموك[١] ودمشق والاردن :

ومما يذكر لعمرو فى موقعة اليرموك التى كانت على حدود فلسطين و بلاد العرب أن الروم حملت على المسلمين حملة هائلة فانكشفوا فولى صاحب رايتهم منهزماً واللواء بيده . فابتدر لأخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كلاهما يتسابق اليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى ثاب المسلمون وانهزم جيش الروم .

ومما يذكر له أيضاً أنه كان له نصيب كبير فى يوم التعوير الذى أصاب فيه رماة الروم أعين سبعمائة من جند المسلمين الذين فروا منهزمين ولم يثبت غير أصحاب الرايات وقاتلت الأمراء بأنفسها ومن بينهم عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وعبد الرحمن بن أبى بكر . واشتركت النساء فى القتال مع هذا النفر اليسير . وكان بعضهن يضمدن الجروح أو يسقين الماء وكثير منهن يقوين المسلمين الفارين فيستنهضن الهمم ويقوين العزائم ويثرن الحماس فى قلوب الرجال فكروا على العدو كالجبال الراسيات حتى كان النصر .[٢]

ومن هذه الحادثة تتجلى شجاعة عمرو وكأنهُ أراد أن يكون ارتداد العدو على يديه ، فسبق خالداً لأخذ الراية وقد أحاطت به جند الروم فنسى نفسه حباً للجهاد وما بالى بمن حوله من الروم حين جاهد مع غيره من الأمراء وصبروا على قتالهم صبر الكرام وقاتلوهم قتال المستميت وهم نفر يسير .

مات أبو بكر وتولى عمر فأقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً إلى أبى عبيدة وأمر عمراً بمعونة

---

(١) اليرموك نهر متقد وهبته الطبيعة اسراراً والغازاً ينبع من مرتفعات حوران ويصب فى الاردن جنوبى بحيرة طبرية بأميال قليلة . وعلى نحو ثلاثين ميلا من التقائه بالاردن يكون فى الطرف الشمالى فتحة على شكل نصف دائرة تحيط بسهل متسع صالح لمعسكر جيش كبير . وضفاف هذا النهر وعرة منحدرة . وعند مضيق هذه الفتحة عنق يكون مدخل هذه الارض المنبسطة التى فى الداخل وهذه البقعة تسمى (الواقوصة) ذات الشهرة العظيمة فى الوقائع الاسلامية

(٢) جبون ج ٩ ص ٢٢٦ ، وموير ص ٧٠ — ٧١ واير فنج ص ٦٨

جند المسلمين حتى يصير الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حربها . وقد سار جيش المسلمين ينساب من بين الأدغال والحدائق كتيبة عقب كتيبة وعلى المقدمة عمرو ابن العاص فى تسعة آلاف ومن ورائهم كتائب المسلمين وقوادهم . فلما وصلت جيوش المسلمين نزل عمرو بن العاص بباب (الفراديس) وشرحبيل بن حسنة بباب (توما) وقيس بن هبيرة بباب (الفرج) وأبو عبيدة بباب (الجابية) وبقى خالد بالباب الشرقى . وقد شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يوماً ولم تجدهم منعة حصونهم وما عليها من المنجنيقات وغيرها من آلات الدفاع فتيلاً . وقد منع المسلمون المدد من أن يصل إليهم ونفدت المؤن من عندهم فجنحوا الى الصلح .

وبعد فتح دمشق سار المسلمون نحو فحل وعليهم شرحبيل بن حسنة ، فبعث خالداً على المقدمة وعمرو بن العاص على مجنّبتيه وعلى الخيل ضرار بن الأزور وعلى الرجل عياض ، فاستولى المسلمون على فحل و بيسان وطبرية وقتلوا من الروم ثمانين الفاً كما ذكره الطبرى وياقوت (ج ١ ص ٣٤٠)

(هـ) عمرو وموقعة أجنادين (١)

إشترك عمرو بن العاص فى وقائع اليرموك ودمشق وفحل وبيسان بعد أن هزم للروم الجيوش الجرارة بفلسطين . فكأن أعماله الحربية لم تكن قاصرةً على فلسطين فحسب بل شملت الأردن وامتدت إلى سورية : أعنى أنه منذ وطئت قدمه هذه البلاد قضى وقته فى الطعن والنضال وقيادة الجيوش . ولما تم له ما أراد صرف همته الى القضاء على قوة الروم بفلسطين وفتح ما لم يفتح بعد من بلادها . فبينما كان ابو عبيدة يفتح المدن الواقعة شمالى الشام كحمص وحماه وقنسرين وحلب واللاذقية وغيرها لم تكن فتوح عمرو بفلسطين وانتصاراته الباهرة باقل نجاحاً منها .

---

(١) ذكرها ياقوت فى معجمه فقال : أجنادين (بالفتح ثم السكون ونون والف) هو موضع معروف بالشام من نواحى فلسطين وهى من الرملة من كورة بيت جبرين كانت به وقعة بين المسلمين والروم .

وقد كان على فلسطين وال رومى يدعى (أرطبون) (١) كان عند الروم كعمرو بن العاص عند العرب فى الدهاء وقد وضع جندا عظيما ببيت المقدس وغزة والرملة بينما خيم بجنده الكثيف بأجنادين .

ولما رأى عمرو أن القوة التى مع الروم أقوى مما كان يظن كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره الخبر . فقال عمر : رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرج . وكتب أمير المؤمنين الى القواد أن يسيروا الى قيسارية والرملة و إيلياء (بيت المقدس) كى يشغلوا الروم عن عمرو .

سار عمرو وعلى مقدمته شُرحبيل بن حسنة وعالج كسر قوة (أرطبون) فلم يوفق ولم تشفه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فابلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد . فحدث أرطبون نفسه بأنه عمرو بن العاص فوضع له فى الطريق من يقتله ، وفطن له عمرو فاحتال بما عرف عنه من الدهاء ونجا من شره . وعلم (أرطبون) بحيلته فقال : خدعنى الرجل هذا أدهى الخلق ، وبلغ ذلك عمر ابن الخطاب فقال : غلبه عمرو ولله عمرو . ووقف عمرو بنفسه على حالة الروم فزحف بجنده واقتتلوا قتالا شديداً لا يقل هو لا عن قتال اليرموك فانهزم (أرطبون) فى ثمانين الف من الروم وأوى بالفالة إلى إيلياء . وكان ذلك سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م)

وقد اضطربت كلمة المؤرخين فى السنة التى هزم المسلمون فيها الروم بأجنادين فذكر بعضهم « كالواقدى وياقوت وأيرفنج » أن ذلك كان سنة ١٣ هـ عقب فتحُ بصرى حيث سار العرب لحصار دمشق ، ثم عدلوا عن حصارها ريثما يتم لهم فتح أجنادين وقد علموا أن « هرقل » أنفذ إليهم مائة الف من الروم تحت قيادة « وردان » (٢) وان موت أبى بكر كان قبيل فتح دمشق سنة ١٣ أيضاً . وهو

---

(١) ذكر بطلر (ص ٢١٥) ان لفظ (ارطبون) الذى يطلقه العرب على هذا القائد خطأ . والصحيح « أريطيون »

(٢) قال ياقوت (ج ١ ص ١٢٦) إن قائد الروم كان (أرطبون) كما ذكرنا

يخالف ما ذكره غيرهم « كالطبرى والبلاذرى واليعقوبى وابن الأثير » أن موقعة اليرموك لا أجنادين هى التى سبقت فتح دمشق : أعنى سنة ١٣ هـ . وأن واقعة أجنادين كانت سنة ١٥ هـ . على أن المؤرخين الأفرنج ومعهم الواقدى قد ذكروا أن العرب اشتبكوا بأجنادين مرتين مرة قبل فتح دمشق أى سنة ١٣ هـ ، ومرة أخرى بعد واقعة اليرموك سنة ١٥هـ . ونحن نميل الى أن أجنادين كان بها واقعتان، احداهما سنة ١٣ ثم اشتغل الفريقان بغيرها من البلاد ، ثم عاد إليها المسلمون بعد ذلك.

على أن رواية الطبرى عن ابن اسحق « جـ ٤ ص ٤٥ » توافق ما ذكره الفرنج ، وهو أن فتح أجنادين كان سنة ١٣ هـ حيث اجتمع المسلمون مدداً لعمرو بن العاص

الا أن الفرنج والواقدى يقولون ان عمرو بن العاص أتى مدداً لخالد بن الوليد على أثر كتابته له ولغيره من الأمراء المتفرقين بالشام

فاذا أغفلنا واقعة أجنادين الأولى تيسر لنا بعض التوفيق بين روايات المؤرخين المتناقضة . وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع اذ ليس هذا من شأننا . وقد يكون التخبط فى ترتيبها راجعاً لوقوع بعضها فى أوقات واحدة ، وإذا ثبت لدينا أن هـذه الوقائع قد وقعت بالفعل فما علينا إلا أن نذكر منها ما عسى أن يكون له علاقة بعمرو بن العاص ، لان التصدى للبحث فى الترتيب يخرج بلا ريب عن موضوع رسالتنا .

وكان من نتائج انتصار عمرو على « الارطبون » ان أذعنت لسلطان العرب كل من يافا ونابلس وعسقلان وغزة والرملة وعكاء وبيروت ولدّ والجبلة — فتحت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس

(و) عمرو وفتح بيت المقدس :

كان عمرو بن العاص المتولى فتح فلسطين وكانت حاضرتها بيت المقدس أو إيلياء حيث لجأ إليها الفالة من موقعة أجنادين فعسكروا فيها ونصبوا على أسوارها المنجنيقات.

وكان عمرو قد أخذ يتمم فتح مدن فلسطين وقراها ، ففتح غزة ولُدّ ونابلس وبيت جبرين .

فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ يخابر (الأرطبون) مخابرةً حبية ويطلب اليه تسليم المدينة والأرطبون ممتنع عليه وكتب الى عمرو بن العاص (وعمرو لايزال بأجنادين) كتاباً يقول فيه :

انك صديقي ونظيري ، أنت في قومك مثلي في قومي ، والله لا تفتتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين فارجع ولا تغر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة . فدعا عمرو رجلا يتكلم بالرومية فأرسله إلى (ارطبون) وأمره أن يغرب ويتنكر وقال : استمع ما يقوله حتى تخبرني به إذا رجعت وكتب اليه : جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي وقد علمتَ أني صاحب فتح هذه البلاد . فخرج الرسول حتى أتى (ارطبون) فدفع اليه الكتاب بمشهد من النفر فاقترأه فضحكوا وتعجبوا وأقبلوا على ارطبون فقال من أين علمت انه ليس بصاحبها ؟ قال : صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف . فرجع الرسول الى عمرو فعرف انه عمر . وكتب الى عمر يستمده ويقول : اني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وبلاداً ادخرت لك فرأيك .[1]

والذي نميل إليه أن عمرو بن العاص لما عالج الشدائد من قتال الروم وأشجوه وأشجاهم كتب بأمره الى عمر فرأى أنه الجد ، فخرج الى الشام واستخلف على ابن أبي طالب وكتب الى الأمراء الذين لا يجدون في نواحيهم كبير قتال ولا يتخوفون أن يداهم عدو وأن يوافوه بالجابية فوافوه .

فلما رأى الروم ذلك خافوا العاقبة وأم الارطبون مصر ورق بقية جند الروم وأهل البلاد فطلبوا الصلح — وممن سار على هذا الرأي حضرة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار .

أنزلت المنجنيقات التي نصبها الروم على أسوار مدينة بيت المقدس الخسائر الفادحة بالعرب الذين قاسوا الأمرين من شدة البرد وقد أتاهم الشتاء . وقد ظل المسلمون على حصارهم أربعة أشهر لم يمض منها يوم واحد من غير قتال .

---

(١) وقد قيل ان عمر أنفذ أبا عبيدة لفتح ايلياء فوجه يزيد بن أبي سفيان في خمسة آلاف ثم لحقه هو ببقية جند المسلمين ومن بينهم عمرو بن العاص .

وبعيد جداً أن يفرق «ارطبون» بين لفظي عمرو وعمر .

فشاهد أهل ايلياء من المسلمين الجد فى الحرب والصبر فى القتال وقد عدوا الاستيلاء عليها دينيا أكثر منه سياسيا لأنهم كانوا يعظمون بيت المقدس بعد مكة والمدينة لكونها معبد الارض المقدسة ومقر وحى عيسى عليه السلام ، وبها قبور كثير من الأنبياء . وقد كتب أبو عبيدة الى أهالى ايلياء يدعوهم الى الايمان بالله وبرسوله أو الدخول فى طاعة المسلمين ودفع الجزية وان أبو فيحل جند المسلمين بأرضهم ويفتكون برجالهم و يستحلون عيالهم فارتاعوا من هول هذا التهديد وعقد رؤساؤهم الاجتماعات المتواصلة للنظر فى حالهم والعمل على تخفيف ما حل بهم .

نظر أهل إيلياء الى حالتهم فوجدوا أنفسهم فى ضنك عظيم وحصار شديد وقد أيقنوا بانقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام وأنهم مأخوذون لا محالة ، وان دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت ، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين أن لا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى لكثرة ما لاقى المسلمون فى حربهم من العناء وما بذلوا فى قتالهم من الدماء ولما تحقق عندهم أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين لأنه محل الاسراء ومقر الأنبياء والظاهر أنهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون وقبلتهم المقدسة أن يحرمها منهم الفاتحون . فأخذ الروع بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا توكيدا للامان وتوثيقا لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فطلبوا من الامراء حضوره بنفسه . ولم تكن الا عشية أو ضحاها حتى ظهر بطريركهم (سفرونيوس) على الاسوار طالبا التسليم على أن يكون المتولى للصلح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكاتبه الامراء فى ذلك فرضى عمر ورحل إلى الجابية وكتب لأهل ايلياء كتابا أشهد فيه القواد من المسلمين ومن بينهم عمرو بن العاص وقد وردت صورته فى كثير من كتب التاريخ . وكان فتح ايلياء سنة ١٦ للهجرة أو أواخر سنة ١٥ ه (٦٣٥ م)

جبون ج ٩ ص ٢٤٩

(٨) عمرو وهزيمة قسطنطين بن هرقل :

ظل عمرو مع جيشه بفلسطين ردحاً من الزمن للقضاء على القوة التي كانت لا تزال مع (قسطنطين بن هرقل) فسار الى قيسارية (قيصرية) حيث عسكر قسطنطين بجيش كثيف . وقد تغلبت على هذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبرية في قبضة العرب وهروب والده من انطاكية ، وتوهم وقد تملكته المواجس أن عمرو بن العاص اخترق أسوار المدينة فانسل من قصره هو وأسرته خفية ورحل إلى القسطنطينية كما رحل أبوه من قبل . ولما أصبح الصباح وقد علم الأهلون بهرب أميرهم سلموا لعمرو فقبل منهم . وسرعان ما وافق على الشروط وقد تاقت نفسه للرحيل لغزو مصر . وكان ذلك سنة ١٧ هـ (٦٣٩ م)

اضمحل بعد ذلك سلطان الروم من البلاد السورية بعد حروب طويلة لاقى المسلمون في غضونها المشاق والأهوال وقاسوا طويلا من شدة بردها ، وقتل من جندهم عدد غير قليل سيما في وقائع اليرموك ودمشق وبيت المقدس وحلب ، فكان عدد من قتل في حروب الشام كما ذكر (ايرفنج) يناهز خمسة وعشرين الفاً من المسلمين مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً والدماء التي أهدرت عزيزة .

وقد رأينا أن عمراً قد وقف في هذه الحروب موقف الذي لا يضن بحياته ولا بقوته على المسلمين ، وهو مع ذلك كان يبذل ما يستطيع من جهد لحقن دمائهم وبذل أقل ما يمكن منها في سبيل الحرب .

فهو في الوقت نفسه قائد شجاع ومدبر ناصح ، له من الحزم والأناة حظ قلما ظفر به غيره من قواد المسلمين إذ ذاك

الكتاب الثانى

عمرو كزعيم من زعماء الدولة العربية

الباب الأول

﴿ حالة مصر قبيل الفتح الاسلامى ﴾

ولنترك الآن عمراً فى فلسطين يتهيأ للزحف على مصر ونلق نظرة فى حالة هذا البلد الجديد فنرجع للوراء زهاء قرنين لنأتى بمجمل حال تلك الأمة الدينية والسياسية من أيام قسطنطين : أى منذ القرن الرابع الميلادى حتى الفتح الاسلامى . ليتبين كم قاسى أبناؤها من حمل النير الأجنبى ولنعرف كم كانت ترزح تحت أعباء تلك الفتن وتئن أنين الثكلى مما كان يفتك بأهلها من الظلم و يستنزف دماءهم من المكوس والضرائب وتستأصل زهرة شبابهم الاختلافات الدينية والحروب الأهلية حتى أصبح أهلها يفضلون الموت على حياة كلها تعاسة وشقاء وظلم و بلاء .

(ا) الحالة الدينية

كانت الأمة المصرية وثنية إلى عهد القيصر (أغسطوس) الرومانى حيث ولد المسيح عليه السلام . فأصبحت تتوالى النقم من قياصرة الروم على النصارى قتلاً وتعذيباً وتشريداً حتى جاء القيصر (دقلديانوس) فأغلق كنائسهم وأسرف فى قتلهم ولم يفتر عنهم يوماً واحداً لاستئصال شأفتهم وابطال النصرانية .

وكان يرجع وقوع ثورة المصريين فى عهد (دقلديانوس) الى سببين : أحدهما سياسى ، والآخر دينى

ففى الشطر الأول من حكم (دقلديانوس) قامت الثورات فى الاسكندرية ، فقد ثار أحد الضباط المدعو (لوسيوس دميتيوس دومتيانوس) وكان رومانيا لقبه المصريون أخيلوس ونادوا به إمبراطوراً ، لذلك اضطر دقلديانوس الى الحضور بنفسه الى مصر لاخماد هذه الثورة التى لم يفرغ منها الا سنة ٢٩٦ م . وحاصر مدينة الاسكندرية ثمانية شهور ثم استولى عليها عنوة ، وكانت نتيجة هذا الحصار الطويل أن دمر أكثر أبنية المدينة . وقد حلّ بالاسكندرية البؤس والشقاء من جراء الحصار الذى حصل فى ثورة أمليانوس حتى أن دقلديانوس أصدر أمراً بأن جزءاً من الغلال التى كانت ترسل الى رومة يوزع على الأهلين فيها .

أما الشطر الأخير من حكم دقلديانوس فكان عصر هياج واضطراب بسبب اضطهاد المسيحيين .

وكان يرمى نظام الحكومة الجديد الى التشدد فى تقديس الامبراطور و إكباره الدينى ، فبعد أن كان فيما مضى الرئيس الدينى الأعظم أصبح فى عصر دقلديانوس و بواسطة التأثير الشرقى أشبه شبه باله يُعبد تقدم له القرابين و يعبد كما تعبد الآلهة ، ليكون بذلك أكثر أماناً على نفسه من الاغتيال كما حصل لكثير من الامبراطرة العسكريين الذين تقدموه فى القرن الثالث كله .

فأثارت هذه السياسة سخط المسيحيين ودفعتهم إلى المقاومة . وكان الشجار الذى أثاره هذا العمل فى مصر أشد منه فى أى بلد آخر مع أن تقاليد المصريين القديمة هى التى سهلت الأمر على الحكومة وجعلتها تتوقع نجاح سياستها وتنتظر من الأمة العمل من أول الأمر بأكثر من رغائبها فيتسابق المصريون إلى تأليه دقلديانوس كما ألهوا كاليجولا من قبل ، غير أن التعصب المصرى لدينهم كان لا يزال شديداً ينفجر بركانه لأوهى الأسباب حتى عند الذين اعتنقوا الدين المسيحى — لذلك لقى الرومانيون فى سبيل تأليه الامبراطور على الرغم من مجهوداتهم الكثيرة مقاومة عنيفة وعناداً كبيراً وصلا إلى حد الجنون . (ملن ص ٨٧)

والظاهر أن دقلديانوس وغيره من إمبراطرة الرومان كانوا يعتبرون المسيحيين خارجين على الدولة والدين الرسمي ، فلم يكن بد من الضرب على أيديهم ابتغاء رجوعهم إلى الوثنية — وعلى ذلك فلم يكن قصدهم اضطهاد المسيحيين بل ردهم إلى الطاعة والخضوع للقوانين العامة ، وان كان بعضهم قد أسرفوا في قتلهم وتعذيبهم اسرافاً شنيعاً جرّ عليهم سخطهم وكراهيتهم كما أسرف بعض الأمبراطرة المسيحيين في اضطهاد الوثنيين حين أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للامبراطرة

ومن الصعب الجزم بعدد من قتلوا في مصر في عهد دقلديانوس . الا أنه من المؤكد أن عددهم كان عظيما وأن الاضطهاد تناول جميع الطبقات وقد بدأ الاضطهاد بالبلاد المصرية سنة ٣٠١ م . وأظهر فيه دقلديانوس قسوة لا مثيل لها جرّت عليه كراهة المصريين وحنقهم حتى ظلوا يرون فيه إلى اليوم مثالاً للظلم والاستبداد ، وصاروا يؤرخون حوادثهم من سنة اعتلائه العرش (٢٨٤ ب . م) و سمي هذا التاريخ عندهم « تاريخ الشهداء » كما هو معروف .

ولما جاء (قسطنطين) (٣١٣ – ٣٣٧ م) اعتنق المسيحية سنة اعتلائه العرش ، فأصبحت المسيحيـة الديانة الرسمية للأمبراطورية . ولكن المسيحيين في مصر ما كادوا يخلصون من اضطهاد الحكومة حتى وقعوا في اختلافات مذهبية دينية لم يصلوا بعد الى التوفيق بين بعضها و بعض . وكان النزاع الذي قام بين « أثناسيوس » و « أريوس » على كنه العلاقة التي يمكن أن تكون بين الله و بين عيسى ، أو بين الأب والابن ، فوق ما له من الأهمية الدينية سبباً لنتائج سياسية غيرت وجـه تاريخ الديار المصرية تغييراً كلياً . فان العلاقات بين الأمبراطور والشعب الاسكندري لم تكن سلمية يوماً من الأيام . فان هذا الشعب قد ساعد (مكسيمينوس) و (لسينوس) خصميه للدين ، ربما كان هذا الحادث الذي دعا الامبراطور الى جعل عاصمته مدينة بيزنطية . ولم يكد «تيودوسيس» (٣٧٨-٣٩٥) يقبض على زمام الأحكام حتى أصدر سنة ٣٨١ م قراراً يقضي بتنصير الأمبراطورية ،

فأغلقت الهياكل والمعابد ولاقى الوثنيون فى مصر أثناء ذلك ما لا يقل هولا عما لاقاه النصارى قبلهم . ملن ص ٩٦

ولم تكن بين المصريين والروم ما يفرق بينهم من حيث معتقداتهم الدينية ، ولكن حصل بعد ذلك ما فرق بينهم فى المعتقد لاختلاف المذاهب وقسمهم الى قسمين متفاوتين : يعقوبية ، وملكية .

فاليعقوبية : هم الذين يعتقدون أن الطبيعة الألهية والبشرية فى المسيح امتزجتا فكان فيه طبيعة واحدة . وعليه فلم يعد انساناً كاملاً ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة .

والملكية : هم الذين يعتقدون أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره ، والابن اتحد بالانسان المأخوذ من مريم فصارا واحداً وهو المسيح .

فاتفق البابا مع القيصر « مرقيانوس » (٤٥٠ – ٤٥٧ م) على عقد مجمع عام فى (خلقدونية) سنة ٤٥١ م . فانتهى الأمر بعزل (ديوسقوروس) بطريرق الاسكندرية ومؤسس اليعقوبية وبحطه من كل خدمة كهنوتية وكتب الى جميع مملكته ان كل من يقول بقول ديوسقوروس يُقتل .

وأنفذ مكانه أسقفاً أرثوذكسياً . غير أن الأهلين جاهروا بالثورة ضد البطريرق فاضطرت الفرق الأمبراطورية التى كانت ترافقه إلى الضرب على أيديهم وزج زعماء الثورة فى هيكل (سيرابيس) الذى أحرق بمن فيه ، وأبيحت المدينة للسلب والنهب قبل أن يتمكن الأسقف الجديد من الجلوس على كرسى البطريرقية فى الاسكندرية – وعقب ذلك أصدر الحاكم الأوامر المشددة بابطال أيام الأعياد العمومية ، و إقفال الحمامات ، و إلغاء إعانة الغلال [1]

وما زالت هذه الاختلافات الدينية منشأ لمصائب المصريين – إن قام قيصر

---

(١) ملن ص ١٠١ — ١٠٢

ملكى أمر باضطهاد اليعاقبة وإذلالهم – وإن قام قيصر يعقوبى فعلى المكس ، والرزايا على كلتا الحالتين تنتاب الرعية . وأشنع ما أصاب المصريين فى هذا السبيل كان فى عهد القيصر « يوستينوس » (٥١٨ – ٥٢٧ م) الذى تساهل فى بادئ الأمر منتظراً سنوح الفرصة لحسم النزاع –وقد أنفذ بطريرقاً ملكياً إلى الأسكندرية ، فجاهر الأهالى بالثورة ووقعت على أثر ذلك معركة دموية فامتلأت الشوارع بأشلاء القتلى من الأهالى والجند ، وأحرقت عاصمة الأمبراطورية الرومانية الثالثة .

وأقام الأهالى بطريرقاً يعقوبياً ، وانسحب البطريرق الرومانى أو الملكى ، ولم تقو القوى الأمبراطورية على شد أزره .

ولما رأى (يوستنيانوس) أن بغض المصريين لبطارقة الروم قد بلغ أشده ، وأيقن أن التساهل لن يجديه نفعاً ، عول على مقابلة الشدة بمثلها ، فأنفذ «أبوليناريس» الى الاسكندرية – فدخل المدينة فى زى العسكرية (٥٥١ ب م). ووزع الجنود المسلحين فى الشوارع وأحاط بهم أسوار الكنيسة وأكثر منهم فى صدرها للمحافظة على شخصه . ولما طلع المنبر نزع ثياب الجند ، فظهر لهم مرتدياً بثياب بطريرق الاسكندرية . فأخذت الدهشة من الأهلين كل مأخذ وهمّ أبوليناريس يقدّس فانهالت عليه اللعنات من جميع الحاضرين وأخذوا يرجمونه بالأفواه والحجارة . ولم تكن إلاّ اشارة واحدة من البطريرق حتى داهمت جنوده الأهلين وأعملوا السيف فيهم ، حتى خاض الجند فى الدماء . قال (جيبون) : ويقال إنه قتل بالسيف فى هذا اليوم مائتا الف – وكانت نتيجة هذه الموقعة أن انتقلت جميع أملاك الكنيسة فى مصر إلى يد حاكم الاسكندرية[1]

والظاهر أن قيصر الروم لما رأى أن يضع حداً لهذا الشجار منح البطريرك مركز الحاكم فى مصر حتى يتسنى له تحصيل الجباية وتموين رومة بالغلال بما له من القوى الحربية لتأييد السلام .

---

(١) ملن ص ١٠٠ – ١٠١ ، ولين پول ص ٢ ، وجيبون ج ٨ ص ١٠٧

ظل حكام الروم بعد ذلك لا يفترون عن إيقاع الأذى بالمصريين - فرفض هؤلاء لغة اليونان وعاداتهم وأصبح كل ملكى فى نظرهم غريباً عنهم وكل يعقوبى منهم . وقد اعتبروا الزواج منهم والاشتراك معهم فى المناصب جريرة لا تغتفر . ولم تكن طاعتهم للامبراطور وتنفيذ أوامره إلاّ إرغاماً تحت ضغط قوته الحربية .

وكان أقل مجهود يكفى لانقاذ الدين ورد حرية مصر المسلوبة . وقد كان من المتيسر أن تخرج الأديرة (وعددها زهاء ستمائة) عشرات الآلاف من المقاتلين الذين أصبح الموت أحب اليهم من الحياة المفعمة بالبؤس والشقاء ، ولكن التجربة قد دلت على العكس ، ذلك أن هؤلاء المتعصبين لدينهم الذين كانوا يتحملون آلام (الخازوق) وغيره من آلات التعذيب بلا تأوه سُرعان ما كانوا يرتجفون و يولون الأدبار أمام عدو مسلح . فلم تكن لديهم من سبيل للخلاص مما هم فيه إلاّ بقوة أجنبية كقوة خسرو ملك العجم (٦١٥ – ٦١٧ م .) التى أنقذت اليعاقبة من نير الروم ردحاً قصيراً من الزمن انتصر بعدها هرقل (٦٢٧ م .) على العجم وجدد الفظائع وزاد عليها ، ففر البطريرق بنيامين الى الصحراء . إلاّ أن صوتاً قوياً أمره عند فراره « انتظر » حتى اذا ما تم عقد عشر سنوات سارت نحو بلادهم قوة أجنبية لخلاصهم مما حل بهم من الظلم وما حاق ببلادهم من الفقر : وهذه القوة هى جند العرب .

هذا مجمل حال المصريين الدينية سيما فى القرن الذى كان قبل الهجرة ، فقد كان أشد القرون على المسيحيين من أهل مصر هولاً . أصابهم فيه من القياصرة المسيحيين ما لم يصبهم من القياصرة الوثنيين . وكانت هذه الرزايا سبباً لكراهة المصريين حكم الروم عليهم وتشوقهم الى الخلاص من هذه النكبات . وكان بنيامين هذا ممن يبغضون الروم بغضاً شديداً ، وذلك أن (هرقل) لما قدم الى مصر بعد هزيمته للفرس طلب (بنيامين) ليقتله فلم يظفر به لفراره – وظفر بأخيه « مينا » فأحرقه بالنار عداوةً لليعاقبة ، لذلك لما ورد المسلمون مصر كان (بنيامين) هذا يكتب

الى من فى طريقهم من الأقباط ألا يهتموا بدفع العرب ولا حربهم . فكان عمرو لا يدافع أثناء مسيره من الفرما إلى بابليون إلاَّ بالشيء الخفيف .

يعلم مما تقدم ، كم عانى المصريون من المحن والأهوال فى سبيل معتقداتهم الدينية .

(ب) الحالة السياسية

استولى الرومان على مصر سنة ٣٠ ق . م فأصبحت كملك خاص للامبراطورة ، وفى عهدهم تحولت العناية الى الزراعة فكانت كأنها مخزن غلال لرومة تفى بحاجتها من الحبوب ، فدرست آثارها وانحطت درجة العلم التى كانت بها .

وكانت الدولة الرومانية وثنية النزعة ، وفى عهدها دخل الدين المسيحى مصر كما ذكرنا فقاسى اتباعه الشدائد والمحن . وقد انتهت هذه الدولة (وهى الدولة الرابعة والثلاثون) بقيام طيوروسيس (٣٧٨ – ٣٩٥ م) وتقسيمه المملكة الرومانية بين أولاده سنة ٣٩٥ م[١] .

ومن عهد هذه الدولة (وهى الخامسة والثلاثون) انتشرت الفتن الدينية . وكان أفظع الفتن التى حلت بمصر فى القرن الذى قبل الهجرة ، ففيه تفاقم النزاع بين الملكية واليعاقبة .

وكثيراً ما سببت هذه الفتن النحس للأهالى فقد زاد القيصر (نيرون) المال المقرر على البلاد المصرية فأصاب الأهالى من جراء ذلك محن ثقيلة ، فكثرت الفتن وظهر العصيان وقام الأهالى فى الأزقة والحارات وكثرت الحرائق فى كثير من الجهات واضمحل الأمن فى القرى وكثر قطاع الطرق ، ولم يكن لكل هذه البلايا من سبب سوى الاختلافات الدينية .

---

(١) نقل قسطنطين عاصمة الدولة من رومة الى (بيزنطية) سنة ٣٣٠ م . وسميت من ذلك الحين بالقسطنطينية نسبة الى قسطنطين الاكبر . وبعد وفاة قسطنطين قسمت الدولة بين أولاده الثلاثة ثم اتحدت ثم انقسمت مرة أخرى الى أن تم تقسيمها النهائى سنة ٣٩٥ م . الى قسمين : الدولة الغربية وعاصمتها رومة والشرقية وعاصمتها القسطنطينية

وكانت مصر محرومة من الحقوق الرومانية ، وقد منع أغسطوس الاسكندريين من الوصول إلى هيئة مجلس الشيوخ فوقف ذلك المنع حجر عثرة أمام كل كفاءة تسمح لهم بتقلد الوظائف الرومانية العالية فى إدارة المالية والنيابة عن العامة والقضاء والقنصلية ، إلا أنه فى عهد سبتيم سيفير (١١٩٢ – ٢١ م) منح الاسكندريون مجلساً للشيوخ وأنشأ الأمبراطور مجلساً بلدياً فى بعض مدن أخرى . وبهذه المنحة خفف على المصريين ذلك الضغط فأصبح فى الاسكندرية نواب وتبوأ اسكندريون فى رومة مقاعد أعضاء بمجلس الشيوخ . وفتح تبعاً لذلك الوصول إلى الوظائف العالية التى كانت محرمة على الاسكندريين الحاصلين على الحقوق السياسية الرومانية .

وقد حدث انقلاب أشد خطورة من الانقلابات التى حصلت من قبل حين أعطى (كراكلا) جميع رعايا الدولة الحقوق الوطنية ، فشمل هذا المنح المصريين إلا أنهم لم يمنحوا سلطة عليا ولم يسند اليهم عمل مما يعهد لأعضاء مجلس الشيوخ . فتحت أمام الاسكندريين أو بالحرى اليونانيين الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان أبواب المناصب العالية بينما حرم غيرهم من المصريين الوصول إلى هذه الوظائف ، مما قضى عليهم بالضعف والخمول وزاد سخط المصريين على الحكم الرومانى ، بينما رفعت عن عواتقهم (اليونان) بعض الضرائب مما كان يدفعه المصريون ، وقد زادت الضرائب فى عهد الرومان زيادة فاحشة حتى لم يعد شئ من الأشياء يخلو من ضريبة مفروضة عليه .

وقد أثقلت هذه الضرائب كاهل الناس فقد شملت كما قال المؤرخ (ملن) الأشخاص والأشياء . فكانت على الرؤس والصناعات على اختلاف أنواعها ، وعلى الماشية والأرضين ، ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع بل كانت تجبى على المارة رجالا ونساء – تجاراً أو غير تجار – وما معهم من سائر الأشياء حتى الموتى . ومن صناع السفن ، ومن العاهرات ، ومن زوجات الجنود ، وعلى تذاكر المرور ، ولختم التذاكر ، وعن أثاث المنازل ، وعن شراعات السفن ، وعلى الصارى

وعن كل جنازة تخرج إلى الصحراء . ولم يقتصر الأمر على هذه الضرائب التى كانت تدفعها الأهالى الذين أصبحوا فى شر ما يكون من الفاقة بل كانت هناك تكاليف أخرى غير مألوفة رزح تحتها المصريون ، وأخصها إيواء الموظفين الملكيين والعسكريين حين مرورهم فى الكور ، وتقديم ما يلزم لهم من الحاجيات وتوفير وسائل الانتقال ليتسنى لهم بذلك اتمام سفرتهم . وقد أثقل هؤلاء الموظفون على الأهالى وحملوهم من الكلفة ما أنوا منه كثيراً . وفى السنين الأخيرة من الحكم البيزنطى كان على المصريين أن يقوموا بغذاء الجنود(١)

وكان للانقسامات الدينية التى حدثت فى الكنائس المسيحية فى مصر أهمية سياسية لا يستخف بها ، فقد كانت هذه الاختلافات الدينيه فاتحة للاختلافات الكثيرة التى انتهت بفصل كنيسة رومة عن كنيسة القسطنطينية . وكان من نتائجها ضم السلطتين الروحية والزمانية فى شخص (أبوليناريس) المتقدم ذكره . وكان من نتائج الاختلافات الدينية التى قامت بمصر دخول هذه البلاد تحت حكم الفرس فترة قصيرة من الزمن ثم تحت حكم العرب وضياعها من الروم إلى الأبد(٢) .

حالة مصر ازاء ما كان بين الروم والفرس فيها

هدد الفرس الروم أثناء القرن السادس كله ، وظلوا يتقدمون نحو حدود الدولة الرومية فى جموع كثيفة . وشعر الناس بخطورة هذا التقدم فى البلاد المصرية فى الوقت الذى آل فيه الملك لهرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) فان الجيوش الفارسية بينما كانت تتقدم نحو الغرب كان أهل سورية وفلسطين يغادرون أوطانهم زرافات ووحداناً فراراً من وجه المغيرين ملتجئين إلى مصر ، ولما وصل الاعتداء الى الدلتا وأغاروا عليها آوى المهاجرون إلى الاسكندرية للاعتصام بها ، فلم تلبث تلك المدينة أن اكتظت بشعوب مختلفة لا مرتزق لها إلا ما يجود به أهل الخير من الصدقات ، فكان من الصعب لكثرتهم تدبير أمر غذائهم فى وقت قد

---

(١) ملن ص ١١٥ - ١٢٥ بتصرف واختصار

(٢) على أن كل هذه الالام لم تكن قاصرة على المصريين . انما كانت شاملة لجميع أجزاء الامبراطورية ، وهى من الاسباب التى سهلت سقوطها وفتح العرب اياها .

تهددها فيها القحط عقب سنة قل فيها المحصول بحيث أصبح غير كاف لغذاء الوطنيين أنفسهم ، فلم ير القائد الرومى « نيكيتاس » بداً من ترك مصر للفرس سنة ٦١٥ م.[1]

استولى الفرس على مصر فرحب بهم المصريون ورضوا عن طيب خاطر بحكمهم ، ولم ير الفلاحون وهم السواد الأعظم من السكان فى ذلك إلا تغييراً فى شخص الحاكم . ويقول « ملن » ص ١٤٤ انهم فضلوا حكومة شرقى على حكومة اغريقى . ولا وجه لهذا الاحتمال بالنسبة للمصريين إذا عرفنا أنهم قاسوا الأمرين من حكومة الروم واشتد عليهم البلاء من فداحة الضرائب واستبداد الحكام، فرأوا ان حكم الفرس قد يكون أخف وطأة من حكم الروم .

وفى أثناء حكم الفرس لم يكن فى مصر من الأمور ما يكدر صفاء المصريين بعد أن أطلقت حرية معتقداتهم التى جرّت عليهم المحن والأهوال فى غضون حكم الروم ، فعين فى عهدهم البطريرق (بنيامين) بطريرقاً للديار المصرية فأذعن لسلطانه أهل البلاد قاصيها ودانيها فتمكن من ارجاع الكنيسة الى حالتها القديمة من حيث النظام والعظمة وعاش فى الاسكندرية آمناً مطمئناً أثناء حكم الفرس .

غير ان حكم الفرس لم يدم فى مصر اكثر من عشر سنوات ، فان قيام العرب بعد أن جمع الاسلام كلمتهم ، حرم الدولة الفارسية من خيرة جنودها ، وهيأ الفرص للروم لاسترداد بعض اقاليمهم المفقودة فى الشرق ، فقد سار « هرقل » مخترقاً البلاد السورية الى مصر وطرد أعداءه الفرس فغادر البلاد معهم البطريرق بنيامين الذى كان قد جلس على كرسيه . فعكّر طمأنينة المصريين طردُ الفرس من مصر وعودة الروم اليها ، فعقد بنيامين مجمعاً عاماً للقسس والرهبان وأوصاهم بالصبر والجلد والاعتصام فى الجبال ، ثم هرب فى كنف الليل الى وادى النطرون[2] ومن ثم عادت مصر الى حكم الروم وتولدت الاختلافات الدينية من جديد ، فاتخذها هرقل وسيلةً لاضرام نيران الحقد والانتقام التى كانت تتأجج فى صدره من جراء ترحيبهم

---

(١) ملن ص ١١٣ — ١١٤

(٢) بطلر ص ١٨٤ وملن ص ١١٣ — ١١٤

بالفرس ورضائهم حكمهم[1] ، فاحلّ بهم هرقل كل صنوف الظلم والاضطهاد لقبوله مذهب خلقدونية ، ومن أبى عُذب وضرب بالسياط حتى الموت

وانا ذاكرون حادثة « مينا » أخي « بنيامين » فقد مثلوا به أشنع تمثيل حيث أوقدوا المشاعل وأحرقوه بها حتى تساقط الدسم من جنبيه على الأرض ، ولما وصل به التعذيب الى هذا الحد لم يزدد إلاّ اعترافاً بمذهبه فاقتلعت أسنانه ، ثم وضع فى حقيبة ملأى بالرمل وحمل الى الشاطئ ، وعرضت عليه حياته ثلاث مرات اذا اعترف بمذهب خلقدونية فأبى ثلاث مرات ، فأغرق فى البحر . وهكذا أصبح قتل البطارقة علماً يعرف به الروم .

و بعد هذه الشدة التى دامت عشر سنين أصبح كل أمل فى الصلح والسلام بين الفريقين محالاً ، وقد علم المصريون بانتشار الاسلام وقيام العرب وفتحهم الشام فتمنوا الخلاص مما هم فيه على أيدى المسلمين ، وظنوا أن قدومهم مصر إن هو إلاّ وباء أنزله الله لأعدائهم الروم الظالمين . والى هذا الحد المحزن ساء حكم الروم فى مصر ، فهيئوا بذلك للعرب الأسباب لفتح هذه الديار التى نقم أهلها على الحكم الرومى وودوا الخلاص منهم ، وبهذا أتيح لعمرو بن العاص فتح مصر بجيشه القليل

من هذا يعلم أن مصر كانت قد فقدت كل شخصية سياسية ، وأصبحت أبعد ما تكون من الاعتماد على نفسها أو محاولة التخلص من الأجنبى ، واقامة حكومة وطنية ، وانما كان كل ما ترجوه هو أن يغير عليها مغير آخر يطرد الظالم ويقوم مقامه . فسوء سيرة الروم ، وضعف المصريين كانا كما سنرى من أهم الأسباب التى سهلت على عمرو فتح مصر ولننظر كيف سلك عمر سبيله الى هذا الفتح .

---

(١) يخالف بطلر (ص ٨٣ — ٨٧) بعض المؤرخين مثل « شارب » و « ملن » فى ذلك ويقول ان المصريين لم يرحبوا بالفرس بل بالعكس لاقوا الامرين من حكمهم لانهم اجهزوا على الاسكندريين وقتلوا الالاف من الاهلين فى الوجهين القبلى والبحرى — ويبرهن على صحة دعواه بالاشارة الى ان « الانبا شنوده » قد تنبأ بما سوف يحل بالاهلين من جراء غزوة الفرس . وان خلف « الانبا شنوده » قد أثبت هذا التنبؤ عند ما كتب تاريخ حياة سلفه . وان الراهب « بيزنطيوس » فر من وجه المغيرين بالوجه القبلى وأعلن استياءه الشديد لما حل ببلاده من المصائب وما حاق بقومه من الظلم . ونحن نستبعد ذلك لان الفرس لم يتعرضوا لديانة المصريين ، فأثبتوا بطاربرقهم . و بعد وفاته عينوا (بنيامين) خلفا له . ولم يتعرضوا لشيء من المبانى بل زادوا عليها .

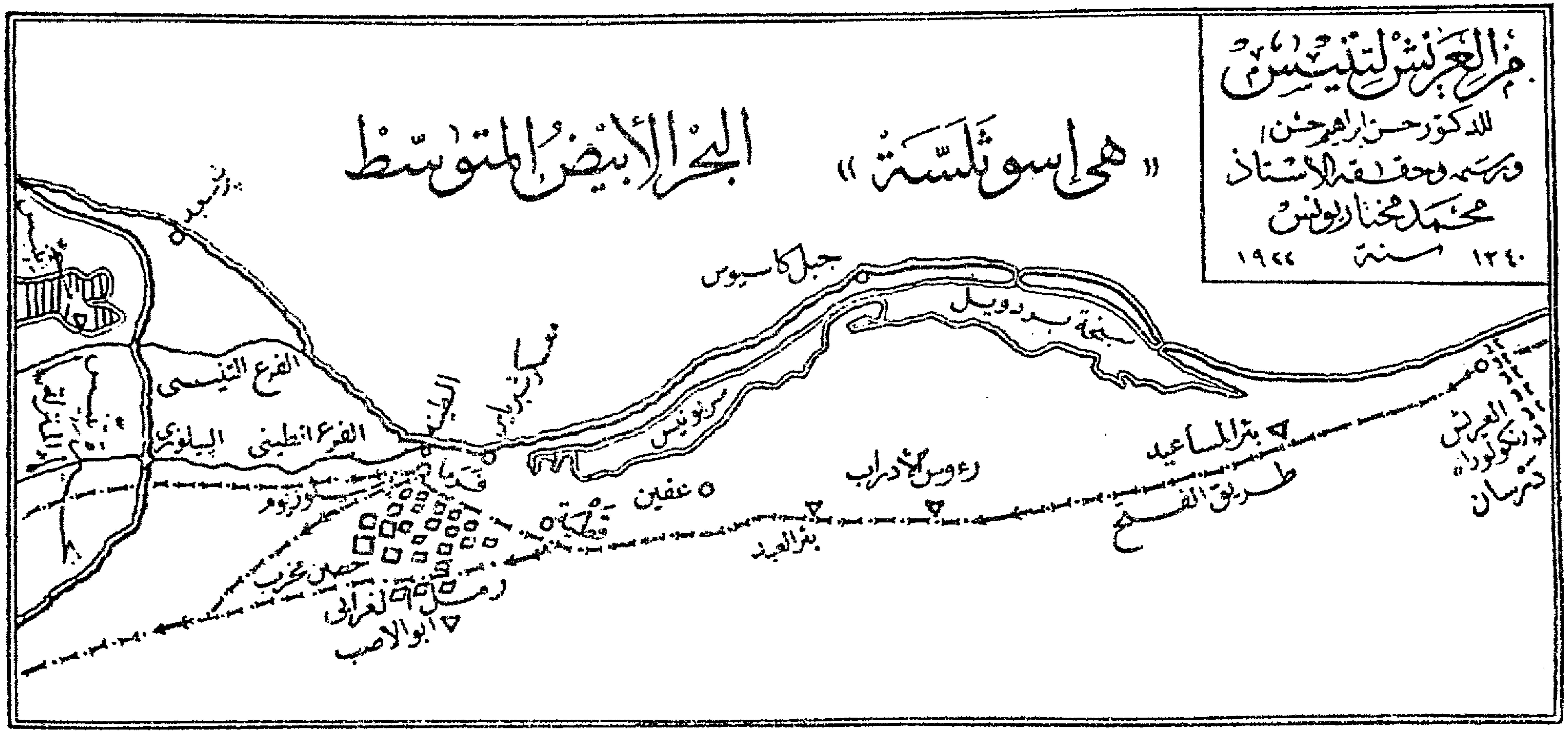
من العريش لتنيس
للدكتور حسن ابراهيم حسن
ورسمه وحققه الاستاذ
محمد مختار يونس
١٣٤٠ سنة ١٩٢٢
البحر الأبيض المتوسط
« هي اسو ثلسة »
جبل كاسيوس
سبخة بردويل
بئر المساعيد
طريق القمح
رءوس الأدراب
بئر العبد
عفين
قطية
الفرع التنيسي
الفرع الطيني البيلوزي
حصن مجرب
رمل الغرابي
ابو الاصب
العريش
رنكولورا

الباب الثاني

عمرو وفتح مصر

(١) كيف عرضت لعمرو فكرة فتح مصر وكيفية مسيره اليها .

لما كانت سنة ثمان عشرة[1] من الهجرة (٦٣٩ م) وقدم عمر بن الخطاب الجابية قام إليه عمرو بن العاص فخلا به فقال : يا أمير المؤمنين إئذن لي أن أسير الى مصر، وحرّضه عليها ، إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجزهم عن القتال والحرب ، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن الى ذلك عمر ، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك[2] ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة . فقال عمر : سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتي كتابي اليك سريعاً ان شاء الله تعالى ، فان أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره . فسار عمرو في جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس ، واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك . فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح .

ونحن نستبعد مسير عمرو في نفس اليوم الذي أذن له فيه عمر ، لأن عمرو بن العاص لم يسر إلى مصر إلا بعد فتح قيسارية وهزيمة قسطنطين ، وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس باكثر من سنة .

---

(١) يقول ابن الاثير (ج ٢ ص ٢٧٧) وابن خلدون (ج ٢ ص ١١٤) ان عمرو بن العاص سار الى مصر عقب فتح بيت المقدس سنة ٢٠ أو سنة ٢٢ أو سنة ٢٥ من الهجرة وهو خطأ ، بدليل التخبط الظاهر في ذكر السنين

(٢) عك بلد في اليمن واسم قبيلة أيضاً

وقد أخرج ابن عبد الحكم والمقريزى أن عمرو بن العاص كان بفلسطين ، فتقدم عمرو وأصحابه إلى مصر بغير إذن ؛ فلما فقده أمراء الاجناد واستنكروا الذى فعل ، ورأوا ان قد غرر ، رفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب . ثم ان عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل على عمر بن الخطاب فقال عمر : كتبتُ إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام . فقال عثمان : يا أمير المؤمنين إن عمراً لمجرؤ وفيه اقدام وحب للأمارة ، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة ، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا . فندمَ عمر بن الخطاب على كتابه الى عمرو اشفاقاً مما قال عثمان . فكتب اليه : إن أدركك كتابى قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت دخلت فأمض لوقتك (١) .

ولا ريب أن مسير عمرو بن العاص كان باذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ونحن نؤيد الرواية القائلة بأن المسير كان عند أمر أمير المؤمنين . ونرى أن عمر بن الخطاب أذن لعمرو بن العاص بالمسير لفتح مصر ؛ فلما علم عمر بمسير عمرو ، ندم بعد أن أبان له عثمان حرج مركز عمرو ، لقلة من معه فيعرض المسلمين للهلكة ، وكان عمر أحرص الناس على حياة المسلمين كما هو معروف .

لم يكن عمرو بن العاص من البساطة والبله ، بالمكان الذى يدفعه إلى تخطى أمر الخليفة والافتيات عليه ، فيركب المركب الوعر باقتطاع فريق من جند المسلمين بلا عهد من الخليفة ، يزج بهم فى بلاد مترامية الأطراف ويهجم بهم على بلاد مصر – وما كان جند المسلمين الذى يطيع أميراً لم يؤيده الخليفة ولا بالذى يتوجه إلى بلاد بغير أمر من الرئيس الأعظم – ولو فعل عمرو ذلك لوجد من عمر سلطاناً يحسن تأديبه ويرده الى الطاعة والجماعة . ولم يرد فى أى تاريخ عبارة أو اشارة إلى غضب عمر عليه فى افتيات كان منه .

أدرك الكتاب عمراً وهو برفح ، فتخوف إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٥١ ، المقريزى (ج ١ ص ٢٨٨) ، الكندى ص ٨٧ ، السيوطى (ج ١ ص ٤٦) ، وابرفنج ص ١٠٧

الانصراف ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ، ودافعه وسار حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل : إنها من أرض مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ؛ فقال عمرو لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ قالوا : بلى ! قال : فان أمير المؤمنين عهد إلىّ ، وأمرنى ان لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه .

والذى نراه أن عمر بن الخطاب لم يكشف لرجال شوراه نيته فى فتح مصر إلا بعد مسير عمرو ، فلما علم عثمان بذلك حذر عمر سوء عاقبة منسير عمرو بجيشه القليل ، فكتب اليه عمر كتابه الآنف الذكر ، ووعده بامداده إن كان قد دخل أرض مصر. وكان عمرو يوجس خيفة من أن يكون الكتاب يصرفه عن وجهه ، فدافع الرسول حتى يكون بأرض مصر ويوجد له العذر إذا مضى لطلبته

والذى يثير العجب أنه كيف جرأ عمرو بن العاص على المسير إلى أرض مصر بجيش لا يزيد عن أربعة آلاف مقاتل ، يريد أن يهزم بهم جند الروم ؟ سؤال يسهل الجواب عليه ، اذا علم الانسان أن عمرو بن العاص كان محباً للامارة ، ذا نفس عالية لا ترضى الا الجليل من الأعمال مهما قام فى سبيلها من العقبات . يدلك على ذلك ما قاله عثمان رضى الله عنه « ان عمراً لجرّؤ وفيه إقدام وحب للامارة »

وقد بلغ من حب عمرو للامارة، أنه حين أراد أن يعقد أبو بكر الألوية لحرب الشام كلم عمرو بن العاص عمر بن الخطاب أن يخاطب أبا بكر فى تأميره على جيوش المسلمين بدل أبى عبيدة ، وقد قدمنا أن عمراً كان أميراً على أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وغيرهم أيام النبى صلى الله عليه وسلم .

قال رفيق بك العظم فى كتابه « أشهر مشاهير الأسلام »

ومن تصفح تاريخ حياة عمرو بن العاص، ووقف على أعماله سواء فى الفتح والأمارة أو فى دخول غمار الفتنة، علم أنه رجل فذ قلّ أن تنجب بمثله الأمهات ، لو لا طمع فيه ربما أوخذ عليه أحياناً . على أنه لم يكن فى دنيات الأمور ، بل فى أبعدها غاية وأعصاها

على غيره منالا . وأى قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ، و يرغب فى تدويخ أرض الفراعنة بجيش يقل عن أربعة آلاف مقاتل ، يريد أن يقهر به أمة يربو عددها عن عشرة الملايين ! وكان فى البلاد من حامية الروم وحدها أضعاف ما معه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبون عنها . اه (ج ٢ ص ٥٧٤)

والذى نراه أيضاً أن عمراً انما رغب فى فتح مصر ، لأنه وقف بنفسه على أحوالها عند قدومه اليها فى الجاهلية ، وعرف مقدار ثروتها وخيراتها ، وأيقن أن دولة الروم قد دالت ، وقد تولى جنودهم الضعف واستولى على نفوسهم اليأس ، وان قبط مصر قد ملوا حكم الروم لظلمهم وجورهم . كل هذه الأسباب لم تخف عمراً بل حببت اليه فتح مصر ؛ أضف إلى ذلك ما جبل عليه من الشجاعة والاقدام ، ودرايته بأساليب الحرب ، وحبه القتال ، وعلمه أنه سوف ينال الجزاء الحسن من الله عز وجل ، لانفراده بهذه المأثرة العالية ، مأثرة فتح مصر .

ويرى حضرة أستاذنا « الشيخ عبد الوهاب النجار » أن عمرو بن العاص رأى ما كان من تزجية أبى بكر للجيوش التى وجه بها لفتح سورية على قلتها ، فلما صاروا مع جميع الروم وجهاً لوجه ، تابع عمر بن الخطاب الامدادات اليهم حتى كثر سوادهم ونالوا الظفر ، فلم يرد أن يثقل على عمر بن الخطاب فى أول الأمر بطلب جيش كبير يغير به على مصر ، واثقاً بأنه متى صار مع الروم وجهاً لوجه فى أرض مصر ، واحتاج إلى الجنود بعث بها إليه عمر بن الخطاب على الصعب والذلول ، ولا يمكن أن يخذله .

(ب) شروع عمرو فى الفتح واستيلاؤه على العريش :

سار عمرو بن العاص بجنده مخترقاً رمال سيناء حتى دخل أرض مصر على نحو ما ذكرنا ، فوصل إلى العريش [1] حيث أدركه النحر فضحى عن أصحابه يومئذ بكبش (١٠ ذى الحجة سنة ١٨ هـ — ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ م) وفتحها بدون عناء .

---

(١) يقول بطلر ص ١٩٧ (نقلا عن كتاب البلدان لليعقوبى) :
ان المسافر من فلسطين الى مصر يسير الى الشجرتين على حدود مصر ثم الى العريش وفى قسم الحدود ، ثم إلى قرية البقارة ثم الى الورادة الواقعة وسط التلال الرملة ثم الى الفرما ، وهى اول مدينة مصرية يصل اليها . ثم الى مدينة الجرير ثم الى حيفا ثم الى الفسطاط

والذى ساعد على استيلاء العرب على العريش أمور منها :

(١) عدم منعة حصونها ، والظاهر أنه قد تطاول عليها العهد فوهنت .

(٢) عدم وجود حامية رومانية، بدليل أن الحاميات الرومانية هى التى قاتلت العرب وصبرت على قتالها طويلاً فى الأمكنة الأخرى ، كما سيأتى عند الكلام على قتال العرب بالفرما و ببلبيس وأم دنين و بابليون وغيرها .

وقد ذكر ابن عبد الحكم أن بطريرق القبط كان إذ ذاك بالاسكندرية واسمه (أبو ميامين) وهو يخالف ما ذكرناه من قبل أن (بنيامين) قد فرّ من وجه الروم إلى أحد الأديرة ، وأن الروم تعقبوه فلم يظفروا به ، بل ظفروا بأخيه (مينا) فقتلوه عداوة لليعقاقبة

(حـ) استيلاء عمرو على الفرما :

غادر عمرو العريش وما حواليها من حراج النخيل، متجهاً نحو الغرب على بعد من الشاطئ ، مجتازاً صحراء جرداء يكتنفها فى بعض الامكنة قرى ومواضع يجرى فيها الماء . وكان هذا الطريق الموصل إلى بلاد مصر منذ الأحقاب المتطاولة ، هو الطريق الذى سار فيه المهاجرون والفاتحون ، فهو طريق ابراهيم و يوسف وقمبيز والأسكندر، كذلك كان طريق التجار والسائحين والحجاج فى كل العصور ، بل وطريق القوافل الذى يصل آسيا بأفريقية – ولم يشتبك مع جند الروم فى قتال – حتى وصل إلى الفرما (بيلوز) وهى مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية وكنائس وأديرة . وكان لها ميناء على البحر يصل إليها جدول ماء من النيل ، وكانت الفرما بمثابة مفتاح مصر ذات أهمية كبرى .

حاصر عمرو هذه المدينة نحواً من شهر[1] وأخيراً استولى المسلمون على أحد أبواب المدينة، بينما كان جند الروم مشتغلين برد حملة العرب ، فوقعت المدينة فى أيدى المسلمين .

وكان من المحتمل استيلاء عمرو عليها فى أقل من شهر ، لو لا قلة جنده ولم يدم

(١) ذكر ياقوت فى معجمه أن القتال طال شهرين وهو يخالف ما ذكره المقريزى وابن عبد الحكم والسيوطى وابن الاثير وغيرهم من أن القتال دام نحواً من شهر

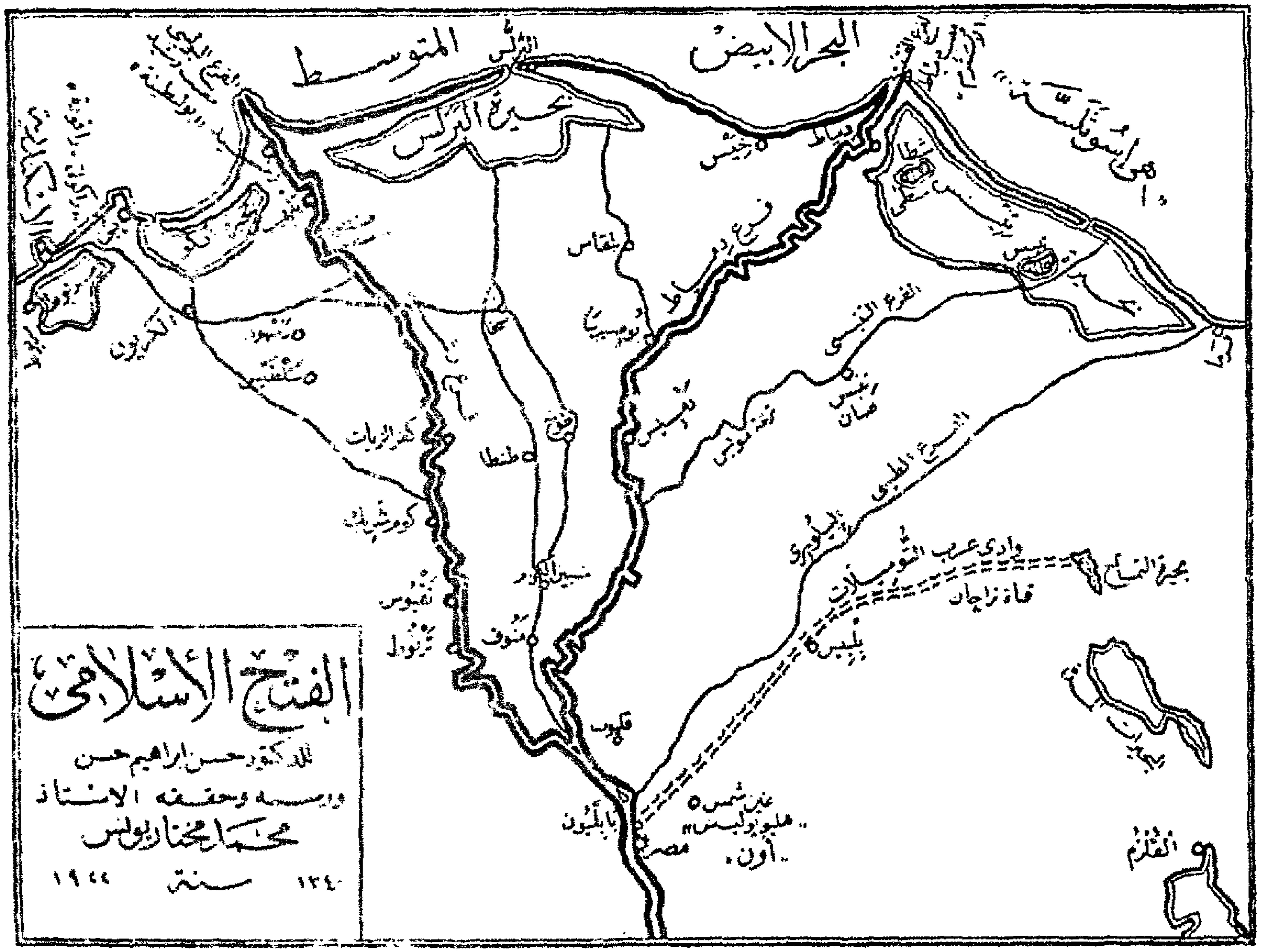

الفتح الإسلامي
للدكتور حسن ابراهيم حسن
ورسمه وحققه الاستاذ
البحر الابيض
المتوسط
بحيرة البرلس
دمياط
فرع دمياط
الفرع التنيسي
تنيس
الفرما
طنطا
منوف
قليوب
كفر الزيات
كوم شريك
بلبيس
قناة تراجان
بحيرة التمساح
عين شمس
مصر
بابليون
القلزم
الكريون

جيش الفرس فى الزمن السابق على حصارها طويلا ، بعد أن صدّع جوانب أسوارها وخرب معظم كنائسها . ولا بد أن يكون قد رمم الروم ما دمّره الفرس أثناء غزوتهم لمصر ، فعادت هذه الأسوار منيعة على المغيرين . لذا نرى أن عمراً قد عمد إلى حصارها ، و بحسن صبر المسلمين وجلدهم تمكنوا من هزيمة الروم والاستيلاء على المدينة .

وكان استيلاء المسلمين على الفرما حوالى منتصف يناير سنة ٦٤٠ م على ما رواه (بطلر) وكان أول المحرم سنة ١٩ هـ (يوافق ٢ يناير سنة ٦٤٠ م)

وقد ذكر (بطلر) أن المقريزى وأبا المحاسن (الذى نقل من الأول) قرّرا أن القبط كانوا للعرب أعواناً وهم على حصار الفرما ..وقد أجاب بأن هذا القول لا أساس له من الصحة ؛ و برهن على صحة ما يقول بما ذكره « يوحنا أسقف نقيوس » من أن القبط لم يمدوا يد المساعدة للمسلمين الا بعد استيلائهم على إقليم الفيوم ، على أن هذه المساعدة كانت جزئية ومحدودة .

تقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف ، حتى أتى بلبيس ، وتبعد عن مصر بنحو ثلاثين ميلاً ، فقاتلوه بها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه ونصره نصراً عزيزاً .

هذا ما ذكره لنا ابن عبد الحكم والمقريزى، وغيرهما من المؤرخين المشهورين عن استئناف مسير عمرو من الفرما إلى بلبيس واستيلائه عليها . وهو كما لا يخفى قول مقتضب يحتاج الى كشف الطريق الذى اجتازه عمرو ، وهل هو الطريق الذى سلكه الفاتحون من قبل ، أم هو غير هذا الطريق ؟ وما هى المدن التى مر عليها عمرو واستولى عليها فى طريقه ؟

هذا ما أردنا ان نقف عليه ، وقد كفانا « بطلر » مؤونة البحث الكثير فنقول : ومن هذه البقعة الريفية المغطاة بالملح التى تحيط بالفرما ، مر عمرو على أرض مفروشة بقشور الصدف البيضاء التى استحالت إلى رمال حتى وصل الى مجدُل (١) نحو الجنوب والغرب ، ومن ثم الى الجهة المعروفة الآن بالقنطرة على قناة السويس حيث يتغطى

---

(١) مجدل مدينة قديمة تلى الفرما وواقعة فى الصحراء على مقربة من شاطىء البحر

سطح تلك الأرض الصحراوية بحصى كثير صلب ، وفى خلالها تقع أرض خضراء وبعض مستنقعات ملحة ينمو على جوانبها القصب

ثم أخذ فى السير الى الصالحيـة أو القصاصين ، ومن ثم اتجه منحرفاً نحو الجنوب مجتازاً تلال وادى الطميلات[1] (رأس الوادى) على مقربة من التل الكبير الآن وقريباً من بلبيس

وقد اتخذ معظم الفاتحين الأقدمين طريقاً غير هذا ، مثل قمبيز الذى سار من الفرما متجهاً نحو سمهور وتنيس (صان) ، ومن ثم الى بلبيس ، ولكن فى هذا الوقت (أى حين الفتح الاسلامى) انتشرت المستنقعات حول بحيرة المنزلة بحيث جعلت هذا الطريق على عمرو أشق مما كان على غيره إذ لم يكن لدى عمرو وجنده (وكانوا فرساناً) من الوسائل ما يكفل لهم إقامة القناطر والجسور .

ونرى أن عمراً لو اتخذ غير الطريق الذى اتخذه ، لنفدت قوته قبل أن يصل الى حصن بابليون وهو بيت القصيد ؛ لأن هذا مما يعيق سيره ويتطلب بذل مجهود كبير للاستيلاء على المدن واحدة فواحدة ، وترك قوة فى كل منها ، حتى لا يقطع الروم عليه خط الرجعة لو أرغم على الارتداد .

وقد كان الأرطبون[2] قائد الروم فى بيت المقدس بالأمس ، قائدهم فى بلبيس اليوم . ولا بد أن يكون قد عول على الثبات والمقاومة ما استطاع الى ذلك سبيلاً . أراد أن يوقع داهية الروم بالعرب ويهزم داهيتهم عمراً ، فأخذ المسلمين على غرة وداهم معسكرهم فى جنح الليل ، ولكن أبى الله إلا هزيمة الأرطبون ، حيث قطع المسلمون قوته إرباً ، ولكن ما فتئت بلبيس ممتنعة على عمرو شهراً كاملاً لم ينقطع فيه القتال ، حتى استولى عليها بعد أن لحقت بجنده بعض الخسائر ، ولكن خسارة الروم كانت فادحة ، إذ قتل منهم ألف مقاتل وأسر ثلاثة آلاف ، وكان ذلك سنة ٦٤٠ م وسنة ١٩ هـ . وبهذا أصبح عمرو على مسيرة يوم واحد من رأس الدلتا .

---

(١) وموقعه بقرب التل الكبير

(٢) وقد فر الارطبون الى مصر قبيل تسليم بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب .

(د) استيلاء عمرو على أم دُنين (١)

وبعد استيلاء عمرو على بابليس تقدم حتى أتى (أم دُنينَ) شمال بابليون . وقد ذكر هذا الموضع كل من ياقوت والمقريزى وابن عبد الحكم، أن أم دنين هى المقس وكانت واقعة على النيل ، وتقع فيها حديقة الأزبكية الآن تقريباً (عند جامع أولاد عنان) وفى هذه الجهة نشب القتال بين المسلمين والروم . وكان هؤلاء قد أعدّوا للقتال عدّته وعوّلوا على الثبات فى هذا الموقع الحصين، بما فيه من المرفأ والسفن مما جعل له الأهمية الحربية العظمى . وقد احتدم القتال بين الفريقين عدة أسابيع وأبطأ على عمرو الفتح ، فكتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستمده فأمده بأربعة آلاف مقاتل ، وفيهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الاسود ومسلمة بن مُخَلَّد (٢)

وقد كان مركز عمرو حين حصاره لأم دنين من أحرج المراكز، إذ استولى اليأس على قلوب المسلمين لمن كان يقتل منهم كل يوم . أجل ! كبّد المسلمون الرومَ الخسائر الفادحة ، ولكن كانت خسارة المسلمين كبيرة لقلتهم وخسارة الروم قليلة بالنسبة لكثرتهم ، وإن كانت فى نفسها عظيمة . لهذا بعث عمرو الى عمر يلح فى ارسال المدد على جناح السرعة ، ولبث يتحين قدومه على غير جدوى . قال «بطلر» : فرأى عمرو أن يحوّل وجهه شطر الفيوم فيستولى على هذا الاقليم .

---

(١) أم دنين (بضم الدال وفتح النون وياء ساكنة ونون) : موضع بمصر، ذكر فى أخبار الفتوح — قيل هى قرية كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل ربض القاهرة ، وكان اسمها قبل الفتح « تندونياس » التى سماها العرب فيما بعد المقس ، وقد ذكر هذا الاسم الرومانى « بطلر » نقلا من « يوحنا اسقف نقيوس »

(٢) كان الاربعة القواد العظام الذين اعتبر عمر كلا منهم بألف رجل : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الاسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، من نخبة الصحابة رضى الله عنهم . وممن شهد فتح مصر من الصحابة أيضاً غير عمرو بن العاص : خارجة بن حذافة ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وقيس بن أبى العاص السهمى ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وشرحبيل بن حسنة ، وابناه عبد الرحمن وربيعة ، ووردان مولى عمرو بن العاص ، ومحمد بن مسلمة الانصارى ، وأبو الدرداء ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وغيرهم من مشاهير الصحابة وصناديد العرب .

ولكن لم تكن همة عمرو بالتى تتأثر الى هذا الحد ، فآلى على نفسه أن لا يجعل لليأس سبيلاً الى قلبه ، فلا يطمع العــدو فيه ، فقوّى نفوس المسلمين ، ولم تكن الأعشية أو ضحاها حتى اقتحموا الحصن وغلبوا الروم على أمرهم واستولوا على سفنهم التى أفادتهم بعد فائدة تذكر .

(ه) عمرو وغزو الفيوم وواقعة عين شمس

إضطربت كلمة المؤرخين فى ترتيب وقائع الفتح الاسلامى لمصر اضطراباً لا يقل عنه فى ترتيب وقائع الشام ، وأغفل بعضهم ذكر بعض الوقائع الهامة ، ومن ذكرها منهم فقد مرّ عليها مسرعاً بطريقة لا تشفى الغلة ، ولا تكشف اللثام عن كُنه الحقيقة ، ولا يتيسر لنا بذلك الإقرار بصحة ما ذكروه أو دحض ماقالوه ، وللأسف لم يقتصر هذا الأمر على مؤرخى العرب فحسب ، بل تعداهم إلى غيرهم من الفرنجة . ولكنه عند هؤلاء أخف وطأة منه عند العرب ، وقد رأينا أن نأتى بما ذكره بعض هؤلاء المؤرخين عن ترتيب هذه الوقائع ، ثم نأتى برأينا ونؤيده بالأسباب التى حملتنا على هذا الاقرار ؛ وليكن كلامنا على غزو الفيوم وواقعة عين شمس اللتين هما جوهر الخلاف بين المؤرخين فنقول :

من المؤرخين من ذكر وقائع مصر على هذا الترتيب : العريش . الفرما . بلبيس . أم دنين . بابليون . وهم ابن عبد الحكم والمقريزى والسيوطى . والظاهر أن هؤلاء استقوا تواريخهم من مصدر واحد ، وهو ابن عبد الحكم (وهو أقدم مؤرخى مصر) إذ العبارة واحدة لا تختلف حتى فى اللفظ – وزاد عليهم (بطلر) أن غزو الفيوم وموقعة (هليوبوليس) كانتا قبل حصار بابليون أو قصر الشمع .

وذكر الواقدى ورفيق بك العظم هذه الوقائع على الترتيب السابق ، عدا واقعة أم دنين فقد أغفلت . وكذلك واقعة عين شمس .

وذكر الطبرى وعنه أخذ ابن خلدون الوقائع مرتبة على هذا النمط : الفرما . بلبيس . عين شمس . قد زعما أن استيلاء عمرو على عين شمس حيث كان جمع الروم (والذى نراه أنهما يقصدان بابليون) ومنها أرسل أبرهة بن الصباح الى الفرما ، و بعث عوف بن

مالك الى الاسكندرية فى آن واحد، وهذا خطأ كما سيظهر، من أن عمراً هو الذى توجه بنفسه الى الاسكندرية عقب حصار حصن بابليون، ومع ذلك فلا يبعد أن يكون قد أرسل بعض الجنود لمشاغلة الروم قرب الاسكندرية، وليمنعهم من إرسال المدد الى بابليون. وان كنا لم نعثر فيما رأيناه من التواريخ على رأى يؤيد ذلك، ولم يذكر (ايرفنج) و (موير) غير واقعتى الفرما و بابليون. وأطلق الأخير منهما على واقعة بابليون — (هليو پوليس) كما فعل الطبرى وابن خلدون.

يعلم من ذلك مبلغ اختلاف هؤلاء المؤرخين ومن سار على أسلوبهم. وإذا وفقنا بين ابن عبد الحكم ومن أخذ عنه، و بين (بطلر) (عدا غزو الفيوم) أصبحت وقائع الفتح الاسلامى مرتبة على هذا الترتيب : — العريش. الفرما. بلبيس. أم دنين. هليو پوليس. قصر الشمع.

والآن نتكلم بايجاز عما ذكره (بطلر) عن غزو الفيوم وواقعة عين شمس، ثم نؤيد رأينا بالبراهين الدالة على صحة ما ذكره « بطلر » أو دحضه فنقول :

(١) غزو الفيوم[1]

لما استولى عمرو على أم دنين الواقعة على النيل، أصبح تحت إمرته سفن كثيرة، ولما رأى أن ما معه من المقاتلة لا يكفى لفتح حصن بابليون، ولم يكن قد وصل اليه المدد بعد، أراد أن يشغل جيشه بعمل ريثما يأتيه المدد، فخرج فى القوارب الى الفيوم ماراً بمدينة « منف » الواقعة على الشاطئ الغربى للنيل تجاه حصن بابليون فاستولى

(١) قال « بطلر » مؤيداً قوله بما نقله عن يوحنا لسقف نقيوس الذى يعتبره أكبر حجة فى سرد ووصف وقائع فتح مصر : ولا ريب كما يلوح لى أن غزو الفيوم حدث فى الوقت وعلى الترتيب الذى ذكرته، وأن هذا الترتيب لم يذكره أى مؤرخ من مؤرخى العرب اهـ. وهذا حقيق كما يظهر مما ذكرناه عند كلامنا على اختلاف روايات المؤرخين فيما يتعلق بترتيب الوقائع — وهذا يخالف ما ذكره السيوطى (ج ١ ص ٦٢) ان عمرو بن العاص لم يتم له فتح الفيوم الا بعد سنة وكذلك البلاذرى فى كتاب (فتوح البلدان) فانه ذكر ان الفيوم والوجه القبلى عموما قد فتحت بعد استيلاء العرب على حصن بابليون

عليها ، واستأنف مسيره حتى صار على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم على مقربة من مدينة اللاهون الواقعة على بحر يوسف حيث عسكر بها الروم .

فتقدم عمرو الى البهنسا واستولى عليها فاقتفى «يوحنا» قائد الروم أثره بقوة صغيرة مؤلفة من خمسين مقاتلا من الروم ، لاستطلاع حركات المسلمين ؛ على أن هذا القائد شعر بخطورة مركزه فعرج على معسكره فى « أبواط »[1] فأدركه عمرو وقتل الروم فى هذه الجهة عن آخرهم .

لا يمكننا أن نفهم ما يقوله « بطلر » من أن عمرو بن العاص يزاول موقعة ويترك البلاد التي افتتحها ، ورسخت أقدامه فيها ، ويترك العريش والفرما وبلبيس وأم دنين ويذهب الى الفيوم والبهنسا ، وإذا كان فعل ذلك فأى مانع للروم من أخذ هذه البلاد وإعادتها إلى حكمهم ، وشحنها بالمقاتلة ، وقتال المدد الذى يأتى الى عمرو عن كل شبر من الأرض ، فيفت ذلك فى عضدهم . على أن حدوث وقائع البهنسا ونحوها من بلاد الصعيد لم تقف عليــه فى كتاب يقام له وزن . والذى يغلب على ظننا أن « بطلر » وقف على بعض القصص الموضوعة على الخيال . فذكر البهنسا ووقائع المسلمين فيها ، ورأى العامة من المسلمين يعتقدون أن لهم شهداء ، فلم يجد طريقًا للجمع بين الأخبار الصحيحة وبين ذلك ، إلا بأن يذكر ذهاب عمرو بجنده الى الفيوم

والذى يكاد يكون اعتقاداً لنا أن الشهداء بالبهنسا إنما هم شهداء الأقباط الذين قتلوا فى عهد الاضطهاد . فلما غلب الإسلام وكان اسم الشهداء غالبًا دعوهم بغير سلطان أتاهم .

ولما سمع « تيودور » قائد الروم بما حل بجنده فى هذه الواقعة سقط فى يده واستدعى جميع جند الروم من كافة أرجاء الديار المصرية ليعزز بهم حصن بابليون ، وفى هذا الوقت انسحب عمرو من البهنسا مركز قيادته من غير أن يتغلب على مدينة الفيوم ولكنه تمكن من ضرب الروم فى عدة وقائع وأمن الأخطار التى قد تحدق به لو بقى فى

(١) يقول أمليتو : ان هذه المدينة بمديرية بنى سويف قريبة من بوصير وواقعة شرقى حجر اللاهون تماما .

أم دنين حيث شغل جيشه فى مكان أبعد خطراً ريثما يأتى اليه المدد . وسار عمرو فى النيل على جناح السرعة ليلحق بالمدد الذى علم بدنوه من عين شمس حيث التقى بأربعة آلاف مقاتل [1] مدداً من عمر بن الخطاب وعليهم الزبير بن العوام .

وقد ابتدأت غزوة الفيوم على ما ذكره « بتلر » فى نحو أوائل مايو سنة ٦٤٠ م ، واستغرقت عدة أسابيع كانت نتيجتها فى مصلحة المسلمين . وفى ٦ يونية وصل المدد الى (هليوبوليس) أو عين شمس التى اتخذها عمرو مركزاً لقيادته ، وشرع يعد العدة للموقعة الثانية عدتها .

(٢) واقعة هليوبوليس

أما « تيودور » قائد الروم فقد عوّل على أن يسير بعشرين ألفاً من جند الروم يريد أن يزحزح بهم جند المسلمين عن (هليوبوليس) . على أن هذا الرأى كان ولا ريب فى مصلحة عمرو بن العاص الذى رغب فى أن يشتبك مع الروم فى العراء حيث يسهل عليه كسرهم أكثر مما لو تحصنوا فى حصن بابليون المنيع . فزحف « تيودور » على عين شمس فوضع عمرو كمينا فى موضع خفى من الجبل الأحمر [2] وآخر فى النيل قريباً من أم دنين ولاقى « تيودور » بالفريق الأكبر من الجيش . ونشب القتال فى منتصف المسافة بين الجيشين تقريباً فى حى العباسية الآن . وقد أيقن الفريقان أن على النجاح فى هذا الميدان يتوقف حظ مصر ، فحمى وطيس القتال بين

---

(١) اختلف المؤرخون فى هذا المدد . فذكر ابن عبد الحكم أنهم كانوا أربعة آلاف تمام ثمانية آلاف . وعنه أخذ (جيبون) وأخرج ابن عبد الحكم أيضا ان عمر بن الخطاب بعث الزبير ابن العوام فى إثنى عشر ألفا وذكر السيوطى والمقريزى أنهم كانوا أربعة آلاف على كل ألف منهم رجل يقام ألف بحيث أصبح جيش عمرو على هذا الزعم إثنى عشر ألفا . وذكر البلاذرى أنهم كانوا عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفا . وقال ياقوت : وقيل ان المدد كان اثنى عشر ألفا . وذكر الكندى والسير (وليم موير) أن جند عمرو أصبح بعد وصول المدد خمسة عشر ألفا وخمسمائة . وذكر « يوحنا اسقف نقيوس » ان المدد كان أربعة آلاف . ولا يمكننا الاهتداء الى رأى قاطع لاختلاف هذه الروايات ، انما نرجح أن المدد لم يزد عن أربعة آلاف ، اذ لا يعقل أن يسير عمرو لفتح مصر بأربعة آلاف مقاتل ثم يمده عمر بضعف هذا المدد . وربما بلغ المدد اثنى عشر ألفا بالتدريج .   (٢) شرق العباسية

الفريقين ، ولما بلغ أشده خرجت قوة خارجة بن حذافة من الجبل ، وانقضت كالصاعقة على ساقة الروم . فاختل نظام جندهم وعرجوا الى الغرب نحو أم دنين . فقابلتهم قوة العرب وأصبحوا بذلك بين جيوش العرب الثلاثة التي سحقتهم سحقاً . فلم يبق منهم سوى عدد قليل ، سار بعضهم في النيل وفر البعض الآخر رجالاً الى بابليون (١)

وقد ذكر « تاريخ مصر إلى الفتح الاسلامي » المقرر تدريسه بالمدارس الثانوية أنه لم يبق من جند الروم عقب هزيمتهم في واقعة عين شمس سوى ٣٠٠ مقاتل . وقد أخذ هذا من كتاب (بطلر) الذي يقول : إن العرب المنتصرة استولوا ثانية على أم دنين ، وقد قتل جميع حامية الروم في هــذا الحصن في المعركة الا ٣٠٠ مقاتل ، ويؤيد ذلك أيضاً ما ذكره « ابن پول » : واحتل المسلمون تندونياس (أم دنين) التي هلكت حاميتها الا ٣٠٠ مقاتل ، لأنه لا يعقل أن يفقد الروم تسعة عشر ألفاً وسبعمائة مقاتل من جندهم ، وعدده لم يزد على عشرين ألف مقاتل .

إعتمد (بطلر) على تاريخ (يوحنا أسقف نقيوس) فيما يتعلق بغزو الفيوم وواقعة عين شمس ، مرجحاً ما ذكره هذا المؤرخ على غيره من مؤرخي العرب ، الذين لم يرد في تواريخهم ذكر لغزو الفيوم ، اللهم إلاّ ما ذكره بعضهم سيما «السيوطي» أن فتح الفيوم لم يتم إلاّ بعد سنة : أي بعد حصن بابليون .

وقد استدل «بطلر» على ترجيح «غزو الفيوم» قبل فتح حصن بابليون بأن عمراً تأكد أنهُ لا يتسنى له أن يقتحم الحصن بجنده القليل ، فرأى أن يشغل جنده في جهة بعيدة الخطر كالفيوم ، فيفت في عضد العدو بانتصاره عليه في سلسلة وقائع جزئية . على أنه فات « بطلر » أن هــذا مما يجعل جند عمرو في أحرج المراكز ، إذ يتسنى بذلك للروم أن يستردوا ما استولى عليه عمرو من المدن ، فتضيع منه العريش والفرما وبلبيس وأم دنين وغيرها ، فيقطعون عليه خط الرجعة . أضف الى ذلك أن مسير

---

(١) ستانلي لين پول ص ٥ ، بطلر ص ٣٢٠ — ٣٢٣

عمرو الى الفيوم كان فى النيل الذى يشرف عليه حصن بابليون ، فيتسنى للروم أن يُلحِقوا بالمسلمين خسارة فادحة أثناء مرورهم فى النيل . وعلى هذا يضطر للدد لاسترداد هذه المدن من الروم أثناء مسيره إلى (هليو بوليس) فتلحق به خسارة كبيرة فى طريقه . ولم يثبت مما رأيناه من التواريخ أن هذا المدد قد لاقى أية مقاومة قبل وصوله إلى (هليو بوليس) . والظاهر أن بطلر قد اعتمد على ما رآه فى بعض التواريخ عن شهداء البهنسا التى حدثت فيها موقعة بين الروم والمسلمين، على ما رواه عن يوحنا أسقف نقيوس، فتوهم أن هذا حدث عند غزو الفيوم، التى استولى عليها العرب بعد حصن بابليون من غير حرب أو قتال . ولعل هذا الحادث يرجع الى قتل الروم لليعاقبة ، فأطلق على القتلى الذين إستشهدوا بالبهنسا « شهداء البهنسا » فتوهم البعض أن هذا كان وقت الفتح الإسلامى ، وليس ببعيد أن يكون عمرو قد وقف على حصار حصن بابليون حتى وصل إليه المدد ، فشرع يعمل لفتحه .

أما عين شمس فكان من السهل أن يستولى عمرو عليها قبل حصاره حصن بابليون ، لأنه لم تكن بها حامية كبيرة من جهة ، ولأنها كانت فى طريقه . وربما استولى عليها قبل أم دنين ثم نشب بينه و بين الروم القتال بعد وصول المدد إليه من عمر على أثر تقهقره إلى هذه المدينة حيث رأى من مصلحته الحربية أن يستدرج الروم إلى العراء فيضعف حامية الحصن فلا تقوى على المقاومة طويلاً

(٣) حصار عمرو لحصن بابليون

وقبل أن نطرق هذا الباب يحسن أن نعرف مَن المقوقس :

المقوقس :

اتفق المؤرخون على أن المقوقس لقب لرجل كان له شأن كبير عند الروم وقت فتح مصر، وأنه هو الذى صالح العرب عليها . ولكن اتفاقهم وقف عند هذا الحد ، فاختلفوا فى اسمه وجنسه ووظيفته والعمل الذى عمله ، ومعنى اللقب الذي عُرف به .

وقد كثر الجدال فى هذه المسائل الآن ، وللأسف لم تؤد هذه المناقشات الى رأى قاطع يمكن أن نتخذه حجة دامغة ، بحيث يكفى الغير مؤونة البحث .

ومن المؤرخين الذين عنوا باستطلاع خبر المقوقس عناية خاصة ، الدكتور (بطلر) فى كتابه (فتح مصر والاسكندرية) (ص ٥٠٨ – ٥٢٦) حيث أفرد له بابا خاصا ، والمسيو (أميلينو) الذى كتب مقالة شائقة فى المجلة الأسيوية فى نوفمبر سنة ١٨٨٨ م تقع فى أكثر من عشرين صحيفة (ص ٣٨٩ – ٤١٠)

وقد اتفق هذان المؤرخان على أن المقوقس كان عاملاً على مصر من قبل الروم ، وبطريقاً ملكياً ، أى على خلاف مذهب السواد الأعظم من المصريين وهو اليعقوبى . أما مؤرخو العرب فقد خبطوا فى هذا الموضوع خبط عشواء . وقد رأينا أن ننقل بعض ما ذكره (بطلر) وغيره من أقوال كثيرين من المؤرخين الأوربيين المحدثين فنقول :

قال المؤرخ « فون رانكى » إن المقوقس كان والياً على مصر وأنه من القبط . و «دى غويه» الذى قال: يظهر أن مؤرخى العرب خلطوا أحياناً بين المقوقس وقيرس بطريرق الاسكندرية مع أنهما شخصان مختلفان كانا يشغلان مركزين متباينين . والمستر « ملن » الذى قال فى كتابه « مصر فى عهد الرومان » ان المقوقس هو « جُريج بن مينا » الذى ذكره « يوحنا أسقف نقيوس » وقال إنه كان والياً على أتريب ، وأنه هو الذى أدلى بمقاليد مصر إلى العرب (ص٢٢٤) و « ستانلى لين بول » (ص٦) يميل إلى رأى المستر « ملن » فيما يتعلق باسمه بالرغم مما ذكره مؤرخو العرب ، وهو أنه كان والياً على ديار مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ولكنه اتفق مع هؤلاء على أنه كان من القبط .... وقال الأستاذ « بُرى » فى كتابه (الامبراطورية الرومانية فى عهدها الأخير) انه كان والى مصر كلها وكان من القبط .

ونحن نزيد على ما نقلناه عن مؤرخى الأفرنج ما قاله « جبون » (ج ٩ ص ٢٦٨) وهو أن المقوقس كان مصرياً وثرياً نبيلاً ، وما قاله « أيرفنج » (ص ٨١) وهو أنه كان والى مصر ، وكان من عنصر مصرى (أعنى قبطياً) وفى مرتبه الأمراء أو النبلاء وأنه كان منافقاً عظيماً وكان يعقوبى المذهب .

ولننقل ما قاله بعض مؤرخى العرب المعدودين فى هذا الصدد فنقول :

(١) قال البلاذُرى فى « فتوح البلدان » (ص ٢٢٢ – ٢٢٣ – ٢٢٨) أن المقوقس صالح عمراً ولم ينقض الصلح مع القبط حين رفضه (هرقل) وأنه اعتزل أهل الاسكندرية حين نقضوا ، فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول . وذكر بعض الرواة أنه كان قد مات قبل مجىء (منويل) لاسترداد الاسكندرية . ويظهر من هذا أن البلاذرى لم يسمِّ لنا المقوقس

(٢) وقال الطبرى (ص ٢٢٧) : فلقيهم هنالك (أمام حصن بابليون) أبو مريم جاثليق مصر ومعـــه الاسقف ، بعثه المقوقس لمنع بلادهم ، وقال فى مكان آخر إنه (المقوقس) صاحب الاسكندرية

(٣) وقال سعيد بن البطريق [١] : إن المقوقس كان ملكيًا وكان عامل الخراج على مصر من قبل (هرقل) ، وكان يعقوبيًا فى الباطن ملكيًا فى الظاهر ، وكان أيضًا قد أقطع أموال مصر حين حاصر الفرس القسطنطينية .

(٤) وقال (ساويرس بن المقفع) [٢] أسقف الأشمونين فى كتابه « سير البطارقة » : ولما ملك (هرقل) أقام الولاة فى كل موضع ، وأنفذ الى مصر (فيرس) ليكون واليًا وبطريركًا . فلما وصل الى الأسكندرية أعلم الابا بنيامين ملاك الرب به وأمره أن يهرب هو ومن معه ههنا لأن شدائد عظيمة تنزل عليهم ..... ثم قال عن سنى الاضطهاد : وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر...

(١) هو سعيد بن البطريق بطريرق الأسكندرية . قال فى « عيون الأنباء » إنه من أهل فسطاط مصر وكان طبيباً نصرانياً مشهوراً عارفاً بعلم صناعة الطب وعمله . ولد سنة ٢٦٣ هـ وجعل بطريركاً على الاسكندرية وسمى « أوتيخوس » وعمره نحو ستين سنة ، وبقى فى الكرسى والرئاسة نحو سبع سنين وستة أشهر ومات سنة ٣٢٨ للهجرة . وله كتب كثيرة فى الطب والتاريخ

(٢) قال (بطلر) إنه أسقف قبطى كتب تاريخ البطارقة . ويوجد من كتابه ثلاث نسخ معروفة ، واحدة فى المتحف البريطانى وهى من القرن الخامس عشر ، وواحدة فى مكتبة باريس من القرن الرابع عشر ، والثالثة أقدم منهما . وهى عند مرقس سميكه بك (باشا) فى القاهرة . وكانت فى القرن العاشر للميلاد . وفى نسخة باريس مقدمة لمحبوب بن منصور أحد شمامسة الاسكندرية كتبها فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر

وقال أيضاً : فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقس . وأيضاً : خاف (بنيامين) الكافرَ وهو كان والى الاسكندرية و بطريرقها . وأخيراً يخاطب بنيامين نفسه عن سنى الاضطهاد « الذى نزل بى لما طردنى المقوقس » فيتبين مما يقوله ساويرس أن بنيامين قد طُرد من كرسى البطريرقية بمجرد وصول (فيرس) ، فبناء على ما ذكره ساويرس هذا يكون فيرس هو المقوقس .

و بعد موت ساويرس مرت حقبة من الدهر لا تقل عن قرنين حتى جاء :

(٥) إبن الأثير فقال (ج ٣ ص ٢٧٨) : فأخذ المسلمون (باب إليون) وساروا الى مصر فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الاسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم .... ثم قال : فلما التقى المسلمون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا ، وسار عمرو الى الأسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله فأرسل المقوقس الى عمرو يسأله الهدنة الى مدة فلم يجبه إلى ذلك . وقال : لقد لقينا ملككم الاكبر (هرقل) فكان منه ما بلغكم، فقال المقوقس لأصحابه صدق ...... الى غير ذلك من الخبط الكثير ولا سيما فيما رواه عن تنسيق الحوادث التى وقعت فى أوائل الفتح

(٦) وقال أبو صالح الأرمنى (١). وكان محمد صلى الله عليه وسلم قد سير حاطب ابن أبى بلتعة من لخم الى المقوقس صاحب الاسكندرية (فى السنة السادسة للهجرة أى سنة ٦٢٧ م) . وقال فى الكلام عن دير فى الصعيد : وكان يأوى بنيامين مختفياً فى ملك هرقل الخلقدونى المذهب وجُريج بن مينا المقوقس بمصر الى انقضاء مدة عشر سنين خوفاً منهما كما أوحى اليه الملاك . ثم استرسل أبو صالح فى الكلام فقال : وهذه كانت مدة عشر سنى الاضطهاد وهى المدة التى قاسى منها الارثوذكسيون (القبط) صعوبات جمة . وقال أبو صالح: أنه وجد فى كتاب الجناح : وكان الأسقف من الروم بمصر والاسكندرية يسمى فيرس .

(١) كان معاصراً لابن الأثير أو سابقاً له فقد قال فى أول كتابه : يبتدىء بعون الله و يشاهد أن فى عصرنا هذا فى ابتداء سنة أربع وستين وخمسمائة كان بناء الكنيسة التى على اسم مارى يعقوب بناحية البساتين

(٧) وقال ياقوت فى معجمه : ان أمير الحصن كان وقت الفتح المندفور من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى الذى كان ينزل الاسكندرية .

(٨) وقال المكين[١] ان المقوقس كان والى مصر من قبل هرقل وانه صالح عمراً هو وكبار القبط .

(٩) وقال ابن خلدون : ان المقوقس كان من القبط .

(١٠) وقال بن دقماق : ان المقوقس كان نائب هرقل وكان رومانياً .

(١١) وروى المقريزى : ثم أحاط المسلمون بالحصن وأميره يومئذ المندفور الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى . وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو فى سلطان هرقل غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون . وتابع المقريزى ابن عبد الحكم فى ابقاء المقوقس الى زمن فتنة « ما نويل » وتابع ياقوت فى وصفه المقوقس بأنه ابن قرقب اليونانى . وقال أنه كان للقبط بطرق فى الاسكندرية اسمه « أبو ميامين » . وان المقوقس صالح العرب ، لكن هرقل أرسل اليه يقبح رأيه .

(١٢) وقال الواقدى : ان ملك القبط كان يومئذ المقوقس بن راعيل .

(١٣) وذكر أبو المحاسن أن بنيامين كان بطرق القبط بالاسكندرية وأن أمير الحصن يومئذ «المندفور» الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس وهو ابن قرقب اليونانى. وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو فى سلطان هرقل ، غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون . ونقل عن« ابن كثير» أن جاثليق مصر كان أبا مريامين.

(١٤) أما السيوطى فلم يخالف أبا المحاسن فيما قاله .

ويظهر للمتأمل لما ذكره مؤرخو العرب مبلغ الخلط الذى وقعوا فيه من حيث تعدد الأسماء التى أطلقت على المقوقس والاختلاف الكثير فى معرفة وظيفته ومذهبه وغير ذلك . ولكن يستخلص من التواريخ العربية أن هناك ثلاثة رجال وهم : المقوقس ، وأبو مريم ، والأعرج .

---

(١) هو جرجس المكين بن العميد النصرانى بن أبى المكارم ، إختصر تاريخ الطبرى ثم كمله . وتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ هـ الموافقة لسنة ١٢٧٣ م

١ — الأعرج والأعيرج

لقبه ياقوت « بالمندفور » ولعل النساخ حرفوها عن « المندطور » : أى الأمير . وتابعه أبو المحاسن والسيوطى وزاد الأخير فى تحريف هذه الكلمة فجعلها « المندفول » . وقد رأى (بطلر) أن (الأعرج) تحريف كلمة (جُريج) وأن اسم أمير الحصن كان «جريج» و «جورج» . ويرى «لين پول» أن الأعرج أو الأعيرج ربما يشبه (أرطبون)

٢ — أبو مريم

قال « لين پول » إنه جاثليق مصر ، ومعنى جاثليق بطريرك . وقد ذكره أولاً بهذا اللقب الطبرى لأنه لقب لبطارقة الكنائس النسطورية والأرمنية ، وكان مألوفاً عنده لاتصاله ببلاد الفرس . وقال الطبرى إنه كبير بطارقة النصارى ، وكناه بأبى مريم . ومعلوم أنه كان فى مصر فى زمن الفتح بطرقان (قيرس) و (بنيامين) : فابن مريم لا يصح أن يكون محرفاً من قيرس ولكن يصح أن يكون محرفاً من بنيامين ، وزاد تحريف الاسم فى زمن ابن الأثير فصار « أبو مريم » وسماه السيوطى « أبا ميامين » وواضح أن بنيامين حرّف فصار أبا ميامين ثم أبا مريم .

٣ — المقوقس

إن المؤرخين الأقدمين الذين أشرنا إليهم كالبلاذرى والطبرى وساويرس أسقف الأشمونين وابن الأثير لم يكنّوا المقوقس . وأول من قال إنه ابن مينا ، أبو صالح الأرمنى . وقال ياقوت : إنه ابن قرقب اليونانى .

وقد خطّأ (بطلر) الطبرى لقوله إن المقوقس كان عظيم القبط وإنه كان فى الحصن عند استيلاء العرب عليه ، أعنى أنه لم يكن يعقوبياً ولم يكن حاضراً فى الحصن عند اقتحام العرب له ؛ وكذلك خطأ « أوطيخا » (وكان ملكيًا) لقوله إن المقوقس كان يعقوبيًا ، لكى لا تقع على الملكيين تبعة ما فعله .

ثم قال (بطلر) : ولا يكشف ما غمض من أمر المقوقس إلا ساويرس أسقف الأشمونين . وقد ألف كتابه من كتب كثيرة كانت محفوظة فى المكتبة فى دير مقاريوس فى مجاميع خاصة . ولا شك فى أنه تصعب قراءة مؤلفه لعدم ضبطه وإتقانه . ومع ذلك فالمعلومات التى وجدتها فى كتابه جمة لا توجد فى المؤلفات القديمة التى اطلعت عليها . وهذا ما يقوله (ساويرس) : أقام هرقل قيرس واليًا على مصر بعد أن استردها الروم من الفرس ليكون بطريرقًا للأسكندرية وأنه أقام عشر سنين إضطهد الكنيسة القبطية فيها اضطهاداً شنيعًا . وهذه المدة بيّنها بنيامين « بالعشر سنين التى أقام فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر » ويلقب قيرس بالكافر الذى كان واليًا وبطريرقًا للأسكندرية من قبل الروم . ويقول عن سنى الاضطهاد « الاضطهاد التى نزل بى لما طردنى المقوقس » . . . ولم يبق إذ ذاك أدنى شك فى أن ساويرس جعل المقوقس هو « قيرس » وميزه من « بنيامين »

ثم أقام بطلر الأدلة على أن الأسقف ساويرس مصيب فيما ذكره وأن ما ذكره مؤرخو العرب خطأ محض .

والذى يظهر لنا مما ذكرناه أن مؤرخى العرب متفقون على المركز الذى كان يشغله المقوقس ، وهو أنه كان واليًا على مصر من قبل هرقل ، وبطريرقًا للأسكندرية ، وأنه هو الذى صالح العرب . ولكن لم يتفقوا على حقيقة اسمه ، بل شاع الخلط بينهم وكذلك بين الأفرنج ومنهم أميلينو الذى قال إن (قيرس) لا بد أن يكون قد ترك مصر فى سنة ٦٣٩ م ، ويحتمل أن يكون المقوقس قد اختير ليحل محل (قيرس) حتى يغلب على الظن أنه (المقوقس) كان عدو (قيرس) . وبعد أن رجح « أميلينو » كون المقوقس ملكيًا فى مقاله الذى نشره فى المجلة الاسيوية عارض نفسه فقال : إذا كان هذا صحيحًا (كون المقوقس ملكيًا) فكيف يتأتى لمورخى القبط الذين أرخوا تواريخهم بالعربية مثل أوطيخا والمكين وأبى الفرج أن لا يقولوا شيئًا عنها ؟ (١)

(١) رد (بطلر) على هذا بقوله إن أبا الفرج لم يكن قبطياً البتة ولا مصرياً وكذلك أوطيخا ، أما المكين فقد قال إنه مؤرخ وليس من وراء تاريخه فائدة كبيرة

أما خلاصة ما ذكره أميلينو عن المقوقس فهى كما يأتى :

(١) أن المقوقس كان يسمى جورج بن مينا وابن قرقب ؛ وينبغى أن يكتب ابن فرقب

(٢) ان المقوقس كان قبطى الجنس من جهة واحدة إن لم يكن من جهتين ، وكان فى خدمة الامبراطور (هرقل) وكان فى الاصل ملكى المذهب .

(٣) وأنه كان بطريقاً ملكيا ، ولا يمكن أن يُعلم تاريخه إلا من باب الحدس والتخمين .

(٤) إن لفظ المقوقس كان كنيةً مشتقة من (كوكيون باليونانية) ، اسم نوع من النقود . وكذلك قال (بيريرا) ولم يصوب (بطلر) هذا الرأى ، بل قال إن اللفظ الحبشى لهذه الكلمة هو المقوقَس (بفتح القاف الثانية) وأن هرقل نقل (قيرس) إلى مصر من بلاد القوقاز ، فلا يبعد أن يكون لقب فى مصر بالقوقاسي وهى (أوقوقاسيوس) باليونانية ، و(بكوخيس) بالقبطية ، ولا يبعد أن تكون الكلمة القبطية حرفت فى نقلها إلى العربية فصارت (مقوقس) أو قدمت عليها الميم للنسبة (كالمصّرلمن أقام فى مصر

أما الامر الذى يهمنا بحثه وإبداء رأينا فيه بنوع خاص ، فهو مذهبه ، وهل كان المقوقس ملكيًا أو يعقوبيًا فنقول :

قد أورد أصحاب المقتطف (الجزء الثامن والعشرين سنة ١٩٠٣ من ص٢٣٢–٢٣٦) خلاصة ما ذكره (بطلر) عن المقوقس . وقد علقوا على ترجمة هذا الباب بقولهم : و يظهر لنا أنه (بطلر) حل عقدة غامضة من عقد التاريخ ، وأبان أن البحث الدقيق يجلوا أغمض المسائل . اه

أما نحن فنعترف للدكتور بدقة البحث و إصابة الرأى ، ولكن ليته حل حقيقة هذه العقدة أو تلك العقد المرتبطة باسمه وجنسه ومذهبه . فأنها لا تزال مستعصية عليه كما شاهدنا

ونحن نذكر ما عسى أن يكون له مساس بما ذكره (بطلر) خاصًا بمذهب المقوقس ، أيعقوبيًا كان أو ملكيًا ، و إذا كان ملكيًا فلم صالح العرب وساعدهم ؟

مما تقدم يعلم أن « بطلر » أعتمد على ما رواه ساويرس أسقف الاشمونين من أن المقوقس كان ملكيًا ، فجزم بصحة ما ذكره ساويرس وأنه طرح كلام مؤرخى العرب والافرنج جميعًا ، بعد بحث طويل ومجهود كبير ، وأن ما ذكره سواه خطأ محض ، فبنى حكمه على ما قرأه فى كتاب هذا الاسقف . ولكن للاسف قرر بطلر فى سياق مدحه له أنه يستحيل على القارىء قراءة كتاب ساويرس لنقص فى الاتقان ، وكيف يجزم بطلر بصحة ما ذكره ساويرس وكتابه مهمل عديم التنسيق ؟

فاذا سلم بطلر بأن (أوطيخا) الملكى المذهب قد جعل المقوقس يعقوبيًا لكى لا تقع على الملكيين تبعة عمله ، فلم لا يظن أيضًا أن (ساويرس) اليعقوبى المذهب قد جعله ملكيًا لانه خان البلاد وصالح العرب عليها كما عد غيره من المؤرخين عمل المقوقس خيانة عظمى ومن بينهم بطلر ؟

واذا كان المقوقس رومانيًا ملكيًا محبًا للروم لا يخشى سوءًا إذا احتفظ بمصر فلم التف حوله القبط وتابعوه وصالحوا العرب لصلحه لهم وهو ملكى ؟ وقد قدمنا أن اليعاقبة كانوا يعتبرون مجرد الاشتراك مع الملكيين فى أى عمل خيانة عظمى لا تغفر .

وإذا كان المقوقس ملكى المذهب وأنه هو الذى نكل بالقبط عشر سنين فكيف يعقل أن يكون القبط فى صفه وأن تتركه الروم وشأنه ولم ينقض الصلح مع القبط ، بينما استمر الروم فى الدفاع عن البلاد الى النهاية

لهذا لا نوافق (بطلر) ولا غيره من المؤرخين الذين رأوا أن المقوقس كان ملكيًا ، ونميل الى القول بأن المقوقس كان قبطيًا يعقوبى المذهب من أصل يونانى ، عينه (هرقل) لما رأى فيه من الحزم والنبل واحترام القبط له وما اشتهر به من جميل الخصال وكريم الافعال . واذا كان ملكيًا فى الظاهر ولكنه اعتنق المذهب اليعقوبى سرًا كى لا يعلم بذلك (هرقل) فينتقم عليه ويصب عليه جام غضبه ، وإذا قيل إن البطريرق (بنيامين) فر من وجه المقوقس نفسه حين علم بعودته الى مصر قبيل الاضطهاد الذى دام عشر سنين ، فلا يبعد أن يكون المقوقس نفسه هو الذى أشار على (بنيامين) بالالتجاء إلى أحد الاديرة كى ينجو من ظلم الروم ..

والظاهر أن المقوقس لم يكن له من النفوذ والسلطان ونفاذ الكلمة ما يكفل له وقف هذه المذابح التي قام بها الروم حتى لا تنكشف حقيقة أمره فيمثل به (هرقل) رواية الغدر ، لان الروم كانوا يقصون أثر من اشتهر بمخالفة مذهب خلقدونية أو عرف بالميل الى اليعاقبة أعداء هذا المذهب ولا يبعد أن يكون (قيرس) والمقوقس شخصين مختلفين كما رأى أيضاً دى غويه ، فكان للاول السلطة العسكرية ، وللثانى السلطة المدنية . وكان (قيرس) ملكياً متعصباً لمذهبه فقام بهذه الاضطهادات فى جميع أنحاء الديار المصرية ، ولم يكن للمقوقس وهو الحاكم الملكى للبلاد من النفوذ والقوة بحيث يتمكن من إيقاف تلك المذابح البشرية والاضطهادات المريعة . فلما رأى المقوقس توغل العرب فى قلب مصر ، وأن البلاد واقعة لا محالة فى أيديهم ، وأن سلطان الروم أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال ، سرعان ما اتجه بقلبه وقالبه الى العرب ، وعمد إلى ممالأتهم هو والقبط ، لأنه كان له نفس طموحة

هذه كلها فروض نفرضها ، ولكننا لا نستطيع أن نزعم صحتها لنقص الأدلة التاريخية .

حصار عمرو لحصن بابليون
ومراسلة المقوقس عمراً بشأن الصلح

لما تم للمسلمين النصر على الروم فى واقعة عين شمس (هليوبوليس) سار لحصار حصن بابليون أو قصر الشمع فى أوائل سبتمبر سنة ٦٤٠ م وسنة ٢٠ هـ : أى زمن فيضان النيل . وكانت أسوار الحصن المتينة وأبراجه الشامخة يحيط بها النيل ، وقد ارتفع ماؤه فامتلأ الخندق الذى حوله . وكان العرب مفتقرين لمعدات الحصار بل وغير قادرين على استعمالها استعمالاً يكفل لهم أن يلحقوا بالروم خسارة كبيرة . كل ذلك أطال أمد الحصار حتى بلغ سبعة أشهر كما اتفق المؤرخون على ذلك

ولما حاصر المسلمون (بابليون) أو (باب إليون) كان بالحصن حاكم مصر المقوقس وكان قائد الحامية رجل يقال له الأعرج . ولم تكن قوته بأكثر من خمسة آلاف أو

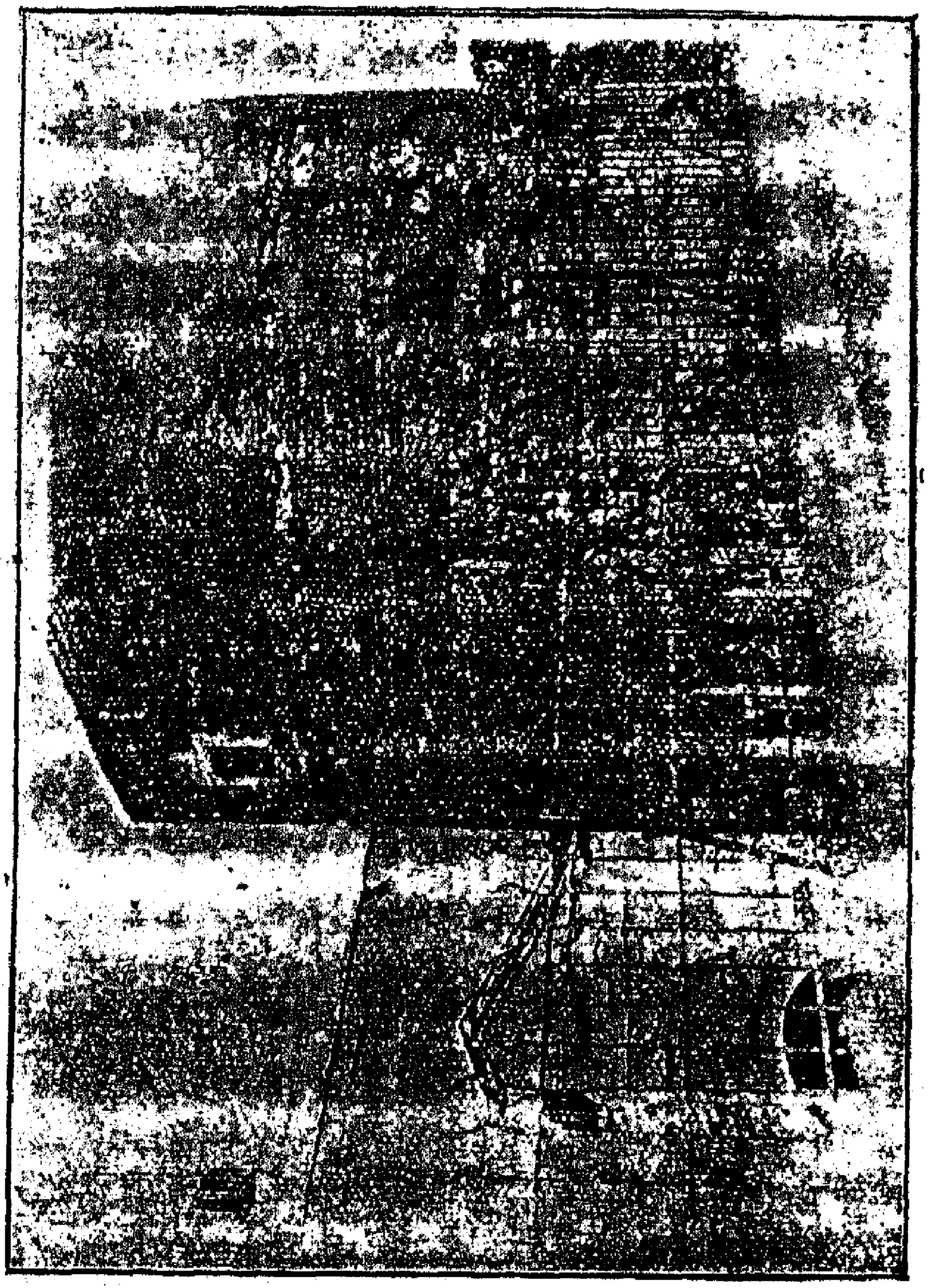

حصن بابليون والباب الذى خرج منه المقوقس أثناء الفتح

رسم محمد افندى يوسف مهندس بتنظيم مصر

ستة آلاف مقاتل على ما رواه (بطلر) ولكنا نشك فى صحة هذا العدد ونرجح أن يكون أكبر من هذا بكثير لورود القافلة اليه بكثرة عقب الوقائع المتقدمة

صفّ عمرو جند المسلمين حول الخندق ووضع عليه المنجنيق . وهو أعظم آلات الحصار إذ ذاك ، وقد جعل الروم للخندق أبوابًا وجعلوا حسك الحديد (الأهرام الفارغة) موتدة بأفنيـــة الأبواب ، وظل القتال بين الفريقين شهراً كاملاً . ولما رأى المقوقس الجد من العرب ، وصبرهم على القتال ، وأنهم سوف يقتحمون الحصن ، خرج هو ونفر من قومه من الباب القبلى حتى لحقوا بالجزيرة حيث أرسل المقوقس الى عمرو ابن العاص :

إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وأنتم عصبة يسيرة . وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم العدة والسلاح وقدأحاط بكم هذا النيل . وانما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا تقدر عليه . ولعلكم تندمون ان كان الأمر مخالفًا لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا الينا رجالاً من أصحابكم نعاملكم على ما نرضى نحن وهم به من شئ

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس أبقاهم عنـــده يومين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لقومه : أترون أنهم يقتلون الرسل ويستحلون ذلك فى دينهم ؟ ولم يدر المقوقس أن عمراً انما أبقاهم ليروا حال المسلمين . و بعد انقضاء اليومين رد عليهم عمرو قائلاً : إنه ليس بينى وبينكم إلاّ إحدى ثلاث خصال :

(١) أما إن دخلتم فى الاسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا .

(٢) وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون .

(٣) واما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين .

سر المقوقس بقدوم رسله وسألهم عن حال العرب فأجابوا :

رأينا قوماً الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة – ليس لأحد فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم .

فأرهب المقوقس هـذا الكلام وعلم أن قوماً هذه حالهم سوف يقتحمون الحصن وينتصرون عليهم . وأشار على قومه باغتنام فرصة الصلح قبل فواتها . فأجيب إلى طلبه ، فأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا رسلاً منهم يتداعى معهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح للفريقين .

فبعث عمرو بن العاص اليهم عشرة رجال عليهم عبادة بن الصامت ، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم – وأن لا يجيبهم إلاّ إلى إحدى هذه الخصال الثلاث ــ فلما دخلت رسل المسلمين إلى المقوقس ، هاب هذا عبادة لسواده وفرط طوله ، وأراد أن يتقدم اليه غيره ليكلمه فقال المسلمون : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وانا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به .

ونحن نرى أن المقوقس قد توهم أن عمراً أمر عبادة ــ هـذا الأسود – أن يكون متكلم القوم تصغيراً لشأن المقوقس ، وإلا فان المقوقس لم يعدم أن يكون فى قصره العشرات من العبيد .

فلم ير المقوقس بدّاً من محادثة ومفاوضة عبادة . وابتدأ هذا الحديث وقال : إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلب للاستكثار منها ، إلاّ أن الله عز وجل قد أحلّ لنا ذلك ؛ وجعل لنا ما غنمنا من ذلك حلالاً . وما يبالى أحدنا إن كان له قنطار من ذهب أو كان لا يملك إلا درهماً ؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فان كان أحدنا لا يملك إلاّ ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده . انما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا

وعهد الينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته و يستر عورته. وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه. اه باختصار.

فأمَّن المقوقس على كلام عبادة وأراد أن يسلك طريق الأرهاب المسوغ فى قالب النصيحة فقال: أيها الرجل قد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل، و إنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا شهراً وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به.

فقال عبادة: يا هذا لا تغرَّنَّ نفسك ولا أصحابك ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ... ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب الينا من ذلك. وإن الله عز وجل قال فى كتابه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلاَّ خصلة من ثلاث خصال، فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل.

فألح المقوقس على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث الخصال. فرفع عبادة يديه وقال: لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء، ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم فقال المقوقس لمن حوله: أجيبونى وأطيعوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين[1]

---

(١) راجع ابن عبد الحكم (ص ٥٩ — ٦٣) والمقريزى (ج ٢ ص ٢٩٠ — ٢٩٣)

رجع المقوقس وأصحابه إلى الحصن حيث عقد اجتماعا يعرض عليه حالهم وحال المسلمين إزاءهم، فأبوا أن يذعنوا لسلطان العرب وخالفوا المقوقس وقبحوا رأيه وعولوا على مواصلة القتال .

ومن هنا ظهر الخلاف بين روايات المؤرخين ظهوراً بيناً بحيث يصعب أن تقف على ما كان بين المسلمين والروم قبل أن يعقد المقوقس مع عمرو الصلح ويكتب بذلك إلى هرقل .

(١) ذكر ابن عبد الحكم والمقريزى : أن شروط عمرو قد رفضت فألح المسلمون عند ذلك بالقتال حتى ظفروا بمن في القصر وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . ولما رأى المحاصرون ذلك قبلوا ما كان قد حملهم عليه المقوقس وأذعنوا بالجزية[1]

(٢) وقد ذكر السيوطي : أنه بعد انصراف عبادة بن الصامت نصح المقوقس لأصحابه أن يعملوا برأيه فيؤدوا الجزية للعرب فرضوا بذلك وطلب المقوقس الاجتماع بعمرو وبعض أصحابه فاجتمعوا واصطلحوا على أن يكتب بذلك لملك الروم فان قبل ذلك ورضيه أجازوه، وإلا رجعوا إلى ما كانوا عليه ولما رفض هرقل الصلح لم ينقض المقوقس عهده .

(٣) واتفق أبو المحاسن مع ابن عبد الحكم والمقريزى، ولكنه زاد على أن المقوقس أذعن للصلح عن نفسه وعن القبط معهُ ، ولكنهم رفضوا ذلك فألح عليهم المسلمون بالقتال حتى هزموهم واستولوا على الحصن وأرغموهم على دفع الجزية .

(٤) وذكر ياقوت في معجمه ما ذكره السيوطى وزاد عليه : أن اجتماع المقوقس وعبادة كان بعد استيلاء العرب على الحصن .

وبالرغم من تناقض هذه الأقوال فاننا نقف منها على أربعة أمور :

(١) أن الاجتماع حصل بالفعل وقت فيضان النيل فى شهر اكتوبر :

---

(٢) ذكر مؤرخو العرب أن الحصار انتهى الى هذا الحد وأن المسلمين استولوا على الحصن، وأن للمقوقس أبرم شروط الصلح مع عمرو نفسه عن القبط، وهو يخالف ما ذكره بطلر (ص ٢٦٤) أن هرقل استدعى المقوقس إلى القسطنطينية حيث أنبه واتهمه بالخيانة ونفاه وهدده بالقتل

(٢) وأنه أدّى إلى الرفض واستئناف القتال :

(٣) وأن القتال كان وبالاً على الروم فغيروا رأيهم :

(٤) وأن معاهدة الصلح دونت بالفعل وأن تنفيذها أرجىء الى ما بعد موافقة الامبراطور .

يستنتج مما تقدم أن ما ذكره ابن عبد الحكم والمقريزى وأبو المحاسن ان فتح حصن بابليون كان عقب رفض الروم شروط الصلح مباشرة خطأ محض . لانه لم يكن قد انقضى على الحصار إلاَّ شهر واحد (أعنى زمن إرتفاع النيل) وقد اتفق المؤرخون على أن الحصار دام سبعة أشهر فلا يعقل أن يكون استيلاء العرب على الحصن إلاَّ وقت انخفاض النيل

(ح) معاهدة الصلح بين عمرو والمقوقس :

وإنا ذاكرون ماورد فى معاهدة الصلح بين عمرو والمقوقس نقلاً عن الخطط للمقريزى (ج ١ ص ٢٩٢) :

إصطلح عمرو والمقوقس على أن يفرض لهم (للمسلمين) على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران على كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شىء ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا تعرض لهم فى شىء منها .

وأحصوا عدد القبط يومئذ ممن بلغ الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس (ستة ملايين) فكانت فريضتهم يومئذ إثنى عشر ألف ألف دينار (إثنى عشر مليونًا) [١]

---

(١) أما قول أبى المحاسن (ج ١ ص ١٩) أن عدد من فرضت عليهم الجزية من القبط بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف نفس فكانت فريضتهم إثنى عشر ألف دينار فقول مردود . لان القبط كانوا كما لا يخفى يكونون السواد الاعظم من السكان

الباب العمومى لحصن بابليون وهو الباب الذى خرج منه المقوقس

رسم محمد افندى يوسف مهندس بتنظيم مصر

ولا يعقل أن يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين . ولو كان عدد من بلغ الحلم ربع سكان المصريين ، للزم أن يكون عددهم أربعة وعشرين مليونًا من الأنفس وهو بعيد عن الحقيقة . يدلك على ذلك ما رواه البلاذرى فى « فتوح البلدان » جبى عمرو بن العاص خراج مصر وجزيتها ألفى ألف . وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح (فى خلافة عثمان) أربعة آلاف ألف . فقال عثمان لعمرو : ان اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها . فقال عمرو : ذلك لأنكم أعجفتموها

والذى يمكن أن يفهم أن الاثنى عشر مليونًا انما كانت مجموع الخراج والجزية ، لا الجزية خاصة .

(د) رفض هرقل الصلح واستئناف القتال بين المسلمين والروم :

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ما تعاهدا عليه ، شرط المقوقس للروم على أن يخيروا بين الرضى بما رضى به القبط وبين اللحاق ببلاد الروم ، وكتب الى (هرقل) بما تم عليه الصلح فكتب اليه كتابًا يوبخه فيه على التسليم ويحتقر قوة المسلمين . وكتب بمثل ذلك الى قواد الروم فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم . أما المقوقس فلم يعبأ بقول هرقل بل أقبل على عمرو وأعلمه أنه لم يخرج عما عاقده عليه ، وأن القبط متمون له على ما صالحهم عليه . فطلب منه عمرو أن يضمنوا له الجسرين جميعًا ويقيموا لهم الانزال والضيافة والأسواق والجسوز بين الفسطاط والاسكندرية ، وصارت لهم القبط أعوانًا (ابن عبد الحكم ص ٦٤) وقد عد مؤرخو الفرنج أن هذا العمل خيانة من المقوقس ، ولكن اذا ثبت لنا أن جند الروم قد بلغوا من الضعف بحيث لم يتمكنوا من رد العرب وهم عصبة قليلة فلم يمكنهم التغلب عليهم ، وقد دوخوا الفرس وقهروا هرقل ، وقد سئم المصريون حكم الروم لظلمهم وعسفهم وبلغهم أن المسلمين لم يتعرضوا لأهالى البلاد التى افتتحوها فأطلقوا لهم حرية الفكر والدين . إذا ثبت كل ذلك جاز أن نلتمس له عذراً فيما فعل

والمتأمل لعهد الصلح بين عمرو والمقوقس يرى أنه شمل قبط مصر كلهم، مع أن عمراً لم يفتح بعدُ بقية البلاد التي استعصت عليه في القتال . فهل نقض القبط عهد الصلح ؟ أم حامية الروم في البلاد هي التي ناوأت عمراً العداء ووقفت في وجهه مدة طويلة ؟ والذي يلوح لنا ترجيح الأمر الثاني ، وإذا كان بعض القبط قد اشتركوا مع الروم فلم يشتركوا إلا مرغمين

(ه) اقتحام الحصن :

حال ارتفاعُ مياه النيل دون اقتحام حصن بابليون ولم يكن لدى عمرو من الوسائل ما يكفل له اقتحامه سوى الاعتصام بالصبر ريثما تغيض مياهه . ولم يرد لحامية الحصن من الأنباء ما يخفف عنهم ما كانوا فيه من ضيق وشدة ، إلا أنهم تحملوا مشاق الحصار طويلاً وثابروا على الدفاع بصبر وجلد . وفي شهر مارس سنة ٦٤١ م (٢٠ ه) سمعوا في معسكر المسلمين صياحاً عالياً علموا منه بموت هرقل[1] فسلبهم هذا الحادث المحزن شجاعتهم وحميتهم وهيأ للعرب سبيل الانتصار عليهم . أما اقتحام الحصن فقد كان على يد الزبير بن العوام ، ذلك أنه لما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير بن العوام (على ما رواه ابن عبد الحكم) : إني أهب نفسي لله تعالى وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ، فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام[2] ثم صعد وأمرهم اذا

---

(١) ذكر السيوطي (ج ١ ص ٥٢) وابن عبد الحكم (ص ٩٦) أن هرقل مات سنة ١٦ ه ، وأخرج كل منهما عن الليث بن سعد أنه مات سنة ٢٠ ه ، فكسر الله بموته شوكة الروم . وهذا بعيد لان موت هرقل كان في ١١ فبراير سنة ٦٤١ م (٢٠ ه) ولم يكن العرب في هذا الوقت قد شرعوا في حصار الاسكندرية .

(٢) أجمع المؤرخون كابن عبد الحكم والمقريزي وأبو المحاسن والسيوطي وياقوت على أن الزبير اقتحم الحصن من الموضع الذي كان يعرف بسوق الحمام بعد ذلك . ولكن ليس من السهل أن ندل بالضبط على الموضع الذي وضع الزبير فيه السلم فقال (بطلر) نقلا عن « أوتيخوس » أن سوق الحمام كان جنوبي الحصن . وممن سار على هذا الرأي أيضاً البلاذري . وأضاف اليه أن الزبير أتى من الشمال الى الجانب المقابل : أعني الجنوب ويرى (بطلر) أن هجوم العرب كان من الجنوب الشرقي للحصن حيث لا يزال السور قائماً الى الان . وذكر ياقوت أن هذا السلم كان بسوق وردان وظل باقياً في منزل من المنازل فاختفى عقب احتراق هذا المنزل سنة ٣٩٠ ه (١٠٠٠ م) وروى ابن عبد الحكم أن شرحبيل بن حجية المرادي نصب سلما آخر من ناحية الزمامرة اليوم

سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف ، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفًا من أن ينكسر ، وكبّر الزبير تكبيره فأجابه المسلمون من الخارج ، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا فهربوا ، .وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن ، فلما خاف قائد الروم على نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص الصلح فأجابه عمرو إلى ذلك ، وكان مكثهم على القتال حتى فتح الله عليهم سبعة أشهر[١]

وكان انتهاء أمد الحصار واستيلاء المسلمين على حصن بابليون فى شهر إبريل سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) على ما رواه « بطلر » ، أما كون المقوقس هو الذى عقد الصلح مع عمرو بعد سقوط الحصن وتسليم الحامية بعد سبعة أشهر على ما ذكره مؤرخو العرب فلا يمكن تصديقه ، لأن المقوقس كان إذ ذاك خارج الديار المصرية . وانما يحتمل أن عمراً صالح حامية الروم بعد تسليمها اليه . هكذا قال بطلر وهو بعيد ، اذ صار المقوقس بالصلح مع العرب بعيداً عن أن تناله يد (هرقل) . وكان يجب على عمرو بمقتضى شروط الصلح أن يحميه من كل سوء ، لأنه لم يعتزل الروم إلا بعد أن تحقق لديه أن العرب لا محالة منتصرون عليهم

وقد روى بطلر عن المقريزى (ج ١ ص ٢٩٤) أن المسلمين قتلوا من الروم إثنى عشر ألفاً وثلمائة عقب استيلائهم على الحصن . وهو خطأ ، لأن المقريزى تناول الكلام على عدد جيش عمرو بن العاص وأنه كان خمسة عشر ألفاً عند حصاره لهذا الحصن (أخرج هذا عن يزيد بن أبي حبيب) ، وأخرج عن عبد الرحمن بن سعيد ابن مقلاص أن الذين جرت سهمانهم فى الحصن من المسلمين إثنى عشر ألفاً وثلثمائة بعد من أصيب منهم فى الحصار بالقتل والموت ، اهـ

---

(١) أصبح المقوقس مع العرب بعد شهر واحد من حصار حصن بابليون ولا بد أن تكون الحامية الرومية هى التى صالحت عمراً بخلاف ما ذكره ابن عبد الحكم وغيره

مسير عمرو إلى الاسكندرية واستيلاؤه عليها

(ا) استيلاء عمرو على كوم شريك وسلطيس والكريون :

كانت الاسكندرية عند استيلاء العرب على مصر قصبة الديار المصرية وثانية حواضر الامبراطورية الرومانية الشرقيـة . وقد أيقن امبراطور الروم أن سقوط هذه المدينة فى أيدى العرب يؤدى حتماً إلى زوال سلطانه من مصر زوالاً لا رجوع بعده ، فبعث اليها بالجيوش الجرارة ، واستجاشت الروم وأغلقوا أبواب المدينة وتحصنوا فيها .

وبعد أن استولى عمرو بن العاص على حصن بابليون سار بجيشه إلى الاسكندرية وخرج معهُ رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والاسواق وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم ، فلم يلق عمرو أحداً حتى بلغ (طرنوط) [1] فلقى بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالاً خفيفاً فغلبهم على أمرهم .

روى « بطلر ص ٢٨٣ — ٢٨٤ » أنهُ بعد أن ترك عمرو مدينة (طرنوط) وقعت بين الروم والعرب موقعة هائلة فى مدينـة نقيوس التى قامت على أطلالها قرية شبشير الواقعة الى الشمال والغرب من منوف ، انتصر فيها عمرو على الروم انتصاراً مبيناً . وقد عزا « يوحنا » أن انكسار الروم كان من جرّاء ما أصاب قائدهم من الفزع والهلع حين علم بدنو جند المسلمين ففر مسرعاً الى الاسكندرية وطرح مَن تحت إمرته من الجند سلاحهم وقذفوا بأنفسهم فى الماء فلم يعثروا على قواربهم وقد ولى فيها الملاحون الأدبار حين شعروا بدنو الخطر منهم لينجوا بأنفسهم حتى لحقوا بقراهم . وفى هــذه الأثناء انقض المسلمون على الروم العزل فى الماء ووضعوا السيف فى رقابهم ، وعلى أثر ذلك دخل العرب المدينة بلا مقاومة ، حيث لم يبق من جند الروم على قيد الحياة أحد ،

---

(١) قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه: الطرانة مدينة تذكر كثيراً فى كتب القبط وتعرف فى الكتب القديمة : باسم (طرنوطيس) وسماها ابن حوقل والادريسى ومؤرخوا بطارنة الاسكندرية (طرنوط) وهى واقعة على الشاطىء الغربى لفرع رشيد ومنهـا الى القاهرة نحو ٤٠ ميلا والى الاسكندرية نحو خمسة أيام ، وكان يجرى النيل فى وسطها

وان العرب قتلوا كل من لجأ إلى الكنائس أو صادفوه فى شوارع المدينة رجالاً ونساء وأطفالاً (١)

وهذا محض افتراء لأن العرب لم يعلم عنهم أنهم تعرضوا لأهالى البلاد التى افتتحوها وهم عزل من السلاح غير قادرين على القتال . بل بالعكس كانوا يؤمنونهم على أموالهم وعيالهم فى حين خلودهم إلى السكينة وجنوحهم إلى السلام ورغبتهم فى استتباب الأمن والنظام

وقد ذكر المقريزى (جـ ١ ص ١٦٧) أن أول موضع قوتل فيه عمرو هو (مريوط) مع أن المسافة بين مريوط وطرنوط بعيدة جداً ، ولعل هذا الخلط ناشىء من عدم دراية النساخ بالمواقع الجغرافية

أرسل عمرو بن العاص شريك بن سمى لتعقب جيش الروم المرتد على أعقابه فأخذ يطاردهم حتى أدركهم عند كوم شريك (٢) فأحاطت به الروم ، فلما رأى ذلك شريك ابن سمى أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصدفى فجدَّ فى السير فلم تدركه الروم حتى أتى عمراً فأخبره ، فأقبل بجنده وسمعت به الروم فانصرفت بعد قتال دام بينهم وبين شريك ثلاثة أيام على ما رواه ابن عبد الحكم ، ثم التقى عمرو بالروم بسُلطيس (٣) فهزمهم وبعد مسيرة عشرين ميلاً التقى بالروم فى الكريون (٤) وكانت آخر حلقة فى سلسلة الحصون التى بين بابليون والاسكندرية .

تحصن « تيودور » فى حصنها المنيع وقاتل المسلمين قتالاً شديداً دام بضعة عشر يوماً ؛ فأيد الله المسلمين بالنصر وولى الفالة الأدبار حتى وصلوا الى الاسكندرية .

---

(١) وقد ذكر (بطلر) ان مؤرخى العرب لم يتعرضوا لذكر هذه الموقعة وأن المصدر الوحيد الذى استقى منه هذه الواقعة مفصلة هو (يوحنا أسقف نقيوس) . وقد بحثنا كثيراً عن كتابه فى المكتبة السلطانية ، وفى مكتبة الجامعة المصرية وفى غيرهما من المكاتب الشهيرة فلم نعثر عليه

(٢) هذه المدينة واقعة على بعد ستة عشر ميلا شمالى طرنوط بمديرية البحيرة بمركز النجيلة .

(٣) هذه المدينة واقعة على بعدستة أميال جنوبى دمنهور فى منتصف المسافة بين كوم شريك والكريون

(٤) ذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال : كانت هى المحطة الاولى التى ينزل فيها السياحون بعد السفر من الاسكندرية . وقدر بعضهم تلك المسافة بمسيرة مرحلة . وقال « كترمير » إن هذه المدينة موجودة الآن وتعرف باسم (كريون)

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص على المقدمة ، وحامل اللواء وردان مولى عمرو ، فأصابت عبد الله جراحات كثيرة فقال : يا وردان لو تقهقرت قليلاً نصيب الروح . فقال وردان : الروح تريد الروح أمامك وليس خلفك فتقدم عبد الله فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال :

أقول لها اذا جشأت وجاشت رُويدكِ تُحمدى أو تستريحى

فرجع الرسول الى عمرو وأخبره بما قاله عبد الله ؛ فقال عمرو : هو ابنى حقًا .

وقد استغرق عمرو فى مسيره إلى الاسكندرية وانتصاره على الروم فى الوقائع التى ذكرناها اثنين وعشرين يومًا على ما رواه « جبون »

(ب) عمرو وفتح الاسكندرية :

كانت مدينة الاسكندرية ثانية عواصم الأمبراطورية الرومانية الشرقية كما قدمنا ، وأول مدينة تجارية فى العالم . لذا عنى الرومان والبطالسة من قبلهم بتحصينها لتقوى على رد غارات المغيرين وصد هجمات الفاتحين ، ولوقوعها على بحر الروم كان يتدفق عليها المدد من امبراطور الروم . ولم يكن لدى عمرو من السفن ما يمنع المدد من أن يصل إلى المدينة . وكانت حامية الروم لاتقل عن خمسين ألف جندى ، مزودين بالمؤن الوفيرة . ولم تكن دربة العرب كافية فى استعمال آلات الحصار (وقد استولوا على كثير منها عقب انتصاراتهم على الروم فى الوقائع السابقة ولم يتمكنوا من نقلها) . لذلك عولوا على الاستمساك بالصبر وعمل الحيلة فى الأعداء حتى يختم الله لهم بالنصر ، كما فعلوا فى حصارهم لدمشق وحلب وقيصرية من مدن الشام . وكانت قوة عمرو ضئيلة اذا قورنت بحامية الروم ، لانه لا بد أن يكون قد فقد من جنده أثناء الوقائع السابقة عدد غير قليل . واذا كانت قوة عمرو قد بلغت خمسة عشر ألفًا وخمسمائة أثناء حصاره لحصن بابليون ، فلم يزد عددهم عن اثنى عشر الفًا وهو على حصار الأسكندرية . وعندنا أن هذا العدد لا يكفى مطلقًا لاقتحام حصون المدنية التى لا ترام ، فلا بد أن يكون جيش عمرو أكثر من هذا العدد بكثير ، سيما إذا ذكرنا أن القبط كانوا للعرب أعوانًا ، وأن عددًا

كبيراً منهم انضم تحت لوائه ومهد له بعضهم سبيل الاستيلاء على المدينة . نزل المسلمون [1] ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة ، فأقاموا شهرين (وكان ذلك فى أوائل يونيه تقريباً) يردون غارات الأعداء .

وقد أخرج ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد أن هرقلاً مات سنة ٢٠ هـ ، وعن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد أن العرب أستأسدت عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية وقاتلوهم قتالاً شديداً ، وكذلك ذكر المقريزى والسيوطى ، وهذا يخالف ما قدمناه من أن موت هرقل كان والمسلمون على حصار بابليون ، لأن العرب لم تكن حين موته (١١ فبراير ٦٤١) قد استولت بعد على الحصن . إذ لم يتم لهم ذلك إلا حوالى أواخر مارس أو أوائل إبريل من تلك السنة . وقد أخرج ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد أنه خرجت من باب الحصن شرذمة من الروم وحملوا على المسلمين فقتلوا رجلاً من مهرة واحتزوا رأسه وانطلقوا به . فأبى المهريون أن يدفنوه إلا برأسه ؛ فقال لهم عمرو بن العاص : تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم ! أحملوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلاً ثم ارموا برأسه يرمونكم برأس صاحبكم . فخرج الروم إليهم فاقتتلوا فقتلوا من الروم رجلاً من بطارقتهم فاحتزوا رأسه ورموا به إلى الروم فرمت الروم برأس المهرى صاحبهم إليهم . فقال عمرو : دونكم الآن فادفنوا صاحبكم .

هذه الحادثة على سذاجتها تبين لنا بداهة عمرو النادرة وقدرته على درء ما عسى أن يؤثر فى جنده أو يشغلهم عن الجهاد من جراء مثل هذه الحادثة التى تشبث فيها المهريون بضرورة دفن صاحبهم مع رأسه . فلهذا عمد عمرو بدهائه وحسن سياسته على تهدئة خواطر أصحابه بهذا الرأى الصائب والنظر الثاقب . ولا غرو فعمرو بن العاص رجل فذ لا يبالى بما يصادفه من العقبات فيعمل على تذليلها وتمهيد السبيل للقضاء عليها

(١) لا يمكن بالضبط تعيين الموضع الذى نزل فيه المسلمون . وقد زعم (بطلر) أنه كان بالشرق أو الجنوب الشرقى ، لأن المدينة محاطة بالبحر من الشمال وبحيرة مريوط من الجنوب وبقناة دراغون من الغرب . وكان نزول عمرو بعيداً عن أسوار المدينة تناديا مما تلحقه بالمسلمين مقذوفات آلات الروم وسهامهم . وقال السيوطى أن نزولهم كان ما بين حلوة إلى قصر فارس .

قال « جيبون ج ٩ ص ٣٧١ » . إن نفوس الأهالي كانت تتوق لخلاص هؤلاء الغالبين وطردهم من بلادهم ، فلم يألوا جهداً في مد يد المعونة إلى عمرو مادية كانت تلك المعونة أو عسكرية وقد لاحظ البطريرق (أو تيخوس) أن شجاعة العرب في القتال كانت كشجاعة الأسود ، (ورد هذا الوصف في تاريخ ابن عبد الحكم) فردوا هجمات الروم المتواصلة وكانوا يقابلون هذه الهجمات بالمثل ، فيحملون على أسوار المدينة وأبراجها . وفي كل هذه الحملات كنت ترى سيف عمرو ولواءه يتلألآن في مقدمة المسلمين . اهـ

بلغ القتال ذات يوم أشده بين الفريقين حتى اقتحم المسلمون الحصن . وقاتلوا الروم فيه إلا أن هؤلاء حملوا عليهم (على المسلمين) حملة منكرة فأخرجوهم من الحصن إلا أربعة بينهم عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد ، فالتجأوا الى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فأمر الروم رجلاً منهم يكلمهم بالعربية فقال لهم : قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم ، فامتنعوا عليهم ثم قال لهم : إن في أيدي أصحابكم منا رجالاً أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادي بكم أصحابنا ولا نقتلكم ، فأبوا عليهم ، فلما رأى الرومي ذلك منهم قال لهم : هل لكم الى خصلة وهي نصف ، إن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم

فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه وتداعوا إلى البراز . فبرز رجل من الروم وقد وثقوا بنجدته وشدته . وأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال : ما هذا تخطئ مرتين ، تشذ من أصحابك وأنت أمير وإنما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك حتى تبارز وتتعرض للقتل ؟ فإن قتلت كان ذلك بلاءاً على أصحابك . مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله . فقال عمرو : دونك فربما فرجها الله بك . فبرز مسلمة للرومي فأعانه الله عليه فقتله ، فوفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه فخرجوا ولا يدري الروم أن عمراً فيهم حتى بلغهم ذلك فأسفوا كل الأسف على ما فاتهم.[1] اهـ بتصرف

(١) وقد ذكر « أبرفنج » أن عمرو بن العاص لما وقع أسيراً في الاسكندرية وقف بين يدي حـ كمها فنسي عمرو الحالة التي كان فيها وتكلم كلاماً يدل على الشجاعة وسمو المركز ، فاشتبه فيه الحاكم

هكذا ذكر ابن عبد الحكم والمقريزى ، ونحن نشك فى صحة هذه الحدثة ، بل نقول إنه يستحيل أن تكون صحيحة وإنما هى أساطير نشأت بعد الفتح تمجيداً للفاتحين وقادتهم

ظل عمرو على حصار الاسكندرية أربعة عشر شهراً [١] فأقلق هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وساورتهُ الريب فى سبب هذا الابطاء ، فبعث لعمرو ابن العاص كتاباً يلومه فيه ويأمره أن يقرأه على المسلمين ليستنهض بذلك هممهم ويحضهم على القتال ويرغبهم فى الصبر وأن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً . فقرأ عمرو الكتاب وعقد لعبادة بن الصامت وولاّه قتال الروم ، ففتح الله على يديه الاسكندرية وهزم الروم براً وبحراً

وكان فتح الاسكندرية عنوة فجعلهم عمرو ذمة على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم .

وقد أخرج المقريزى عن ابن لهيعة أن عمراً جبى جزية الاسكندرية ستمائة ألف دينار (٦٠٠,٠٠٠) لأنه وجد ثلثمائة ألف من أهل الذمة فقدر عليهم دينارين ، فكانت مصر صلحاً كلها بفريضة دينارين على كل رجل [٢]

قال (بطلر) : والذى عقد صلح الاسكندرية هو المقوقس فقد عاد إلى مصر من

وأمر بقتله وكان وردان بجانبه فصفعه على وجنته وقال له : صه أيها الكلب لا تتكلم أمام رؤسائك ، وهمّ مسلمة بالكلام وقال للحاكم : ان الخليفة بعث لعمرو بن العاص يأمره بالكف عن الحصار ومصالحة الروم ، وطلب من الحاكم أن يتوسط بينه وبين عمرو فخلى سبيله

(١) روى الكندى (ص ٩) أن الحصار دام ثلاثة أشهر ، وعن الليث أنه دام ستة أشهر ، وقال المقريزى (ج ١ ص ١٦٥) وابن عبد الحكم (ص ٧٢) والسيوطى (ج ١ ص ٥٣) وجيبون (م ٩ ص ٢٧٢) وآيرفنج (ص ١١١) أن حصار المسلمين دام أربعة عشر شهراً . وقال البلاذرى (ص ٢٨٨) إنه دام ثلاثة أشهر . ونحن نرجح أن الحصار دام أربعة عشر شهراً ، لانه لا يعقل أن يظل حصار المسلمين لهذه المدينة ذات الحصون المنيعة والمؤن الوفيرة والمواصلات مع الخارج ثلاثة أشهر أو ستة ، مع أن المؤرخين أجمعوا أن قتال الروم بالاسكندرية كان أشد قتال

(٢) ذكر المقريزى أن عمراً لما فتح الاسكندرية كتب الى عمر بن الخطاب أن بها أربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهى للملوك واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الاخضر وسبعين الف يهودى ، وكان بالاسكندرية مائتا الف من الروم

منفاد بعـد موت هرقل . واليك هذه الشروط على ما رواه « بطلر » عن « يوحنا أسقف تقيوس » :

(١) دفع من فرضت عليهم الجزية دينارين كل سنة .

(٢) المهادنة أحد عشر شهراً تنتهى فى ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢ م[١]

(٣) وعلى العرب الاحتفاظ بمراكزهم أثناء أمد المدنة وأن لا يباشروا أعمالاً حربية ضد الاسكندرية . وعلى الجنود الرومية أن تكف عن الأعمال العدائية .

(٤) أن تبحر حامية الاسكندرية وكل الجيوش التى بها وأن يحملوا معهم كل ما يملكون من أموال وأمتعة ، وعلى الجنود الذين يرحلون عن مصر براً أن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم

(٥) وأن لا يعود أو يحاول استرداد مصر جيشٌ رومى .

(٦) وأن لا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء وأن لا يتداخلوا بأى حال فى أمور المسيحيين .

(٧) وأن يبقى اليهود فى الاسكندرية .

(٨) وأن تكون لدى المسلمين من الروم ١٥٠ من العسكريين و ٥٠ من المدنيين بمثابة رهنية لتنفيذ المعاهدة .

والفقرة الأولى مؤداها إعطاء الأمان على أرواحهم وأموالهم وكنائسهم وأن تطلق لهم حرية الدين :

وهؤلاء هم أهل الذمة[٢]

ومن الغريب أن ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين المعدودين قد ذكروا أنه قتل من المسلمين وهم على حصار الاسكندرية إلى أن فتحت ، إثنان وعشرون مقاتلاً ،

---

(١) والظاهر أن هذه الهدنة كما قال ابن الاثير كانت إلى أن يرد كتاب عمر باقرار شروط الصلح بين عمرو والمقوقس

(٢) وكانت هناك قرى ناصرت الروم على العرب وهى بلهيب وسلطيس وسخا وقرطيا ، فسبوا أهلها وفرقت سباياهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب الى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة .

وهو يخالف ما ذكره « جبون » أنه فقد من المسلمين ثلاثة وعشرون ألفاً . وعندنا أن كلا العددين مبالغ فيه . لأنه لا يعقل أن يفقد المسلمون اثنين وعشرين مقاتلاً وهم على حصار الاسكندرية ذات الحصون المنيعة والأبراج العديدة التي كانت تصليهم ناراً[1] حامية مع طول أمد الحصار ، وهو شيء قليل جداً يزيد عليه عدد من يموت حتف أنفه من الجيش أضعافاً كثيرة .

ولا يمكن أن نسلم الرأي القائل بأن المسلمين قد فقدوا ثلاثة وعشرين ألفاً ، لأن جند عمرو عند شروعه في حصار المدينة لم يبلغ هذا العدد

هكذا تم لعمرو بن العاص فتح الاسكندرية أغنى مدن العالم وأوفرها ثروة وأوسعها تجارة ، وأخرج الروم منها أذلة وردهم على أعقابهم حين حدثتهم أنفسهم باسترددادها .

ولا يسعنا إلا الاقرار له بالفضل والترنم بالثناء عليه لما حازه من الانتصار المبين ، فزال سلطان الروم في هذه الديار على يديه ، فأذعن أهلها بالطاعة ودان السواد الأعظم منهم بالاسلام على مر السنين وتوالي الأجيال .

(د) عمرو ونسبة حريق مكتبة الاسكندرية اليه :

لغط بعض المتأخرين من المؤرخين في مسألة إحراق مكتبة الاسكندرية الشهيرة وناقش هذا الخبر كثير من علماء الافرنج مثل « جبون » و « بطلر » و « سديو » و « جوستاف ليبون » وغيرهم فلم يمكنهم الجزم بأن عمرو بن العاص هو الذي أحرقها حقيقة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب كما زعم بعضهم ، بل ارتابوا في صحة هذه الدعوى التي تنافي التقاليد الاسلامية ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الاسلامي مثل « أوتيخوس » الذي وصف فتح الاسكندرية بأسهاب ، فلم يرد لهذا الخبر ذكر البتة في تواريخهم . والذي يدل على اختلاق هذا الخبر أيضاً أنه لم يرد في تواريخ المتقدمين كالطبري والكندي واليعقوبي والبلاذري وابن عبد الحكم ، ولا عمن أخذ عنهم من المتأخرين كالمقريزي والسيوطي . لذلك طرحت هذه الأقوال الآن جانباً لأنها ليست قائمة على أساس متين .

(١) هذه العبارة كناية عن شدة الحرب .

وأول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية إلى عمرو بن العاص عبد اللطيف البغدادي الذي توفى سنة ١٢٣١ م، بخلاف ما ذكره المؤرخون المحدثون أن أبا الفرج الملطي⁽¹⁾ كان أول من ذكر هذه الحادثة، لأنه عاش من سنة ١٢٣٦ الى سنة ١٢٨٦ ب. م: أي بعد عبد اللطيف البغدادي، أما ابو الفرج فقد نسب هذا الحريق إلى عمرو فى كتابه « مختصر الدول » وتناقل هذه المسألة عنه كتاب الافرنج إلى هذه الغاية.

وإليك رواية أبي الفرج عن كيفية حريق هذه المكتبة على يد عمرو بن العاص. قال:

كان فى وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى « يوحنا النحوى » كان قسيساً قبطياً من أهل الاسكندرية، وفى هذا الزمان إشتهر بين الاسلاميين بيحيي المعروف عندنا (بغرماطيقوس) أي النحوى. وكان اسكندرياً يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة (ساورى). ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث.

---

(١) هو غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى: ولد سنة ١٢٢٦ م، وكانت ولادته فى مدينة ملطية قاعدة أرمينية الصغرى، جدّ من صغره فى الحفظ وأقبل على ارتشاف العلم فدرس أولا اليونانية والسريانية والعربية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت. فرّ به والده إلى انطاكية سنة ١٢٤٣ م فاختار أبو الفرج هنالك طريقة الزهد والنسك وانفرد فى مغارة بالبرية. ولم يلبث غريغوريوس برهة فى المغارة حتى شخص إلى طرابلس الشام وأكمل قراءة البيان والطب مع رفيق له يسمى صليبا. وفى تلك الاثناء استدعاه البطريرك أغناطيوس سابا إلى انطاكية ورقاه فى العشرين من سنه الى أسقفية جوباس من أعمال ملطية، ونصب رفيقه أسقفاً على كنيسة عكاء. وما زال يرتقى فى المناصب الكبرى حتى كانت سنة ١٢٦٤ م فانتخبه البطريرك أغناطيوس الثالث مغريانا (مغريان كلمة سريانية معناها المثمر. وكان منصب المفريان عند اليعاقبة من أكبر المناصب بعد البطريركية وهو بمقام كبير رؤساء الاساقفة) على جهات الشرق أي نواحي ما بين النهرين الشرقية والعراق العجمى، فقام بمهام منصبه وأتى فى مفريانيته أعمالا خطيرة وآثاراً مشكورة. وعمّر أبو الفرج ستين سنة وتوفى سنة ١٢٨٦ م وكان ابن العبرى رجل كد وعمل ولم تنقطع حياته كلها عن المطالعة والتأليف. فأنه ألف ما يزيد على الثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية فى الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها. أما تأليفه لكتاب «تاريخ الدول» فأنه نقله من السريانية إلى العربية فى أواخر حياته وضمنه أموراً كثيرة لا توجد فى المطول السريانى، ولا سيما فيما يتعلق بدولة الاسلام والمغول وتراجم العلماء والاطباء. اهـ بايجاز عن كتاب مختصر الدول من: ح. د. هـ. و. (موجود بالمكتبة السلطانية نمرة ١٢٢٤ قسم التاريخ)

فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه فلم يرجع فأسقطوه من منزلته، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية. ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ماهاله ففتن به. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه، وكان لا يفارقه ثم قال له يحيي يوماً: إنك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها. فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به. فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية. فقال له عمرو: لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيي، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله، فلا حاجة اليه فتقدم باعدامها. فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية وإحراقها في مواقدها. فاستنفدت في ستة أشهر، فاسمع ما جرى واعجب. اهـ

وإذا حللنا حكاية أبي الفرج تحليلاً دقيقاً وجدناها عبارة عن محض اختلاق وافتراء لا أساس لهما. وقد فندها كل من «جبون» و «بطلر» و «سديُو» وكذلك شبلي أفندي النعماني و «چوستاف ليبون» وغيرهم فقال «جبون» في تاريخه:

بعد ما نقل كتاب أبي الفرج إلى اللاتينية وتناقل خبر تلك المكتبة الكتاب تأسفوا كلهم لضياع كثير من العلم والأدب. وأما أنا (يعني نفسه) فأني شديد الميل إلى إنكار الحقيقة وما ترتب عليها من النتائج. والغريب أن هذه الرواية يذكرها رجل من أطراف بلاد مادي (الفرس) بعد فتح الأسكندرية بستمائة سنة، ولا يكتبها مؤرخان مسيحيان من مصر وأقدمهم البطريرق «أوتيخوس» الذي أسهب في في فتح الأسكندرية، على أن تعاليم الأسلام تخالف هذه الرواية، إذ ترمي إلى عدم

التعرض للكتب الدينيـة اليهودية والنصرانية المأخوذة فى الحرب فلا يجوز إحراقها . وأما كتب الفلسفة والطب والتاريخ والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فأنه يجوز أن ينتفع المسلمون بها . ولا أرى داعياً لتكرار ما حل بمكتبة الاسكندرية وما أصابها من من الحريق عند ما كان « يوليوس قيصر » محاصراً بالاسكندرية (سنة ٤٧ ق . م) وما أضمره النصارى من الكراهية للوثنيين فلم تأل (النصارى) جهداً فى استئصال الوثنية من ديار مصر . ولكن إذا تدرجنا من زمن أنطونين إلى عهد طيودوس علمنا من سلسلة الشواهد العديدة أن القصر الملكى وهيكل (سيرابيس) لم يكونا يحويان بعد ذلك الأربعمائة ألف مجلد أو السبعمائة ألف التى عنى بجمعها اللاجوسيون ، وإذا كان ما أحرق من هذه الكتب فى الحمامات من كتب المجادلات الدينية بين الآريوسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة (أى اتباع مذهب خلقدونية) ، فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر . اهـ (جبون ج ٩ ص ٢٧٤ - ٢٧٦)

ولا داعى لاستغراب جبون ذكر أبى الفرج لهذه الرواية لبعـده عن مصر ، وقد ذكرها قبله عبد اللطيف البغدادى الذى توفى سنة ١٢٣١ م . ولا يبعد أن يكون هذا قد رواها أيضاً عن غيره : أعنى أن هذه الحادثة كان لها ذكر من قبله . وغاية ما يقال فى رواية أبى الفرج أنه يظهر فيها شىء من المبالغة والتهويل . أما احتمال إحراق كتب المجادلات الدينية وأنه حصل لخدمة البشر فانه يناقض ما يريد جبون إثباته وهو إنكار الحقيقة وما ترتب عليها من النتائج .

قال حضرة استاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : ولكن متى علمنا أن عبد اللطيف البغدادى الذى كان قبل أبى الفرج الملطى بزمن قليل قد ذكر أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية كانت التبعة عليه دون أبى الفرج ، لإحتمال أن يكون أبو الفرج أخذ هـذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادى الذى رمى بهذه الجملة بغير سلطان أتاه ، ولم يقل لنا من أى تاريخ أخذ ولا من أى مصدر استقى . والظاهر أنه حين علم بأنه كان فى هذا المكان مكتبة عفى الزمان على أثرها ، افترض أن الذى

دمرها إنما هو عمرو بن العاص قائد المسلمين ، وربما شجعه على ذلك أقوال العامة ونحو ذلك فظن الأمر حقيقة واقعة – وعلى الجملة فالحظ الأكبر فى نسبة الأحراق إلى عمرو بأمر عمر واقع على عبد اللطيف لا على أبى الفرج .

وقال العلامة « سديو » : ذكر أبو الفرج (١٢٢٦ – ١٢٨٦ ب . م) وأبو الفداء (١٢٧٣ – ١٣٣١ ب . م) أن مكتبة السيرابيوم الشهيرة إحترقت عقب استيلاء العرب على الاسكندرية . وقد ناقش هذه الرواية كثير من الكتاب ، ويظهر بادى. ذى بدء أن هذه الرواية أخذت فراغاً كبيراً من التاريخ . والمعلوم أن عمراً هو الذى استشار الخليفة فى موضوع تلك المكتبة فأمره بأحراقها . ولم يذكر ذلك أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الاسلامى . وإن صح هـذا الأمر لاقتصر أثره على عدد قليل من الكتب ، لأن المكتبة كان قد احترق بعضها فى عهد القيصر « طيودوس » سنة ٣٩١ م ، ولم يكن فى الاسكندرية من هذه الدار إلا حوائط لم يأمر عمرو بهدمها إلاَّ على أثر هياج السكان (ج ١ ص ١٥٥ – ١٥٦)

وقد طرحت هذه المسألة على بساط البحث فى المجلة العلمية الفرساوية فقال مسيو « لكلرك » : نأسف اذا خالفنا مسيو سديو إذ من المحقق ان هذه المكتبة لم تكن موجودة فى ذلك الوقت (أى وقت الفتح الاسلامى)

وقال الدكتور « جوستاف ليبون » نقلاً عن « لودفيك لالان » الذى ناقش مسألة إحراق مكتبة الاسكندرية مناقشة علمية مختصرة : إن أول مؤلف ذكر حريق العرب لهذه المكتبة هو عبد اللطيف الطبيب العربى البغدادى الذى توفى سنة ١٢٣١ م . أى بعد ٥٩١ سنة من وقوع تلك الحادثة . أما من خصوص حريق مكتبة الاسكندرية المزعوم فانه همجية وعداوة للمدنية منافية لأخلاق العرب على خط مستقيم ، حتى إنه يمكن أن يسأل الإنسان نفسه كيف أن قصة كهذه قبلها منذ زمن طويل كثيرون من الذين يعتد بعلمهم ؟ وقد كذب العلماء هذه القصة فى زمننا مرات كثيرة فلا نرى حاجة فى العودة إليها لتكذيبها . ولا أسهل من الاستشهاد على

ذلك بايراد أقوال كثيرة جلية تثبت أن المسيحيين كانوا أعدموا الكتب الوثنية التى بالاسكندرية قبل العرب بزمن طويل وكسروا كل التماثيل أيضاً ، ويفهم من ذلك انه لم يكن بعد بالاسكندرية ما يحرق . (ص ٢٠٨)

وروى المقريزى فى خططه (ج ١ ص ١٥٩) : ويذكر أن هذا العمود (عمود السوارى) من جملة أعمدة كانت تحمل رواق (أرسطوطاليس) الذى كان يدرس به الحكمة وأنه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بأشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

أما عبد اللطيف البغدادى الذى كان فى الحقيقة أول من ذكر حريق العرب لمكتبة الاسكندرية فقد قال فى كتاب « الأفادة والاعتبار » (ص ٢٨) : ورأيت أيضاً حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح و بعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة ، والأعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها ، وأرى أنه كان الرواق الذى يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التى بناها الأسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بأذن عمر رضى الله عنه .

وقال « أرفانيتاكى » وهـذه الحقيقة (أى حقيقة احراق مكتبة الاسكندرية) مختلف فيها الآن . فقد قرر الكثيرون أن المكتبة الملكية وكذلك مكتبة السيرابيوم كلاهما ما كانتا تنتظر غزو العرب لقصد إفنائها . وفرض هؤلاء أن عدداً كبيراً من الكتب المنسوخة بخط اليد كان قد نقل الى بوزنطية حين حاصر عمرو الاسكندرية .

وذكرت دائرة المعارف الفرنساوية (ج ٣ ص ٦٤٨) أن مجموعة المؤلفات التى كانت بالسيرابيوم قد أحرقها النصارى فى القرن الرابع الميلادى ، أما الكتب التى كانت بالمتحف فقد أهملت وعبثت بها أيدى الترك حين جاءوا الاسكندرية سنة ٨٣٨م فخربوا كل الآثار وتطاولت أيديهم إلى ما كان بالمتحف من الكتب المهجورة المهملة .

وهو كلام لم يقم عليه دليل ولا يؤيده نقل ، ولعله يقصد القائمين بأمر الدولة الطولونية

ومما ذكرنا يعلم أن عمراً وعمر بريئان مما نسب اليهما وأن رواية أبي الفرج (وكذا عبد اللطيف البغدادي الذي مات ولأبي الفرج خمس سنين . ولكنا إذا ألقينا التبعة على أبي الفرج فمن قبيل التساهل لقصد تفنيد روايته التي تحتوي على شيء كثير من التهويل والمبالغة ، لأنها في اعتقادنا عبارة عن أكاذيب وأضاليل) الذي عاش بعد فتح مصر بنحو ستة قرون ولم يسبقهُ اليها أحد من المؤرخين المعاصرين لهذا الفتح ولا ممن أتى بعده إن هي إلا محض افتراء ليس لها أساس من الصحة على الاطلاق ، يدلك على ذلك ما نقلناه عن المتقدمين وما ننقله أيضاً عما ذكره شبلي افندي النعماني في رسالته في الرد على من قال باحراق عمرو لمكتبة الاسكندرية ، وهي تلك الرسالة التي ألفت باللغة الأوردية وترجمت الى الانجليزية ، وكان بودنا لو ظفرنا بالترجمة الانجليزية إلا أننا عثرنا على ما لخصته عنهُ مجلة الهلال في سنتها الثانية : قالت الهلال :

وخلاصة ما أراد اثباته (يعني المؤلف) أن أول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية إلى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج ابن طبيب يهودي إسمه قارون (أهرون) ولد سنة ١٢٢٦ م في ملاطية ... وهو أول كتاب ذكرت فيه مسألة حريق مكتبة الاسكندرية وتناقلها عنه كتاب الافرنج حتى قام المؤرخ (جبون) الانجليزي فانتقد هذا الرأي (وهو الانتقاد الذي تقدم) وأظهر ارتيابه في صحته لعدم وجود الأدلة عليه لأنه كتب بعد فتح الاسكندرية بستمائة سنة ولم يذكره أحد من قبل (وهو يناقض ما قدمناه فانتبه مؤرخو الافرنج من غفلتهم وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول . غير أن المجتهدين منهم في خلع هذه التهم عن الافرنج وإلباسها للعرب عادوا فقالوا : إن هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط وإنما ذكرها المقريزي (وقد قدمنا تأييداً لرأينا أن المقريزي مات بعد أبي الفرج بمدة طويلة) وعبد اللطيف البغدادي وحاجي خليفة من مؤرخي الاسلام حتى قال بعضهم إن ابن خلدون ذكرها أيضاً .

قالت الهلال : ثم أخذ صديقنا (أي المؤلف) في تفنيد هذه الأسانيد فقال : أما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا وكل من اطلع عليه يعلم أن لا ذكر لهذه الحادثة على

الإطلاق . أما المصادر الثلاثة الباقية فأثبت أولاً أنها لا تعتبر ثلاثة مصادر مستقلة ، لأن المقريزى ذكر المكتبة عن عبد اللطيف حرفاً حرفاً ، فيبقى عبد اللطيف وحاجى خليفة .

أما عبارة حاجى خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الاسكندرية وإنما أشار الى أن العرب فى صدر الاسلام لتعلقهم بالوحى وخوفهم من تسلط العلوم الأجنبية على عقولهم كانوا (كما قيل) يحرقون الكتب التى يعثرون عليها فى البلاد التى يفتحونها : فيظهر من ذلك أن عبارة حاجى خليفة لا تفيد ما أرادوه : لأنه إنما يريد الإشارة إلى عدم اعتناء العرب بالعلم . ولكى يؤيد قوله ألمع إلى مسألة حريق الكتب وهو لم يذكرها كأنها حقيقة .

أما عبد اللطيف البغدادى فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السوارى وهذا نص عبارته (وقد سبق أن قدّمناها) فيظهر من نص العبارة أنه ذكر مسألة المكتبة بطريق العرض وكانت أشبه بخرافة تداولها الألسنة فذكرها على علاتها على أن عبارته هذه بجملتها غير صحيحة كما ثبت بالبحث .

ثم أعقب المؤلف هذا التفنيد بالأدلة على عدم امكان احتراق مكتبة الاسكندرية بأمر عمر بن الخطاب أو غيره من الخلفاء أو الأمراء المسلمين وأثبت أنها إنما احترقت قبل الاسلام ، أحرق نصفها (يوليوس) قيصر الرومان ، وأتم على باقيها بطارقة الاسكندرية قبل الاسلام .

ومما يدلك على اختلاق رواية أبى الفرج (ومن تقدمه) ما ذكره (بطلر) إذ حلل هذه الرواية تحليلاً لا يسع القارئ إلا أن يحكم ببراءة عمرو بن العاص مما نسب اليه والاعتراف بأن مكتبة الاسكندرية لا بد أن تكون قد فنيت قبل الفتح الاسلامى بمدة طويلة ؛ فذكر نقلاً عن « أميانوس مارسلينوس » أن السبعمائة ألف مجلد التى كانت تحتوى عليها مكتبة الاسكندرية قد أتلفت اتلافاً تاماً حين حوصر « يوليوس » قيصر الروم بالاسكندرية كما تقدم ، وممن أيد هذا الرأى أوراز يوس[1] حيث اعتقد أيضاً

(١) هو الذى زار الاسكندرية فى القرن الرابع الميلادى ووجد جميع رفوف المكتبة خالية من الكتب كما قدمنا

أن هذه المكتبة قد دمرت فى حريق يوليوس المذكور والأستاذ اسماعيل رأفت بك حيث قال : وقلنا أيضاً انه فى هذا الوقت (أى وقت فتح الاسكندرية) لم تكن دار كتب الاسكندرية موجودة وان قسما كبيراً من قسميها أحرقته جنود « يوليوس قيصر » من غير قصد سنة ٤٧ ق م (كما تقدم أيضاً) وان قسمها الثانى تلاشى كذلك بعد الزمن المذكور بنحو أربعة قرون أى فى سنة ٣٩١ ب . م بأمر الاسقف « تيوفيل » ولا ندهش لهذا الأمر لأسباب أخصها أن الآداب والفلسفة الوثنية كلها كانت منعت وقضى عليها قضاء تاماً طول تلك المدة فى كل مكان حتى أن « جوتنيانوس » أمر باغلاق مدارس أثينا .

وأضاف « بطلر » : « ومن سوء الحظ أن مثل جواب عمر قد ورد أيضاً بخصوص إحراق الكتب فى فارس » . وقد علق الاستاذ « برى » بقوله : « إن شعور المسلمين نحو كتب الوثنيين الفرس قد يختلف اختلافاً تاماً عن شعورهم نحو كتب النصارى إذ كانوا يكرهون أن يتعرضوا لما فيه اسم الله » .

وإذا سلمنا جدلاً بأن إحراق مكتبة الأسكندرية قد حصل فعلاً كما رواه أبو الفرج الذى ذكر أن الكتب قد وضعت فى سلات وزعت على الأربعة آلاف حمام ، وأنها ظلت تسخن مياهها ستة شهور فأن هذا الخبر على ما يظهر لنا عبارة عن اكاذيب وأضاليل لا حقيقة لها أصلا . إذ لو قصد تدمير هذه الكتب حقيقة لأمر باحراقها فى الحال ، ولم يكن عمرو بالرجل الساذج الذى يضع هذه الكتب تحت رحمة أصحاب الحمامات ، فلا يصعب بذلك على « يوحنا » أو أى انسان سواه أن يستولى على قدر عظيم من هذه الكتب بثمن بخس ، ولدى يوحنا وغيره من عشاق الكتب ما يكفى لتحقيق هذه الأمنية وهى انتشال عدد كبير منها من مخالب النيران . على أن ما جاء برواية أبى الفرج من أن هذه الكتب كفت الحمامات سبعة شهور . مما يثير الدهشة والاستغراب فى نفوسنا ، لأنهُ لو قدر لكل حمام مائة مجلد فى اليوم (وهو قليل بصرف النظر عن أن حجم هذه المؤلفات كان صغيراً جداً) لبلغ هذا العدد الذى أحرق فى

ذلك الوقت ٠٠٠ و٠٠٠ و٧٢ مجلد وهو ضعف عدد مجلدات المكتبة بنحو ١٠٣ مرة تقريباً. ويستدل مما ذكرنا أن السبعمائة ألف مجلد لم تكن لتكفى الأربعة آلاف حمام ساعة واحدة لا ستة شهور.

وزاد على ذلك حضرة استاذنا اسماعيل رأفت بك مؤيداً استبعاد وقوع هذا الأمر بقوله « مع أن الكاغد بقطع النظر عن الرق وإن كان يصلح لأيقاد النار ، إلاّ أنه لا يصلح لبقائها متقدة أصلاً[1] !! »

وقد برهن (بطلر) على أن يوحنا النحوى الذى ذكره أبو الفرج فى روايته لم يكن حيًّا يرزق وقت فتح الأسكندرية سنة ٦٤٢ م ، لأن يوحنا هذا كان قد اشترك مع « ديوسقوروس » و « جايوس » و « ساويرس أسقف انطاكية » فى الكتابة ضد مجمع خلقدونية وظلوا حتى تولى جوستنيان (٢٥٧ ب . م) ، ويكون قد عاش بضع سنين فى أوائل القرن السابع الميلادى : أى قبل سنة ٦٤٢م . ولا بد أن يكون قد مات قبل دخول عمرو الاسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة. وذكر أيضاً أن السيرابيوم كانت دمرت سنة ٣٩١ م . (كما قدمنا) وبنى على أنقاضها كنيسة أو جملة كنائس مسيحية . ولم يبق منها إلاَّ حوائط كما ذكر « سديو » . فلا يبعد أن تكون أيدى النصارى قد تطاولت الى الكتب الوثنية فأتلفوها كلها ، وحملوا الكتب العلمية الى القسطنطينية . ولا نستبعد هذا الأمر إذا علمنا أن النصارى قد هشموا هيكل « سرابيس » وأحرقوه فى الحال ولم يتركوا أى حجر من أحجار أشهر وأفخم معبود فى العالم قائماً

ومن هذا نرجح أن الكتب قد التهمتها النيران التى أضرمت لأحراق هذا الهيكل لا أن تكون قد حملت الى القسطنطينية . يؤيد ذلك ما ذكره « اورازيوس » من أنه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب ، وذلك قبل سنة ٤١٤ م ، وهى السنة التى كتب فيها عن زيارته لهذا المكان لا عن إحراق مكتبة الاسكندرية

---

(١) وافق بطلر حضرة الاستاذ فقال : ان معظم الكتب التى كانت بالسيرابيوم كانت من الكاغد الذى كان يفضله القبط كثيراً ، وختم كلامه بقوله : إذا كانت أوامر الخليفة قد حالت دون احراق هذه الكتب ، فماذا حدث إذاً لكل الكتب المنسوخة بخط اليد ؟ واستدل من ذلك على أن هذا الخبر خرافة مضحكة ولا يسع الانسان إلا أن يصغى ويعجب .

وختم « بطلر » كلامه عن حريق مكتبة الأسكندرية فقال : لا أزال أقول إن إحراق العرب لتلك المكتبة غير محتمل جداً لهذا السبب ، لأن العرب لم تدخل الأسكندرية إلاّ بعد استيلائهم عليها بأحد عشر شهراً ، وقد ذكر فى عهد الصلح أنه يجوز للروم أن يحملوا إلى بلادهم كل أمتعتهم ، وفى غضون هذه المدة كان البحر مفتوحاً ولم تكن أمامهم أية صعوبة لحملها إلى بلادهم . وما كان يصعب على يوحنا (بفرض وجوده) وأمثاله أن يقتنوا هذه الكتب قبل أن تقع الأسكندرية نهائياً فى أيدى العرب

لقد أوردنا كثيراً من أقوال المؤرخين بشأن إحراق مكتبة الاسكندرية لكى تثبت بعد فحص هذه الأقوال والآراء إن كان عمرو بن العاص هو الذى أحرقها بأمر الخليفة عمر أو أن هذه المكتبة لم تكن موجودة حين الفتح الأسلامى ، فنرى بعد هذه الأقوال الجلية الكثيرة أنه لم يكن بالأسكندرية ما يحرق وقت الفتح . وعلى هذا لا يسعنا إلاّ تكذيب رواية أبى الفرج الذى نسب هذه التهمة إلى كل من عمرو وعمر وهما منها بريئان . يشهد بذلك ما نذكره من الأدلة القاطعة على دحض رواية أبى الفرج . وإليك هذه الأدلة التى نستنتجها مما مر من الأقوال لنعزز بذلك رأينا بأيجاز فنقول :

(١) عند تحليل رواية أبى الفرج ظهر لنا لأول وهلة أنهـا عبارة عن أكاذيب وأضاليل وأنها أشبه شىء بخرافة طالما نعثر على أمثالها فى أسفار المتقدمين . من ذلك أن كتب هذه المكتبة قد كفت أربعة الآلاف حمام ستة شهور ، وقد أثبتنا أنها لم تكن تكفيها ساعة واحدة

(٢) أما يوحنا الذى ذكره أبو الفرج فقد دلّ « بطلر » بأجلى بيان على أنه لم يكن على قيد الحياة وقت فتح الاسكندرية ، وأنه توفى قبل استيلاء العرب عليها بثلاثين أو أربعين سنة على الأقل

(٣) إن رواية أبى الفرج (وكذا عبد اللطيف) ظهرت بعد مرور نحو ستة قرون على هذه الحادثة المزعومة ، ولو سلمنا جدلاً بصحة هذه الرواية لما مر عليهـا

مؤرخان شهيران معاصران للفتح الاسلامى وهما « أوتيخوس » الذى فصّل خبر فتح الاسكندرية تفصيلاً مسهباً ، وكذلك « يوحنا أسقف نقيوس » وهو مؤرخ عاش أيضاً فى القرن السابع الميلادى وتاريخه عن فتح مصر من أهم المصادر التى يعتمد عليها ويركن إليها ، ولم يذكر هذا الخبر البتة أحد من المؤرخين المتقدمين كالطبرى واليعقوبى والكندى وابن عبد الحكم والبلاذرى ، حتى جاء أبو الفرج (وكذا عبد اللطيف) فذكرها فى القرن الثالث عشر بعد الميلاد : أى بعد ستة قرون

(٤) إن هذه المكتبة قد أصابها الحريق مرتين : مرة فى عهد يوليوس قيصر فأتلف كثيراً مما كان بها من الكتب ، ثم أحرقت أخيراً بتمامها فى حكم القيصر (طيودوس) بأمر الأسقف (تيوفيل) سنة ٣٩١ م بواسطة جماعة من المتعصبين للنصرانية ، ولم يبقوا على هيكل (سيرابيس) وأحرقوا الكتب التى كانت بالسيرابيوم أو نقلوها إلى القسطنطينية

(٥) إن زيارة « أورازيوس » المتقدم الذكر للاسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى تثبت أنه لم يكن لهذه المكتبة وجود قبل دخول العرب فى الاسكندرية بنحو قرن ونصف قرن ، ولا أدل على هذا من قوله إنه وجد رفوف هذه المكتبة خالية من الكتب — وما ذلك إلاَّ لأن المسيحيين كانوا أتلفوها فى نهاية القرن الرابع الميلادى

(٦) إن التعاليم الاسلامية تخالف رواية أبى الفرج (وعبد اللطيف) إذ ترمى إلى عدم التعرض للكتب الدينية اليهودية والنصرانية وانهُ لا يجوز إحراقها . أما غيرها من الكتب العلمية فيجوز أن ينتفع بها المسلمون . ومن هنا يتضح أن هذه الرواية منافية لأخلاق العرب الذين ما كانوا يتعرضون لما فيه ذكر الله .

(٧) وإذ ثبت ان المسيحيين أحرقوا هيكل سيرابيس ، فمن المعقول أن النيران تلتهم ما فيه من الكتب فلا تبقى عليها ولا تذر

(٨) وفى غضون القرون الخامس والسادس والسابع : أى بعد حريق هذه المكتبة لم يرد لها ذكر فى الآداب إذ ذاك .

(٩) ولو كانت مكتبة الاسكندرية لم تزل باقية عند الفتح الإسلامي لما أحجم الروم عن نقلها إلى القسطنطينية ، وقد أجاز لهم عمرو حسب عقد الصلح ، هدنة حمل ما يقدرون عليه من رخيص وغال ، ولديهم من الوقت ما يكفي لتحقيق هذا الغرض .

فنرى أن القول بأن إحراق مكتبة الاسكندرية كان بأمر عمرو بن العاص محض افتراء ، فانه حصل إحراقها مراراً قبل دخول العرب مصر ، والمكتبة القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدى النصارى . ومن المستحيل أن يبقى فى هذه المكتبة مع توالى الحرق عليها والنقل منها ما تصل اليه يد عمرو بالحرق .

٤ — (١) عمرو وتمم الفتح فى مصر :

إستولى عمرو بن العاص على العريش والفرما وبلبيس وأم دنين ، واستولى على هليوبوليس وقصر الشمع ومنا والاهما ، وصالح المقوقس وفرض على المصريين الجزية ثم سار إلى الاسكندرية ، وأخضع فى طريقه كلا من نقيوس وطرنوط وكوم شريك وسلطيس والكريون ، وأقام على حصار الاسكندرية حتى فتحها الله على يديه وفرض على أهلها الجزية كباقى مدن مصر ، وضرب عليهم الضرائب ، فانطفأ سراج الروم من هذه الديار .

ومما ذكرنا يعلم أنه لم تخضع لسلطان عمرو جميع البلاد قاصيها ودانيها . وأن شروط الصلح قد شملت جميع المصريين وأصبحوا بحكم هذه المعاهدة فى حوزة العرب ، إلا أنه كانت لا تزال أمامه مدن لا مندوحة له من الاستيلاء عليها ليتم له بذلك فتح مصر كلها .

أما كون هذه البلاد قد فتحت قبل استيلاء عمرو على بابليون أو بعده ؛ أو بعد حصاره للاسكندرية ، فأمر قد لغط المؤرخون فيه . وكان بودنا أن نتعمق فى البحث حتى نقف على جلية الأمر ، وأى الرأيين أحق أن يتبع ، إلا أننا لم نؤبه لذلك لأن هذه الوقائع ثانوية محضة ، أعنى أنه لم تتوقف عليها أهمية كبرى ، أو أعقبتها نتائج خطيرة . ونذكر بعض هذه الوقائع بإيجاز حتى لا نركب الشطط ، إذ لا تزال هذه أمور أحق بالإسهاب وأولى بالتفصيل وأجدر بالتعمق فى البحث ، نرجئها حتى يأتى حينها فنقول :

روى البلاذرى فى فتوح البلدان (ص ٢٢٤) أن عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد الله بن حذافة السهمى إلى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط ، ووجه خارجة بن حذافة العدوى إلى الفيوم والأشمونين وأخميم والبشرودات[1] وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك .

ووجه عمير بن وهب الجمحى إلى تنيس ودمياط وتونة[2] ودميرة[3] وشطا ودقهلة[4] وبنا[5] وبوصير[6] ففعل مثل ذلك . ووجه عقبة بن عامر الجهنى (ويقال وردان مولاه) إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك . فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج .

الفيوم : قال السيوطى (ج ١ ص ٦٢) : أقامت الفيوم سنة لم يعلم المسلمون بها ولا مكانها حتى أتاهم آت فذكرها لهم ، فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفى فألقى أهل الفيوم بأيديهم من غير قتال :

---

(١) لعلها البشرود (بالتحريك وضم الراء وسكون الواو والدال مهملة) التى ذكرها ياقوت فى معجمة فقال : كورة من كور بطن الريف بمصر من كور أسفل الأرض

(٢) قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه : تونة : هى جزيرة من نواحى مصر من فتوح عمير ابن وهب . وبها جزيرة قرب دميرة .

(٣) قال ياقوت فى معجمه : دميرة (بفتح اوله وكسر ثانيه وياء مثناة من تحته) قرية كبيرة بمصر قرب دمياط وهما دميرتان : احداهما تقابل الأخرى على شاطىء النيل فى طريق من يريد دمياط

(٤) ذكرها ياقوت فى معجمه فقال : دقهلة : بلد بمصر على شعبة من النيل بينها وبين دمياط أربع فراسخ وبينها وبين دميرة ست فراسخ ، ذات سوق وعمارة ويضاف اليها كورة فيقال كورة الدقهلية . وذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال : هى قرية قديمة من مديرية الدقهلية بمركز فارسكورسميت المديرية باسمها

(٥) ذكرها ياقوت فى معجمة فقال : بلدة قديمة بمصر وتضاف اليها كورة من فتوح عمير بن وهب ، قال أبو الحسن المهلبى : من الفسطاط الى بنها ثمانية عشر ميلا والى صنهشت ثمانية أميال وإلى مدينة بنها وهى مدينة جاهلية لها ارتفاع جليل ومنها الى سمنود ميلان

(٦) قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه : بوصير (بكسر الصاد وياء ساكنة وراء) اسم يشترك فيه أربعة بلاد بالديار المصرية فمنها بليدة بكورة السمنودية من الوجه البحرى ومنها (بوصير) الفيوم و (بوصير) الجيزة و (بوصير) البهنسا أما (بوصير) التى بالوجه البحرى فتسمى بنا لقربها من قرية بنا الواقعة على شاطىء النيل الغربى ، وبين بوصير هذه وبنا نحو فرسخين . وهذه هى التى توجه اليها عمير بن وهب وفتحها

دمياط : ذكر المقريزى (ج ١ ص ٢١٣ - ٢١٤) أن الذى وجهه عمرو إلى دمياط هو المقداد بن الأسود ، وكان عليها رجل من أخوال المقوقس يقال له (الهاموك) فامتنع بدمياط واستعد للحرب وحارب المسلمين وقتل ابنه فى الحرب فعاد إلى دمياط وجمع أصحابه فاستشارهم فى أمره ، وكان عنده حكيم قد حضر الشورى فقال : أيها الملك إن جوهر العقل لا قيمة له ، وما استغنى به أحد إلا هداه إلى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك ، وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم تردّ لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد وما لأحد عليهم قدرة ، ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع ، وأن القوم قد أيدوا بالنصر والظفر ، والرأى أن تعقد معهم صلحًا تنال به الأمن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما أنت ا كثر رجالاً من المقوقس ، فلم يعبأ الهاموك بقوله وغضب عليه فقتله . وكان له ابن عاقل وله دار ملاصقة للسور ، فخرج إلى المسلمين فى الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها ، وبرز الهاموك للحرب فلم يشعر بالمسلمين إلا وهم يكبرون على سور المدينة وقد ملكوها .

فلما رأى « شطا » بن الهاموك المسلمين فوق السور لحق بهم ومعه عدة من أصحابه ففتّ ذلك فى عضد أبيه واستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط ، واستخلف المقداد عليها وسيّر بخبر الفتح إلى عمرو بن العاص . اه

البرلس(١) والدميرة(٢) وأشموم طناح(٣) وتنيس(٤) وشطا(٥)

ذكر المقريزى فى خططه (ج ١ ص ٢١٤) : وخرج شطا وقد أسلم إلى البرلس والدميرة وأشموم طناح ، فحشد أهل تلك النواحى وقدم بهم مدداً للمسلمين وعونًا لهم

---

(١) ذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال : البرلس (بضم الموحدة والراء واللام المشددة وبعد سين مهملة) ثغر عظيم من ثغور مصر . ويشتمل خط البرلس على جملة قرى متقاربة واقعة فى الرمال التى بين البرلس وشاطىء البحر والبرلس مدينة كانت قاعدة هذا الخط . وبلاد البرلس الآن من مديرية الغربية

(٢) دميرة واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس . ذكرها ابن دقماق (ج ٥ ص ٧٩) عند كلامه على تنيس ودمياط فقال : قال الحافظ جمال الدين : وبتنيس ودمياط يعمل القماش الرفيع وإن كانت شطا ودبيق ودميرة وتونة وما قاربها من تلك الجزائر يعمل بها الرفيع من القماش . ولا بد أن يكون العرب قد استولوا على هذه المدينة مع تنيس ودمياط .

على عدوهم، وسار بهم لفتح تنيس، فبرز لأهلها وقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل رحمه الله فى المعركة شهيداً بعد ما أنكى فيهم وقتل منهم، فحمل من المعركة ودفن فى مكانه المعروف به خارج دمياط. وكان قتله فى ليلة الجمعة النصف من شعبان، فلذلك صارت تلك الليلة من كل سنة موسماً يجتمع الناس فيها من النواحى عند شطا ويحيونها وهم على ذلك إلى اليوم

وكان على تنيس رجل يقال له « أبو ثور » من العرب المتنصرة، فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون فبرز لهم نحو عشرين ألفاً من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبي ثور فى أيدى المسلمين، وانهزم أصحابه فدخل المسلمون البلد وبنوا كنيستها جامعاً وقسموا الغنائم. اه

أما أبو ثور الذى ذكره المقريزى وابن دقماق وغيرهما فيظهر لنا أنه اسم مختلق. والذى يؤيد ملاحظتنا إدعاؤهم أنه كان من العرب المتنصرة، مع أننا لم نسمع بأن هؤلاء العرب قد اشتركوا مع الروم فى مصر حين الفتح الإسلامى.

ومن الخطل أن نوافق هؤلاء المؤرخين فيما يختص بعدد الجند الذين جمعهم حاكم تنيس. ونرى أنهم ربما بلغوا ألفين لا عشرين ألفاً، وذلك لسببين:

(١): لأن تاريخ فتح مصر لم يدون إلاَّ بعده (الفتح) بقرنين على الأقل.

---

(٣) ذكرها ابن دقاق فقال. اشموم طناح وهى (بضم الالف وسكون الشين المعجمة وضم الميم وسكون الواو وفى آخرها ميم وقيل نون) تعرف بأشموم طناح، وأشموم الرمان. وهى قصبة كورة الدقهلية وهى مدينة ذات حمامات وأسواق وجوامع وفنادق. وهى على خليج النيل الشرقى وهو البحر الذى حفره السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى

(٤) وقد أطنب كل من المقريزى وابن دقاق بذكر تنيس فقال المقريزى كانت تنيس مدينة كبيرة وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء وأكثرهم حاكة. وكان يعمل بها الرفيع من القماش. وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمه غير أوقيتين. وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج الى تفصيل أو خياطة وقيمته الف دينار

(٥) مدينة عند تنيس ودمياط واليها تنسب الثياب الشطوية ويقال إنها عرفت بشطا بن الهاموك. وكانت تعمل كسوة الكعبة بشطا

(٢) : لأننا لم نعثر فى كتب مؤرخي القبط المعاصرين للفتح على ذكر « لأبى ثور » ولا للعشرين ألفاً ، وممن أيد هذا الرأى أيضاً الدكتور « بطلر »

أما « شطا » الذى سميت المدينة باسمه فقد نقل « بطلر » عن « يوحنا أسقف نقيوس » أن مدينة شطا كانت معروفة قبل الفتح الاسلامى بزمن طويل ، ومع ذلك فلا يبعد أن يكون من قواد القبط اعتنق الاسلام وحارب فى صف العرب بحمية و بسالة.

هل فتحت مصر صلحاً أو عنوة

إختلف المؤرخون فى فتح مصر فقال قوم إنها فتحت صلحاً وقال آخرون إنما فتحت عنوة . ولم تؤد أقوالهم إلى نتيجة ما سوى سرد بعض الروايات وعدم تمحيصها لكى يهتدوا بذلك إلى رأى قاطع فى هذا الموضوع

وقد قدمنا شروط الصلح التى كانت بين عمرو والمقوقس . ولنذكر الآن بعض هذه الروايات المتباينة المتناقضة بأيجاز ليتسنى لنا بذلك ترجيح أحد القولين : أعنى كونها فتحت صلحاً أو عنوة .

والظاهر أن اضطراب المؤرخين راجع إلى أمور يعلم منها أن بعض مدن مصر فتح صلحاً والبعض الآخر فتح عنوة و إليك هذه الأمور :

١ — من الشروط التى كانت بين عمرو والمقوقس أثناء فيضان النيل (أى حين جنح المقوقس للصلح ودفع الجزية) يتضح أن عمراً عامل أهل مصر معاملة من فتحت بلادهم صلحاً . ولكن نظراً لرفض « هرقل » هذه الشروط واستمرار الروم فى الدفاع عن الحصن حتى فتحه العرب عنوة ، يتضح أن هذا الفتح كان عنوة . ولكن إذا لاحظنا أن الحامية الرومية سلمت بشروط الصلح السابقة الذكر ، وأن عمراً أجابهم الى ذلك يتبين أن الحصن فتح صلحاً وأن هذا العهد شمل جميع المصريين ممن فرضت عليهم الجزية

٢ — وأما ما يتعلق بمدينة الأسكندرية فيتضح أنها سلمت قبل أن يتم لعمرو

الاستيلاء على المدينة ، وأبى عمرو أن يقسم الغنائم ويسبي أهلها فضرب عليهم الجزية . ولما نقض الروم الصلح عاد عمرو من بابليون واستردها ، وبذلك فتحها عنوة وأراد أن يجعل أموالهم فيئاً للمسلمين فأبى عليه عمر وأمره أن تكون كسائر بلاد مصر . فأحصى من دخلوا في عهد الصلح من الأهالي فكانوا ثلثمائة ألف فضربت عليهم الجزية وأمروا بدفع الخراج .

٣ — على أن عمراً قد استولى بالفعل على قرى بلهيب[1] وسلطيس وقرطيا وغيرها وسبى أهلها لأنهم ظاهروا الروم على العرب وفرقت سباياهم حتى وصلت المدينة، فردهم عمر وصيرهم أهل ذمة .

وإذا أنعمنا النظر في هذه النتائج الغريبة لفتح مصر ومبلغ الاختلاف في روايات المؤرخين، جاز لنا أن نؤكد أن هؤلاء المؤرخين كانوا معذورين في اعتقاداتهم وما وصلت إليه أفكارهم من الاضطراب والتشويش والتعقيد .

ولعلّ ذلك راجع لبقاء العربي مدة قرنين مكتفياً بسرد روايات الفتوح الأسلامية شفوياً وعدم تدوين ما وقع من الحوادث كتابةً ليكون أدعى للبقاء ، وما كنا نقرأ أن زيداً الراوية روى عن خالد مثلاً أن مصر فتحت صلحاً أو عنوة .

فمن هنا جاء التناقض وتولد الاختلاف ، وضاعت أكثر حقائق التاريخ وأصبح البحث عن هذه الحقائق شاقاً على النفس غير محتمل الوصول اليها إلاّ في القليل النادر. من ذلك أن بعض المؤرخين روى أن حصن بابليون فتح صلحاً ، وذكر بعضهم أنه فتح عنوة . وكذلك الحال فيما يتعلق بفتح الاسكندرية .

ومن المؤرخين الذين اتفقوا على أن مصر فتحت صلحاً البلاذري (ص ٢٣٣) عن عبدالله بن عمرو بن العاص . وابن عبد الحكم (ص ٧٦) عن الليث فقال إن مصر فتحت كلها صلحاً ما عدا الاسكندرية فانها فتحت عنوة ، وعن هشام بن اسحق العامري أن شروط الصلح بين عمرو بن العاص وأهل مصر ستة وهي :

---

(١) قال ياقوت في معجمه . بلهيب من قرى مصر كان عمرو بن العاص حين قدم مصر صالح أهل بلهيب على الخراج والجزية . إلا أن بلهيب وخيس وسلطيس وقرطيا وسخا فانها أعانت الروم على المسلمين

(١) لا يخرجون من ديارهم

(٢) ولا تُنتزع نساؤهم

(٣) ولا كنوزهم

(٤) ولا أراضيهم

(٥) ولا يزاد عليهم

(٦) ويُدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم(١)

فصارت الأرض بذلك أرض خراج ، على أن يكون خراجهم وما صالح عليه القبط كله قوة للمسلمين ، ولا يجعل المسلمون فيئاً ولا عبيداً ففعلوا . (ابن عبد الحكم ص ٧٦ — ٧٩ . والمقريزى ج ١ ص ٢٩٤) .

ومن المؤرخين الذين ذكروا ان مصر فتحت عنوة ، المقريزى عن ابن لهيعة ، وعن زيد بن أسلم أنه كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين من عاهدوه فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد ؛ وابن عبد الحكم عن يحيى بن عبد الله بن بكير أنه خرج أبو مسلمة بن عبد الرحمن يريد الاسكندرية فى سفينة فاحتاج الى رجل يجذف فتسخر رجلاً من القبط فكلم فى ذلك فقال : انما هم بمنزلة العبيد إن احتجنا اليهم .

وقد ذكر المقريزى أن عمرو بن العاص قال : لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد . وعن يحيى بن بكير أن مصر كان فتح بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعاً ذمة .

ولكن اذا عرفنا أن مصر فتحت بالسيف واستولى عليها العرب بعد أن طردوا الروم منها وهم المسلطون عليها ، فلا نحجم عن القول بأنها فتحت عنوة ، وان المؤرخين الذين ساروا على هذا الرأى قد نظروا الى الفتح من الوجهة العسكرية وهو صحيح بدليل قول عمرو بن العاص « لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد » والظاهر أن الذين يميلون الى القول بأن مصر فتحت عنوة يستدلون بما كان

---

(١) والشرط السادس لم يذكره ابن عبد الحكم ولكنه ورد فى كتاب معاوية لعقبة بن أبى سفيان حين سأله هذا أرضاً يسترفق فيها عند قرية عقبة

من الحرب بالفرما وبابيس وأم دنين والاسكندرية ، وكون هذه البلاد لم تفتح إلا بعد جهاد ونضال .

ولكن لا نغفل نص الصلح الذى كان بين عمرو والمقوقس وهو متداول معروف رواه أكثر المؤرخين المعدودين كالطبرى وابن عبد الحكم والبلاذرى والمقريزى والمسعودى ، ومنه يعلم ان عمراً أبى أن يقسم الغنائم قبل أن يكتب لعمر بن الخطاب ، فكتب اليه عمر يأمره باجابة المصريين إلى دفع الجزية والخراج .

وهذا يدل على سياسة رشيدة من جانب كل من عمر وعمرو ، الذى لا بد أن يكون قد اقترح على أمير المؤمنين أن يعامل المصريين معاملة من فتحت بلادهم صلحاً لكى يتألف بذلك قلوبهم . وهذا يحدث كثيراً عقب فتوح البلاد فيتجاوز الفاتحون عن بعض أمور فى مصلحة البلاد المحكومة لكى يستقر بذلك ملكهم على أهون سبيل . يدلك على ذلك قول عمر لعمرو « واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خمس وانما هى أرض صلح وما فيها للمسلمين فيء »

أما كون أبى مسلمة بن عبد الرحمن قد تسخر رجلاً من القبط يجذف له وأنهُ اعتبر القبط كالعبيد ، فان هذه الحادثة الفردية لا تدل بأى حال على أن مصر فتحت عنوة .

ولا يمكننا أن نسلّم بذلك من أجل حادثة كهذه ، إذ قد يكون هذا القبطى قد تطوع للقيام بما طلب منه عن طيبة خاطر ، وأن عمل هذا الرجل لا يصلح أن يكون حجة على أمة بأسرها ، ولا ناقضاً لأقوال الآخرين الذين ذكروا أن أهل مصر إنما هم أهل صلح .

أما قول يحيى بن خالد أن مصر فُتح بعضها صلحاً وبعضها عنوة وأن عمر جعلها كلها ذمة ، فهو القول الذى نميل إليهِ ونرغب فى ترجيحه ، وهذا ما يمكن أن نستنبطه بعد بحث وتمحيص أقوال المؤرخين المتباينة ، وما دام عمر رضى الله عنه قد أمر أن تعامل البلاد جميعها معاملة الصلح فيدفع أهلها الجزية والخراج ، لا أن تكون ملكاً للفاتحين يتصرفون فيها كيف شاءوا فيستولون على أراضيها وأموالها ويسبون نساءها ، فاننا نرجح أن مصر فتحت عنوة ، ولكن عمر عاملها معاملة البلاد التى فتحت صلحاً ليتألّف بذلك قلوب المصريين .

(٥) عمرو وتثبيت الفتح

(١) عمرو وفتح برقة وطرابلس :

لم تقف همة عمرو العاليـة وعزيمته الماضية عند حد القناعة بفتح مملكة الفراعنة وإخراج الروم منها وضياع سلطانهم على يديه ، بل طمح إلى ما هو أبعد غاية : وهى بلاد المغرب . ومما دعاه إلى القيام بهذا العمل شغفه بالفتح ورغبته فى نشر لواء الاسلام وميله إلى القضاء على سلطان الروم من البلاد الواقعة غربى الديار المصرية ، ليأمن على مصر من هجماتهم إذا حدثتهم أنفسهم باستردادها .

فلما فتح عمرو الاسكندرية سار فى جنده يخترق الصحراء حتى بلغ برقة[1] وإقليمها هو حد مصر من الغرب ، وتسمى أنطابلس كما قال ابن دقماق والسيوطى . إفتتحها عمرو وصالح أهلها على الجزية وقدرها ثلاثة عشر ألف (١٣،٠٠٠) دينار يؤدونها إليه ومن هنا يستدل على أنها فتحت صلحاً لا عنوة . وقد أيد رأينا السيوطى (ج ١ ص ٦٣) وابن دقماق (ج ١ ص ١٤) وغيرهما .

ووجه عمرو بن العاص عقبـة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين ، ثم سار عمرو حتى نزل أطرابلس[2] فى سنة ٢٢ للهجرة (يونيه سنة ٦٤٣ م) على ما ذكره البلاذرى (ص ٢٣٣) والكندى (ص ١٠) و بطلر (ص ٤٣٨) ، وكانت حصونها أقوى من حصون برقة وحاميتها أكثر عدداً فامتنعت عن العرب شهراً كاملاً[3] .

---

(١) قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه : إن برقه تسمى فى لغة الروم (بنطاپوليس) يعنى الخمس مدن . لان (بنطا) معناها خمسة و (پوليس) : معناها مدينة . وبرقة واقعة فى صحراء حمراء هى دائمة الرخاء كثيرة الخير . و اكثر ذبائح أهل مصر منها ، ويحمل الى مصر منها العسل والقطران

(٢) ذكرها البلاذرى وابن دقاق (أطرابلس) وذكرها على مبارك باشا (طرابلس) فقال : ومعنى (طرابلس) ثلاث مدن ، فان (طرا) معناها ثلاث و (بلس) معناها مدينة . وقال البكرى : وطرابلس مدينة على البحر لها سور من الحجر وبها جامع وأسواق وحمامات وهى كثيرة الفاكهة .

(٣) ذكر ياقوت أن الحصار دام ثلاثة أشهر وذكر ابن خلدون أنه دام شهراً واحداً ، وقال ابن عبد الحكم انها افتتحت سنة ٢٣ هـ ، وهذا يدل على أنها افتتحت بعد برقة بمدة طويلة اللهم الا اذا كان فتح الأخيرة فى نهاية سنة ٢٢ هـ

ولما أنهك أهلها الجوع وشدة القتال تمكن العرب من الاستيلاء على المدينة من جهة البحر لأنه لم يكن لها سور من جهته ، فغزوا أهل المدينة وجندها بحراً ودخلها عمرو بجنده ، ومن ثم عاد إلى برقة حيث أذعنت لطاعته قبيلة لواته التى كانت تسكن معظم هذه البلاد .

وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين : إنا قد بلغنا أطرابلس و بينها و بين افريقية (تونس) تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل ... فكتب إليه عمر ينهاه عنها و يأمره بالوقوف عند هذا الحد ، فعاد مكرهاً بعد أن استخلف على البلاد عقبة بن نافع الفهرى الذى صار اليه بعد ذلك فتح المغرب(١)

وحسناً فعل أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، لأنه كان أحرص ما يكون على جند المسلمين ، وأمره عمراً بالوقوف عند هذا الحد يدل على حسن سياسته و بعد نظره ، لأن تغلغل عمرو فى جوف تلك الأراضى الواسعة والأقطار الشاسعة بجيشه القليل وعدته الضعيفة قد يستنفد قوته من غير أن يفوز بطائل ، سيما والروم لم يزالوا من القوة بحيث يتمكنون من استرداد مصر والقضاء على حاميتها القليلة فى حين انشغال عمرو بغزو هذه البلاد

فكان من رأى عمر أن يحتفظ بما فى يديه وأن لا يطوح بجنده فى مهاوى التهلكة وفى معامع حروب لا يعلم نتيجتها إلا الله

عمرو وفتح النوبة

لم يكتف عمرو بتأمين مصر من جهة الغرب بل حاول أن يؤمنها من الجهة الوحيدة التى كانت لا تزال مصدر الخوف : وهى جهة الجنوب ، فبعث نافع بن عبد القيس الفهرى (وكان نافع أخا العاص بن وائل لأمه) فدخلت خيلهم أرض النوبة فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً فانصرفوا . ولم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر ووليها عبد الله بن سعد وصالحهم ، وذلك فى سنة ٣١ هـ على أن يؤدوا للمسلمين ثلثمائة وستين رأساً ولوالى البلد أربعين رأساً(٢) اليعقوبى ج ١ ص ١٨٠

(١) فتوح البلدن للبلاذرى (ص ٢٣٣) وتاريخ اليعقوبى (ج ١ ص ٢٣٣)

(٢) أما شروط الصلح التى عقدها المسلمون مع أهالى النوبة فهى كثيرة وقد ترجمها « ستانلى لين پول » فى كتابه « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (ص ٢١ — ٢٢)

(ح) عمرو وانتقاض الروم فى الاسكندرية

على أن الفتح برغم هذا كله لم يستقر لعمرو، فما زال الروم يتطلعون إلى مصر، وما زال فى مصر ناس يتطلعون إلى الروم. وكان انتقاض الروم فى خلافة عثمان بن عفان (١) فى السنة الخامسة والعشرين (٢)

وقد قيل فى سببه أن « طَلَمَا » صاحب إخنا قدم على عمرو فقال أخبرنا ما على أحدنا من الجزية، فأبى عمرو فغضب صاحب إخنا وخرج الى الروم فقدم بهم فهزمهم عمرو وأسر القبطى وأتى به إلى عمرو فأطلقه رغمًا عن إلحاح الناس بقتله، فرضى «طلما» بأداء الجزية وعدّ إطلاقه مكرمة عظيمة من عمرو حتى أنه صرح بأنه لو أتى به إلى ملك الروم لقتله لوقته.

ونحن نرى أن هذا الخبر لا أساس له لأن عمراً لم ينقض عهده مع القبط أو زاد خراجهم، حتى أدى تمسكه بذلك إلى ازدياد النفرة والجفاء بينه وبين عمر.

أما السبب الذى يمكن الجزم بصحته فقد رواه ابن الأثير، وهو أن أهل الاسكندرية كتبوا إلى « قسطنطين » امبراطور الروم يهونون عليه فتح الاسكندرية لقلة ما بها من حامية المسلمين. فتدبر قسطنطين الأمر، ولم يكن جرح الروم قد اندمل من ضياع مصر مصدر ثروة الامبراطور، فأمر بأن تعدّ على جناح السرعة وفى طيّ الكتمان عمارية بحرية لغزو الاسكندرية. وكان الروم فى ذلك الحين لا يزالون سادة البحار، فلم تجرأ أمة من الأمم على مناوأتهم أو منافستهم فى هذا المضمار.

---

(١) بويع عثمان بن عفان رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ٢٣ هـ واستهل المحرم سنة ٢٤ هـ، وفى خلافته نقض الروم صلحهم واعتزل عمرو بن العاص ولاية مصر وتولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح.

(٢) ممن اتفق على هذه السنة البلاذرى (ص ٢٢٨) (وفى قول آخر له سنة ٢٣ هـ) وابن الاثير (ج ٣ ص ٣٩) وأبو المحاسن (ج ١ ص ٨٨) الذى حذا حذو البلاذرى إلا أنه رجح سنة ٢٥. والمقريزى (ج ١ ص ١٦٨) والسيوطى (ج ١ ص ٧٠) واليعقوبى (ج ١ ص ١٨٩) وبطلر (ص ٤٩٦) وستانلى لين پول (ص ٢١)

انتصار عمرو على الروم :

قدم « منويل » الخصى الى الاسكندرية على رأس جيش رومى كبير واستولى عليها ، فزحف عمرو فى طريق الاسكندرية سالكا الطريق التى كان قد سلكها من قبل وضمّ تحت لوائه كثيرين من القبط .

وزحف « منويل » ومعه مَن نقض من أهل الاسكندرية وغيرها من قرى الدلتا وأخذوا يعيثون فى الأرض فساداً ، ينزلون القرى فيشربون خمرها ويأكلون أطعمتها وينهبون كل ما مروا به من دواب ومتاع ونحو ذلك ، فلم يتعرض لهم أهالى تلك القرى لضعفهم حتى وصلوا الى (نقيوس) حيث اشتبكوا مع المسلمين(١) فى القتال فى البر والبحر(٢) وكثر الترامى بالنشاب حتى أصابت فرس عمرو ، فنزل عنه ثم شدّ المسلمون على الروم وقاتلوهم قتال المستميت وما زالوا بهم حتى غلبوهم على أمرهم وانتصروا عليهم انتصاراً مبيناً بحسن قيادة عمرو بن العاص . ولم يقف عمرو عند هذا الحد ، بل تعقّب الفالّة الى الاسكندرية واستردها منهم ووضع فى رقابهم السيف . ثم أوقف رحى الحرب وأمر بأن يبنى فى الموضع الذى رفع فيه السيف مسجد أطلق عليه فيما بعد مسجد الرحمة وقد قتل « منويل » فى هذه الموقعة التى لم تقلّ هولاً عن سابقاتها (٣) .

وقد هدم عمرو سور الاسكندرية وكان قد حلف لئن أظفره الله عليهم ليهدمنّ سورها حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان

---

(١) كان جند المسلمين خمسة عشر ألفاً على ما رواه البلاذرى (ص٢٢٩) ولا شك أن جيش الروم كان أكبر من جيش المسلمين .

(٢) يراد بكلمة « البحر » — القناة التى كانت تمر بمدينة نقيوس .

(٣) زعم كثير من مؤرخى العرب كالمقريزى (ج ١ ص ١٦٧) والسيوطى (ج ١ ص ٧٠) وغيرهما أن عمراً قد ضم إلى المقوقس من أطاعه من القبط . مع أنه قد مات منذ مدة طويلة فخلطوا روايتهم فتكلموا على انتقاض الروم فى ولاية عثمان من حيث يريدون انتقاضهم الاول ، ولعلهم عنوا (بنيامين) الذى كان حقيقة كبير القبط يومئذ فخلطوا بينه وبين المقوقس الذى كان كبير القبط أيضاً فى أثناء فتح مصر منذ بضع سنوات . وقد شك البلاذرى فى بقاء المقوقس الى هذا العهد فقال (ص ٢٢٩) : قيل إن المقوقس اعتزل أهل الاسكندرية حين نقضوا فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الاول . وروى أيضاً أنه كان قد مات قبل هذه الغزاة . فكأنهم أرادوا (بنيامين) من حيث كانوا يريدون المقوقس .

وممن سار على هذا القول أيضاً ، بطلر (ص ٤٧٨ — ٤٨١) وستانلى لين بول (ص ٢١)

الباب الثالث

ولاية عمرو الأولى على مصر وأعماله الإدارية فيها

(١) عمرو ووصف مصر لعمر بن الخطاب

لما تم لعمرو بن العاص فتح مصر أرسل الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتاباً يصفها له فيه و يشرح له السياسة التى سيتخذها فيها .

مصر تربة غبراء[١] وشجرة خضراء،[٢] طولها شهر وعرضها عشر[٣] يكنفها جبل أغبر[٤] ورمل أعفر[٥] يخطُّ وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات[٦] يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان[٧] تظهر به عيون الأرض وينابيعها حتى إذا عجَّ عجاجه[٨] وتعظَّمت أمواجه[٩] لم يكن وصول بعض أهل القرى الى بعض إلاّ فى خفاف القوارب وصغار المراكب، فاذا تكامل فى زيادته نكص[١٠] على عقبه كأول ما بدأ فى شدته وطما فى حدته[١١] فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه[١٢] يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب، حتى اذا أشرق وأشرف[١٣] سقاه من فوقه الندى وغذاه من تحته الثرى فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه[١٤] فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء، واذا هى زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعّال لما يشاء، الذى يصلح هذه البلاد وينمّيها ويقر قاطنها فيها أن لا يقبل قول خسيسها فى رئيسها، وأن لايستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وتراعها، فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق فى المبتدأ والمآل[١٥] اهـ

---

(١) سهلة الانبات (٢) يعنى انها كثيرة الشجر الاخضر (٣) لعله يريد أن الماشى يقطعها طولا فى شهر وعرضاً فى عشرة أيام (٤) يحيط بها جبل ضارب الى السواد (٥) أبيض مائل الى الحمرة أو الصفرة (٦) محمود الذهاب والاياب (٧) يزيد وينقص فى أزمنة معينة (٨) معظم مائه (٩) تقطعت وتسربت فى الاراضى (١٠) رجع وذهب (١١) أى نقص بشدة كما زاد بقوة (١٢) أعالى الارض وأسافلها (١٣) ظهر وبان (١٤) يعظم محصوله
(١٥) أبو المحاسن (ج ١ ص ٣٣)

وصفُ عمرو مصر لعمر بهذا الكتاب الذى رواه كثير من المؤرخين المتأخرين ، ولكنا نشك فى أن ألفاظه الحديثة المنمقة صدرت عن عمرو فى صدر الاسلام .

قال أبو المحاسن : فلما ورد هذا الكتاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لله درك يا ابن العاص لقد وصفتَ لى خبراً كأنى أشاهده .

وقد تُرجم كتاب عمرو بن العاص الذى أرسله إلى عمر لما استولى على مصر ، ونشر هذه الترجمة الكاتب الفرنساوى الشهير « أوكتاف أوزان » فى جريدة (الفيجارو) الفرنساوية ، ونقلته عنها برمته مع التعليقات التى علقها عليه المسيو « أوزان » والذى وصف فيها هذا الكتاب بأنه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم ، وقال عنهُ إنه من الفرائد فى إيجازه وإعجازه واقترح وجوب تدريسه فى جميع مدارس المعمورة ، حتى يتعلموا منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحةَ الحكم على الأشياء وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار .

وقد ترجم هذا الوصف من مؤرخى الانجليز المؤرخ « جبون » والدكتور « بطلر »

(ب) تحول عمرو الى الفسطاط وتحببه الى القبط ورده بنيامين الى كرسيه

بعد استيلاء عمرو بن العاص على الاسكندرية تحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الفسطاط بعد أن أقرّه والياً عليها ، وسبب تحوله أنه لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغاً منها (قد شُيدت غير محتاجة إلى إصلاح) وقد جلا من كان يسكنها من الروم ، همّ أن يسكنها وقال : منازل قد كفيناها ، فكتب إلى عمر ابن الخطاب يستأذنه فى ذلك فسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب الى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت . اهـ

كانت الصلة بين مصر وبين الدول المالكة لها منذ الاسكندر ، تستلزم أن تكون العاصمة فى الاسكندرية ، فلما انتقل مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب ، كان

يجب أن تكون العاصمة إما على البحر الأحمر وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية . ولكنّ العرب لم يكونوا أمة بحرية ، فلم يكن بد من أن تكون عاصمة مصر فى نقطة برية سهلة التواصل مع بلاد العرب ، إلى هذا كله لا نغفل عن حكمة عمرو فى اختيار موقع الفسطاط لأنه كان يمكنه من ملاحظة قسمى البلاد المصرية شمالاً وجنوباً ، مع أنه قريب من الطريق إلى بلاد العرب . يدلك على ذلك قول عمر « إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف »

تحوّل عمرو إلى الفسطاط فكان خير وال وأعظم قائد وأحبّ الولاة إلى الرعية ، وأشدهم قياماً على العدل والنظر فى عمران البلاد وراحة أهلها ، فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عوناً للمسلمين ، ورأى بما اشتهر عنه من بعد النظر وحسن السياسة أن يتحبب إلى القبط فيمتلك قلوبهم ، ليرجع الأمن إلى نصابه ويسود السلام والطمأنينة فى ربوع البلاد ، فيأمن الفتن والقلاقل ، ثم يتفرغ بعد إلى إدارة البلاد وإنهاضها . ولا غرو إذا تفانى المصريون فى محبته وبالغوا فى تعظيمه ، فقد أزال ما حاق ببلادهم من نير الروم ، وما حل بهم من شدة البلاء ، ففكّهم من أسر الضيم الذى عانوه ، ولم يتعرض لهم فى عاداتهم بشىء البتة ، وأمّنهم على أموالهم وعيالهم وحمى بلادهم من هجمات المغيرين وعبث العابثين ، وقد قاسوا الأمرّين من جراء الانتصار لمتقدهم فى عهد الروم كما بينا .

ومما يذكر لعمرو بالشكران أنهُ كتب أماناً للبطريرق بنيامين وردّه إلى كرسيه بعد أن تغيب عنهُ زهاء ثلاث عشرة سنة فسرّ هذا العمل البطريرق وشكر عمراً عليه .

سار بنيامين إلى الاسكندرية حيث أمر عمرو باستقباله بكل حفاوة وتعظيم ، ولما قدم البطريرق ولقى عمراً ألقى على مسامعه خطاباً بليغاً ضمنه كل ما عنّ له من الاقتراحات التى رآها لازمة لحفظ كيان الكنيسة ، فتقبلها عمرو ومنحه السلطة التامة على القبط والسلطان المطلق لادارة شؤون الكنيسة . وقد لاحظ « بطلر » أن عودة بنيامين إلى عرش الكنيسة قد كفاها شر الوقوع فى أزمة خطيرة كانت لا محالة مؤدية بها إلى الاضمحلال والدمار .

وإن الخطبة البليغة التى ألقاها باسيلى أسقف نقيوس بدير مقاريوس لخير شاهد على أن القبط قد أصبحوا بعد الفتح الاسلامى فى غبطة وسرور لتخلصهم من عسف الروم . يدلك على صحة ما تقول رد بنيامين على باسيلى بقوله « لقد وجدت فى مدينة الاسكندرية زمن النجاة والطمأنينة التى كنت أنشدها بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون » فهذه هى الكلمات التى فاه بها البطريرق ومنها يتجلى للقارئ مبلغ الراحة التى شعر بها المصريون فى عهد عمرو . ومما يؤيد هذا القول وصف « ساويرس » القوم بأنهم كانوا فى ذلك اليوم (أى اليوم الذى زار فيه بنيامين دير مقاريوس) كالثيرة إذا أطلقت من قيودها

(ح) عمرو وتأسيس مدينة الفسطاط :

(١) ما قيل فى تسمية الفسطاط : شرع عمرو فى غرس بذور الحضارة الاسلامية فى مصر وبسط جناح الاسلام فى أرجاء البلاد ، وكان أول ما قام به من أعماله الخالدة تأسيس مدينة الفسطاط ليجعلها حاضرة البلاد ودار الإمارة .

وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم ، ولم يكن فى هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون حيث كان ينزل به شحنة الروم ، وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم ، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة ، وقد عين موضعها الاستاذ يوسف أفندى احمد فقال : إنها تقع فى المنطقة التى حول جامع عمرو والتى تمتد شرقاً حتى قرب سفح جبل المقطم ، وشمالاً حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر ، وغرباً حتى النيل ، وجنوباً حتى ساحل أثر النبى . اه

وقد ذكر المقريزى أن عمرو بن العاص لما افتتح مدينة الاسكندرية الفتح الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط الجامع المعروف بالجامع العتيق وبجامع عمرو بن العاص واختطت قبائل العرب من حوله ، فصارت مدينة عرفت بالفسطاط

وقد قيل فى تسمية الفسطاط بهذا الإسم أقوال كثيرة ، فقال بعضهم : ان عمرو ابن العاص لما أراد المسير إلى الاسكندرية أمر بفسطاطه أن يقوّض فاذا بيمامة قد

جزء من أطلال مدينة الفسطاط

رسم محمد افندى يوسف   مهندس بتنظيم مصر

باضت فى أعلاه فقال : لقد تحرّمت بجوارنا ، أقرّوا الفسطاط حتى يطير فراخها فأقر فى موضعه ، فبذلك سميت الفسطاط .

وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ، وقيل : لما عاد عمرو من الاسكندرية قال : أين تنزلون ؟ فقالوا : الفسطاط – يعنون فسطاط عمرو الذى خلفه وكان مضروبًا فى موضع داره الصغرى التى بحذاء داره الكبرى وجامعه ، فاختط عمرو داره فى موضع الفسطاط والدار التى إلى جانبها ، فلما نزل موضع فسطاطه انضمت القبائل بعضها إلى بعض وتنافسوا فى المواضع فولى عمرو على الخطط أربعة من المسلمين فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل(١)

ولا يبعد أن يكونوا قد إختاروا النزول فى الموضع الذى نزلوا فيه أولاً ، لصلاحه وقربه من النيل .

وقال ابن قتيبة فى كتاب (غريب الحديث) إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : عليكم بالجماعة فان يد الله على الفسطاط (بضم أوله وكسره وإسكان ثانيه) : أى المدينة . وقال بطلر : إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ « فسّاتم » ومعناه « مدينة حصينة » أخذه العرب عن الروم أثناء حربهم فى الشام ، وربما كان هذا هو أرجح الأقوال .

(٢) الفسطاط ودار الإمارة : اختطت مدينة الفسطاط بعد الفتح الإسلامى بناء على رغبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى لا يحول بينه و بين المسلمين ماء ، فصارت قاعدة للديار المصرية ومقراً للإمارة حتى بنيت مدينة العسكر (جهة زين العابدين والمذبح والسيدة زينب والكبش) سنة ١٣٣ للهجرة فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها .

ومما قاله ابن خلدون فى مقدمته (ص ١٦٩) : ويشترط فى اختيار موضع المدينة أن تقع إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل

(١) ذكر هؤلاء ابن دقاق فقال (ج ١ ص ٣٢٢) : معاوية بن حديج التجيبي وشريك ابن سمي الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني ، وحويل بن ناشر المعافرى .

إليها إلا بعد تعبير، وطيب هواء للسلامة من الأمراض، وقرب المرعى منها، يحصل الناس على الأقوات. وختم كلامه بقوله بأن العرب لم يراعوا هذه الشروط فى اختيار مواقع المدن التى أسسوها كالقيروان والكوفة والبصرة، وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية.

وإن كان ابن خلدون قد أصاب فى بعض ما ذكره، فإن أقواله تنطبق من جهة على بعض المدن التى أسسها العرب، ولا تنطبق من جهة أخرى على البعض الآخر كالفسطاط، لمراعاة الأمور الطبيعية والسياسية التى أدت إلى تأسيسها، لأن النيل يحدها شرقاً والجبل غرباً، وتقع المزارع فيما بينها، وبين الجبل من جهة وبين جبل يشكر من جهة أخرى، وكذا لوقوعها على رأس الدلتا ليسهل الأشراف على الوجهين البحرى والقبلى، ولما لم تكن العرب أمة بحرية كما تقدم، لم يكن هناك داع لتأسيس العاصمة على البحر الأحمر حتى لا يحول بينها وبين العرب ماء كما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

(٣) الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط: قال المقريزى (ج ١ ص ٢٩٦) اعلم أن الخطط التى كانت بمدينة فسطاط مصر بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة، فقيل لتلك فى مصر خطة وقيل لها فى القاهرة حارة.

فلما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولّى أربعة من المسلمين كما قدمنا فخططوا لكل قبيلة خطة.

قال «بطلر»: والظاهر أن الذى قام بتنفيذ هذا الأمر إنما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة التى كان يجهلها العرب.

ونحن نستبعد ذلك لأن الأبنية التى أقامها العرب هى من لبن دور واحد لاتحتاج إلى معمارى أو هندسة. ودليلنا على ذلك ما سيرد فى بناء جامع عمرو فإنه بنى بسقف منخفض بدون نوافذ وبدون فراغ فى السقف حتى يتخلل الهواء داخله، وقد كان العرب يستظلون بفنائه ويتنقلون بجوانبه تبعاً للظل، وذلك من شدة الحر بداخله.

وكانت بيوت الفسطاط في بادىء الأمر طبقة واحدة. وأول من ابتنى غرفة بالفسطاط خارجة بن حذافة. فبلغ عمر بن الخطاب أمرها وأنه أراد أن يطلع على عورات جيرانه فكتب إلى عمرو بن العاص يقول: أدخل غرفة خارجة وانصب فيها سريراً وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، فان اطلع من كواها فاهدمها. ففعل ذلك عمرو ولم يبلغ الكوى فأقرها.

بعد ذلك أخذت الدور تزداد في الاتساع والعلو شيئاً فشيئاً حتى صار ارتفاع أغلب الأرض خمس طبقات وستاً وسبعاً وثمانياً. وبعد أن كانت الدار تسكنها أسرة قليلة العدد أصبح يسكنها المائتان من الناس، وكانوا لا يسكنون في أسفل دورهم (الطابق الأرضي) لعدم جفافه وقلة وصول الشمس والضوء الكافية اليه بل يجعلونه مخزناً لهم، وقلما تخلو دار من بئر وأحواض لخزن المياه العذبة وحمام وبركة (فسقية)

وكانت أبنيتهم على جانب عظيم من الترتيب والابداع، وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة — كل ذلك بعد الفتح بزمن.

وإليك صور بعض الأبنية الباقية من مدينة الفسطاط أخذها حضرة محمد افندى يوسف بالتصوير الشمسى خصيصاً لهذه الرسالة، ومنها يظهر ما كانت عليه هذه المدينة

(د) عمرو وتأسيس الجامع العتيق:

إلى الشمال من حصن بابليون جامع عمرو بن العاص، وهو أقدم جامع إسلامى[1] بنى في مصر يظهر عليه الجلال وتكسوه المهابة، لأن اسمه مقرون باسم مؤسسه، لهذا وجب على المصريين ولا سيما المسلمين منهم أن يُعنوا بهذا الجامع عناية كبرى.

أسس هذا الجامع سنة إحدى وعشرين من الهجرة على ما رواه أبو المحاسن وابن دقماق والذى حاز موضعه قيسبة[2] بن كلثوم التجيبى، فلما رجع المسلمون من الاسكندرية سأل عمرو بن العاص قيسبة هذا في منزله ليجعله مسجداً فأجابه إلى طلبه

(١) ولم يبق من البناء القديم شيء أصلا. والبناء الموجود الآن بعضه منذ سبعة قرون والبعض منذ خمسة والأغلب منذ سنة ١٢١١ هـ

(٢) ذكر هذا الاسم السيوطي وابن دقماق وذكره أبو المحاسن «قتيبة» وهو خطأ

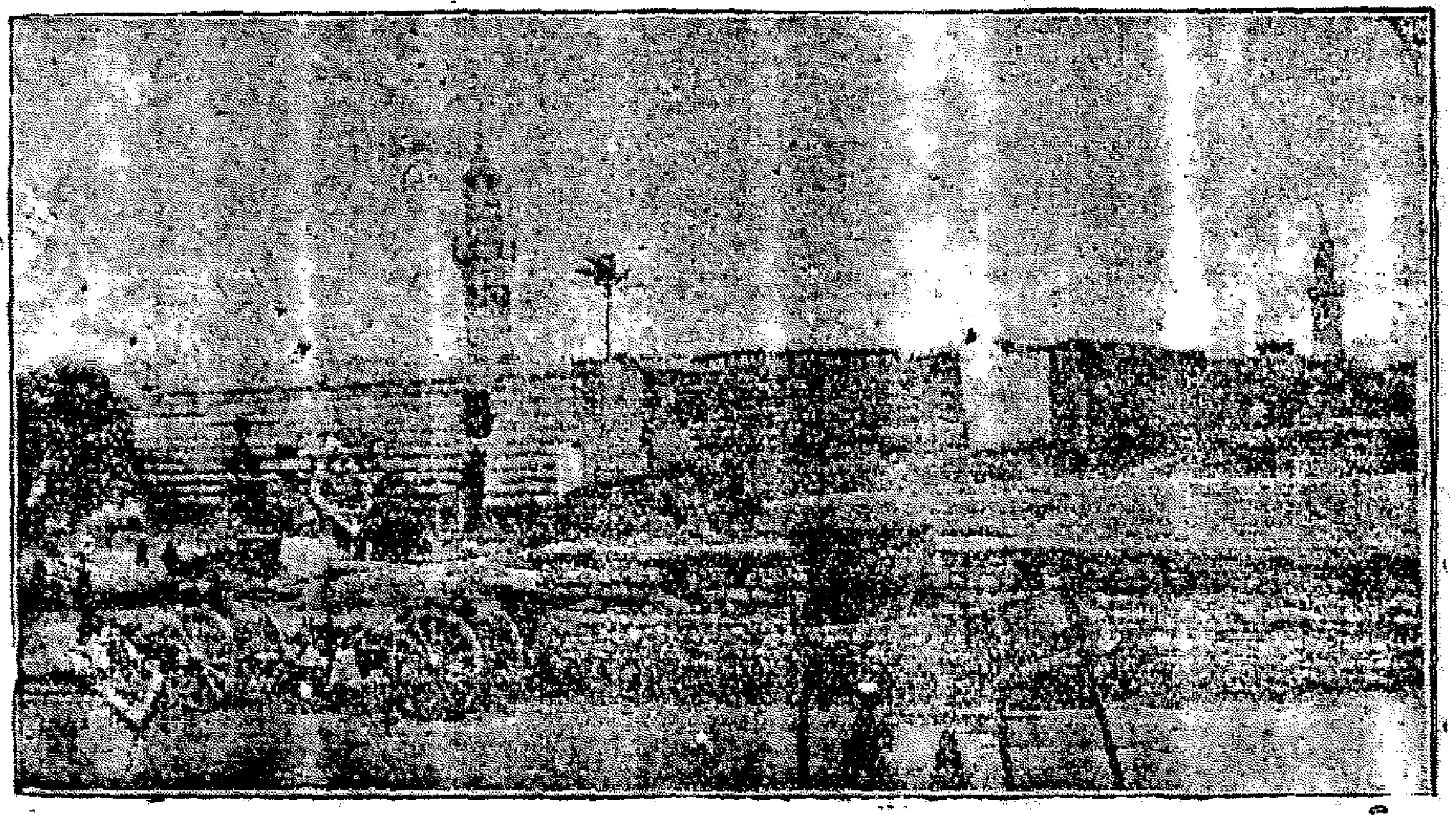

جامع عمرو بن العاص

رسم محمد افندى يوسف مهندس بتنظيم مصر

وتصدق به على المسلمين ، ومن ثَمَّ شرع عمرو فى بنائه ، فكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين .

ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان فى مبدإ أمره أصغر بكثير مما هو عليه الآن . ويقال إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون من الصحابة منهم الزبير بن العوام والمقداد[١] ابن الأسود وعُبادة بن الصامت .

ولم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وأول من بناه قرة بن شريك[٢] وكان له بابان مقابلان دار عمرو وبابان شماليه وبابان غربيه ، وكان الخارج من زقاق القناديل[٣] يلقى ركن الجامع الشرقى محاذياً ركن جامع عمرو الغربى ، وكان طوله من القبلة إلى الغرب مثل طول دار عمرو وسقفه منخفضاً جداً ولا صحن له ، وكانوا يصلّون بفنائه ، وكان بينه وبين دار عمرو سبعة أذرع ، وكان الطريق محيطاً به من جميع جوانبه ، وكان عمرو قد اتخذ منبراً فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بكسره : « أما يحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟ » فكسره عمرو

(هـ) خطبة لعمرو فى هذا الجامع :

وقبل أن نختم كلمتنا نأتى بأحدى خطب عمرو بن العاص فى هذا الجامع . أخرج أبو المحاسن عن ابن عبد الحكم عن سعيد بن ميسرة المعافرى قال :

رحتُ أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة وذلك آخر الشتاء بعد خميس النصارى بأيام يسيرة ، فأطلنا الركوع ، إذ أقبل الرجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذُعرت فقلت : يا أبت من هؤلاء ؟ قال : يا بنى هؤلاء الشرط . فأقام المؤذنون الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيتُ رجلاً ربعة قصير القامة وافر الهامة ، أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأنّ به العقبان تأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة ، فحمد الله وأثنى عليه

(١) ذكر بطلر فى تاريخه هذا اللفظ خطأ فقال « قدّاد »

(٢) كان والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان من سنة ٩٠ الى سنة ٩٦ هـ

(٣) دعى بهذا الاسم لانه كان منازل الاشراف ، وكان على ابوابهم القناديل ، وقيل إنما قيل له زقاق القنديل لانه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمرو ، وهو من الخطط القديمة وله أربع مسالك .

حمداً موجزاً وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم ، فسمعته يحضُّ على الزكاة وصلة الأرحام ويأمر بالاقتصاد وينهى عن الفضول وكثرة العيال وإخفاض الحال فقال :

يا معشر الناس ! إياكم وخلالاً أربعاً فانها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذلة بعد العزة : إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال فى غير درك ولا نوال ، ثم لا بد من فراغ يؤول اليه المرء فى توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد[1] والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء فراغه نصيب العلم من نفسه فيجوز من الخير عاطلاً وعن حلال الله وحرامه باطلاً . يا معشر الناس إنه قد تدلّت الجوزاء وزلت الشمرى وأقلعت السماء[2] وارتفع الوباء وقلّ الندى وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر ، فحيّ لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم ، فتناولوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها ، فانها جنّتكم[3] من عدوكم ، وبها مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً ، وإياكم والمومسات المسولات[4] فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم ، حدثنى أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم[5] ولأعلمنّ[6] ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه

---

(١) الاعتدال (٢) أقلعت السماء أى كفت وهو كناية عن انقطاع المطر

(٣) الجنة هى الوقاية (٤) العواهر (٥) يشير الى قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) الخ .

(٦) جواب قسم محذوف أكد بالنون الثقيلة . وما مصدرية ، أى فوالله لاعلمن إتيان رجل موصوف بما ذكر ، وفى طيه من الترهيب البليغ ما لا يخفى ، وقد بين بعد جزاء من فعل ذلك بقوله فمن أهزل فرسه . الخ .

من غير علة حطّطته من فريضته قدر ذلك ، وأعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوّف قلوبهم اليكم ؛ والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ولمَ يا رسول الله ؟ قال لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة . فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يبس العود وسخن الماء وكثر الذباب وحمض اللبن وصوّح البقل وانقطع الورد من الشجر ، فحيّ الى فسطاطكم على بركة الله ؛ ولا يقدمنّ أحد منكم ذو عيال إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته ، أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم . اه

هذه الخطبة تمثل لنا عمرو بن العاص رجلاً ناصحاً لرعيته ، حريصاً على الاستمساك بسياسة عمر بن الخطاب ، وإظهار زهد عمر ، وان كانت تنمُّ بحبه للذات الحياة وحثه الناس على أن يستمتعوا بها من غير إسراف ؛ ثم نلاحظ هنا حثه الناس على تعهد الخيل فانه ربما دلنا على أن عمراً كان يضمر فى نفسه حرباً أخرى فى أفريقية الشمالية ، مع أن هذا كان لازماً ، لأن الروم كانوا يترقبون الفرص للإغارة على مصر من جديد ، مما يدل على أن عمراً لم يكن يقتنع بفتح مصر ، وانما كان يحث الناس على الاعتناء بالخيل كأنه يضمر حرباً أخرى ما حاول من فتح برقة ، وكان الفتح طبيعياً ، لأن مصر ما زالت منذ عصورها الأولى الى الآن تلاحظ هذا القسم من أفريقية الشمالية كأنه امتداد طبيعى لها .

(د) عمرو وحفر خليج القاهرة

كان من أعمال عمرو المشكورة فى مصر حفر خليج القاهرة المعروف بخليج أمير المؤمنين . وقد قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه : يظهر من أقوال المقريزى وغيره أن هذا الخليج بعضٌ من خليج قديم كان مستعملاً فى الأزمان الغابرة فى

الملاحة وموصلاً بين النيل والبحر الأحمر، وكانت بواسطته تجارة بلاد العرب والهند والسودان تدخل القطر المصرى وتتوزع فى بلاده، كما أن التجارة المصرية كانت تحملها السفن فيه إلى البحر الأحمر فتدخل فى جميع البلاد المذكورة، فهو بهذا الاعتبار أثر من الآثار العتيقة يستحق الذكر.

ولم يترك صاحب الخطط التوفيقية واردةً إلا أوردها ولا شاردةً إلا اقتفى أثرها مما لا يترك زيادة لمستزيد، كذلك أفرد له المقريزى باباً خاصاً أطال القول فيه، وعنه أخذ على مبارك باشا والسيوطى وغيرهما... وقد ذكر المقريزى فى خططه أن هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربى فيما بينها وبين المقس عُرف فى أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين، وهو خليج قديم أول من حفره «طوطيس بن ماليا» أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف، وهو الذى قدم خليل الله ابراهيم عليه السلام فى أيامه إلى مصر وأخذ امرأته سارة وأخدمها هاجر أم اسماعيل، فلما أسكنها إبراهيم هى وابنها إسماعيل فى مكة بعثت إلى طوطيس تعرفه أنها بمكان جدب وتستغيث به، فأمر بحفر هــذا الخليج وبعث اليها فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها إلى جُدَّة فأحيا بلد الحجاز..... وقد تمادت الدهور والأعوام فجدَّد هذا الخليج أندروموس (أدريان) قيصر الروم وسارت فيه السفن قبل الهجرة بنيف وأربعمائة سنة.

ونحن نستبعد جداً أن يأمر سلاطيس بحفر هذا الخليج من أجل خادمة ونجزم بأنها خرافة.

ولما وفد «هيرودت» على مصر وساح فى أرضها قبل المسيح بأربعة قرون ونصف قرن قال فيما كتبه عليها إن «نيخوس بن ابسامتكوس» هو أول من شرع فى اتصال النيل بالبحر الأحمر ولم يتمه، ولما دخلت مصر فى حكم الفرس فى زمن «دارا» شرع فيه مرة ثانيــة فأتمه وجعل طوله أربعة أيام ملاحية وعرضه بحيث تمر فيه سفينتان بالمجاذيف، وكان يملأ بماء النيل ومبدؤه فوق مدينة بوبسط[1] بقليل بقرب مدينة

(١) تل بسطة بجوار الزقازيق

باطموس[1]. ثم يتبع سير الأودية بعد أن يبعد عن الجبل فى جهة الجنوب ويصب فى البحر .

وفى تاريخ القرون الوسطى لمؤلفه « لبون » أن عمر بن الخطاب لم يأذن بفتح خليج البرزخ بين الفرما والبحر الأحمر ، واكتفى عمرو بن العاص باصلاح خليج « تراجان » الذى كان (أدريان) مدّه الى النيل بقرب بابليون ويمر ببلبيس وأوصله بخليج (نيخوس) القديم الذى كمله (دارا) ملك الفرس ، واجتمع من الخليجين خليج واحد كان ينتهى الى مستنقع المالح . وفى زمن بطليموس لاغوس[2] عملت ترعة من من نهايته لتوصيل المياه الحلوة إلى مدينة أرسنويه[3] لنهاية البحر الأحمر الذى فيه الآن مدينة السويس ، وكان مبدأ هذا الخليج مدينة بابليون ويمر بعين شمس ووادى الطميلات إلى القنطرة ثم يتصل بالبحر الأحمر عند القلزم

ومما تقدم يعلم أن خليج تراجان وأدريان هما بجملتهما خليج واحد وهو خليج القاهرة ، وكان ينتهى الى البحيرات المرة ثم مده (بطليموس) الى السويس ، وهذا الخليج لا يصلح للملاحة إلا فى زمن ارتفاع النيل ، وقد أهمله الروم حتى طمّ وردم بالأتربة فى معظم مواضعه حتى احتفره عمرو ثانيًا واستعمله لنقل الميرة فى المراكب الى الحجاز ، ولم يقلّ طول هذا الخليج عن ثمانين ميلاً .

وكان سبب حفر هذا الخليج فى عهد عمرو بن العاص على ما أخرجه السيوطى عن ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد ، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة فكتب الى عمرو بن العاص وهو بمصر : من عبدالله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام عليك . أما بعد ، فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى فياغوثاه ثم ياغوثاه .

فكتب عمرو بن العاص : أما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك قد بعثت إليك بعير أولها

---

(١) مدينة باطموس هى التى خلفتها قرية التل الكبير الآن وكان مبدأ هذا الخليج بقربها

(٢) يقول بطلر إن هذا كان فى زمن (بطليموس فيلادلف الثانى)

(٣) كانت مدينة أرسنويه على ساحل البحيرات المرة وقد زالت الآن .

عندك وآخرها عندى والسلام عليك ورحمة الله ... فبعث إليه بعير عظيمة فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس وكتب الى عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه فقال عمر : يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهى كثيرة الخير والطعام وقد ألقى فى روعى لما أحببتُ من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين، أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فانّ حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ به ما نريد، فانطلق وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيكم رأيكم، فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر فثقل ذلك عليهم وقالوا : نتخوف أن يدخل من هذا ضررٌ على مصر، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد إليه سبيلاً . فرجع عمرو بذلك إلى عمر فضحك عمر حين رآه وقال : والذى نفسى بيده لكأنى أنظر اليك ياعمرو وإلى أصحابك حين أخبرتَهم بما أمرتُ به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له هذا لا يعتدل ولا نجد إليه سبيلاً . فعجب عمرو من قول عمر وقال : صدقت والله يا أمير المؤمنين لقد كان الأمر على ما ذكرت . فقال عمر : إنطلق ياعمرو بعزيمة منى حتى تجدّ فى ذلك، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله تعالى

ويخيل إلينا أن كل هذا انما اخترع فيما بعد وأن عمراً رأى آثار هذا الخليج القديم فاحتفره وأصلحه تسهيلاً للمواصلة بينه و بين المدينة.

فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم (السويس)، فلم يأت الحول حتى فرغ وجرت فيه السفن فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمى « خليج أمير المؤمنين » ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز، ثم ضيعهُ الولاة بعد ذلك، فترك وغلب عليه الرمل، فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية

بطحاء القلزم[١] اهـ . وقد ذكر الكندى أن عمراً حفر الخليج فى سنة ثلاث وعشرين (٦٤٣ م) وفرغ منه فى ستة أشهر

يتضح مما تقدم أن عمر أمر بحفر الخليج، وقد شرع فى ذلك أثناء خلافته ، وفعلاً جرت المؤن فيه ووصلت إلى بلاد العرب قبل وفاته فى ذى الحجة سنة ٢٣ للهجرة ، ولا يفهم من قول الكندى هل شُرع فى حفر الخليج سنة ٢٣ هـ أو تم حفره سنة ٢٣ ، فيحتمل أن يكون قد شرع فى حفره فى نهاية سنة ٢٢ هـ ، وحينئذ لا يكون ذلك عام الرمادة وهو الأشبه – وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقى من هذا الخليج فأمرت بطمّه سنة ١٨٩٧ م .

(ز) عمرو ومقاييس النيل وزيادته

لا ريب فى أن حياة مصر متوقفة على النيل ، وعلى هذا يتوقف محصول البلاد الذى يزداد بزيادة مائه وينقص بنقصانه ، لهذا لم يأل حكام مصر منذ الأزمان الغابرة جهداً فى قياس درجة فيضانه فى كل سنة فى مواضع كثيرة ، لأن القياس المذكور هو القاعدة فى ربط المال وتوزيعه على البلاد ، وعليه يتوقف تنظيم الخراج ، ولم يعزب عن بال عمرو ضرورة قياس النيل قياساً مضبوطاً ليتأتى له جباية الأموال بالقسط والعدل

فلما فتح العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده ، فكتب إلى عمرو يسأله عن شرح الحال فأجابه : إنى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعاً ، والحد الذى يُروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعاً ، والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار ، إثنى عشر ذراعاً فى النقصان وثمانية عشر ذراعاً فى الزيادة ، فكتب إليه عمر أن يبنى مقياساً وأن يضيف ذراعين على الأثنى عشر ذراعاً ؛ وأن يقرّ ما بعدها على الأصل وأن ينقص من ذراع بعد الستة عشر ذراعاً إصبعين ، ففعل ذلك وبناه بحلوان ، وجعل الأثنى عشر ذراعاً

(١) يقرب من محلها الآن مدينة السويس ، وإليها ينسب البحر فيقال بحر القلزم

عة عشر ذراعاً لأن كل ذراع أربعة وعشرون إصبعاً، فجعلها ثمانية وعشرين من أولها إلى الاثنى عشر، ثمانية وأربعين إصبعاً وهى الذراعان، وجعل الأربعة عشر ستة عشر، والستة عشر ثمانية عشر، والثمانية عشر عشرين، وهى المستقرة الآن - المقريزى (ج ١ ص ٧٤)

(ح) عمرو وخراج مصر فى الاسلام

سار عمرو مع المصريين بمقتضى شروط الصلح من حيث تقسيم الجباية ومراعاة حال النيل فى النقصان والزيادة، وربما اضطر أحياناً إلى كسر الخراج، فكان عمر رضى الله عنه يظن فيه الظنون، وربما كان ذلك لجبايته (١٢،٠٠٠،٠٠٠) دينار، مع أن المقوقس جباها (٢٠،٠٠٠،٠٠٠) ويظهر ذلك من المكاتبات التى دارت بين عمرو وعُمر بهذا الصدد، ومنها يعلم أن النزاع ازداد بينهما وأن سوء التفاهم قد وصل إلى مدى بعيد.

وإليك كتاب عمر إلى عمرو حين استبطأه مرة فى الخراج نقلاً عن «حسن المحاضرة» للسيوطى : بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام عليك. أما بعد فأنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه، فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة فى بر وبحر، وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوّهم وكفرهم، فعجبتُ من ذلك، وأعجبُ مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا جدب، ولقد أكثرتُ فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج، وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر (قلة) ورجوت أن تفيق فترفع الىّ ذلك، فاذا أنت تأتينى بمعاريض[1] تعيأ بها[2] لا توافق الذى فى نفسى. ولستُ قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، ولست أدرى مع ذلك ما الذى أنفرك من كتابى وقبضك، فلئن كنتَ مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة، ولئن كنت مضيعاً نطعاً[3] إن

(١) المعاريض هى التورية بالشىء عن الشىء وهى الستر، يقال عرفته فى معراض كلامه وفى لحن كلامه، فالتعريض خلاف التصريح من القول. (٢) أى يظنها مما يعيأ به أى يهتم له، وهى لا شىء عندى، وقد ذكرها السيوطى «تنتأ لها» (٣) التشدق بالكلام

الأمر لعلى غير ما تُحَدِّثُ به نفسك ، ولقد تركت أن أبتلى(١) ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلىّ ذلك ، وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلاّ أن عمالك عمال السوء ، وما توالس عليك وتلفف(٢) اتخذوك كهفاً ، وعندى بأذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه ، فلا تجزع أبا عبدالله أن يؤخذ منك الحق وتُعطاه ، فان النهر يخرج الدر والحق أبلج(٣) ودعنى وما عنه تلجلج(٤) فانه قد برّح الخفاء والسلام

هذا الكتاب يدلنا :

أولاً – على ما هو معروف عن عمر من شدته وضربه على أيدى العمال والولاة

ثانياً – على أن نفراً من المنافسين لعمرو بن العاص كانوا قد أخذوا يسيئون ما بينه وبين الخليفة ، ويبينون لهذا إهمال عمرو وسوء إدارته ، وربما اتهموه بمحاباة العمال المفسدين حين لم يستطيعوا أن يتهموه مباشرةً بالخيانة .

ونحن نستدل مما جاء فى هذا الكتاب على أن عمر كان قد كتب إلى عمرو بخصوص الخراج من قبل ، وان مصر لم تكن تؤدى نصف ما كانت تؤديه ، إن صح أنّ مصر كانت تؤدى هذا المقدار قبل الاسلام ، أى أن الخراج كان أقلّ من عشرة آلاف ألف (١٠,٠٠٠,٠٠٠) . ولا ندرى ما هى المعاريض التى كان يأتى بها عمرو ، وقد ظنّ عمر أن قلة الخراج كانت راجعةً إلى عدم مراقبته عمال الخراج وقلة جبايته ، وانهم كانوا يستولون على بعضها لأنفسهم ، وإن صح ذلك كان نقطة ضعف فى سياسة عمرو ، ولكن إذا عرفنا أن من أموال الخراج كانت تدفع أعطيات الجند وتنفذ المشاريع التى يتطلبها الاصلاح ، كشق الترع وبناء القناطر ، فلا نحجم عن القول بأن عمراً كان له العذر فيما فعل ، إذ راعى مصلحة الدولة الحاكمة والبلاد المحكومة ، ورأى أن مصر فى حاجة إلى الاصلاح الذى لا يتم إلاّ بالمال ، وكتاب عمر كما يظهر مفعم بالتعريض واللوم . أما قول عمر رضى الله عنه : إنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه قبل ذلك ، يفيد أن عمراً قد خفف على المصريين الأعباء الثقيلة التى كانوا يئنون تحتها من تعدد

(١) امتحن واختبر (٢) قوله توالس وتلفف بمعنى واحد (٣) مضىء مشرق لا يخفيه التمويه
(٤) التردد فى الكلام

الضرائب التى شملت كل شىء كما قدمنا ، وهو مظهر من مظاهر الاستبداد لا يرضى به عمرو . ومن راجع كتاب المستر ملن « مصر فى عهد الرومان » حيث أفرد فيه باباً خاصاً للضرائب ، لا يسعهُ إلاَّ أن يعزو نقص الخراج فى أيام عمرو عما كان عليه فى عهد الروم إلى إلغاء كثير منها وعدم رضائه بالإخلال بعهده لأهل مصر ، ذلك العهد الذى شمل شروطاً ثابتة راعى فيها عدد القبط وحال الأرضين . ولا شكّ أن خراج مصر قد قلّ نسبياً بعد الفتح لاعتناق كثير من المصريين الاسلام فيما بعد . ففى أيام الدولة الأموية كتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن يضع الجزية عمن أسلم، فكتب اليه حيان إنّ الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلف من الحارث بن نابتة عشرين ألف درهم أتمّ بها عطاء أهل الديوان، وطلب منه أن يأمر بقضائها ، فكتب إليه عمر « ضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فان الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً ، ولعمرى لعمرُ أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الاسلام على يديه » .

ولكن نفس عمرو العالية وعدم تعوده إحتمال الضيم أو سماع المكروه أبى عليه ذلك ، فكتب إلى أمير المؤمنين كتاباً يرد عليه قوله ويبرىء فيه نفسه ويظهر له أنه ذو نفس أبية ، وان ماضى تاريخه خير شاهد على صحة ما يقول ، وإليك نص هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام الله عليك فانى أحمد الله الذى لا إله إلاَّ هو . أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى ، وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك مذ كان الإسلام ، ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر ، ولأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام، وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبته حلباً قطع درّها ، وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وتَرّبت[1] وعلمت أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خبر .

---

(١) ترّبت بالتاء المثلثة بعدها راء مشددة بعدها باء موحدة من تحت ثم تاء مثناه . تعنى ضيقت . ومنه قول يوسف لاخوته . لاتثريب عليكم اليوم ، ويراد بها الحث والتحريض كما فى قوله عليه السلام (تربت يداك — من باب تعب أيضاً) وهى من الكلمات التى جاءت عن العرب صورتها دعاء ولا يراد بها الدعاء بل الحث والتحريض

فجئت لعمرى بالمفظعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظّم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به شيئاً . فتعرّف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا . معاذ الله من تلك الطعم[1] ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم ، فامض عملك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم أخاً ، والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضباً لنفسى ولها إنزاهاً وإكراماً ، وما عملت من عمل أرى فيه متعلقاً[2] ولكنى حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدتَ ، يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت عالماً بها وكان اللسان بها منى زلولاً ، ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل والسلام .

وكفى برهاناً لما كان عليه عمرو من علو النفس والصراحة فى القول قوله : والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضباً لنفسى « ولها إنزاهاً وإكراماً »

لم تقف المكاتبات بين عمرو وعمر بخصوص الخراج عند هذا الحد ، بل استمرت بين أخذ ورد ، فكتب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص :

من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام إليك . فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلاّ هو : أما بعد فانى قد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلىّ بثنيات الطرق ، وقد علمت أنى لست أرضى منك إلاّ بالحق البين ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ، ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فانما هو فيء المسلمين وعندى ما قد تعلم قوم محصورون والسلام .

فكتب اليه عمرو بن العاص : بسم الله الرحمن الرحيم . لعمر بن الخطاب : من عمرو بن العاص : أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم

(١) — جمع طعمة وهى المأكلة ، وقولهم الطعم علة الربا

(٢) — متعلق من تعلق بالشيء إذا استمسك به

أنى أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق ، وانى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم وان أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من أن نخرق(١) بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام .

ولما استبطأ عمر الخراج ، كتب إلى عمرو أن يبعث اليه رجلاً من أهل مصر ، فبعث اليه رجلاً من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الإسلام فقال : يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها ، وعاملك لا ينظر إلى العمارة وانه يأخذ ما ظهر كأنه لا يريدها إلا لعام واحد

ومن هنا يظهر أن سوء الظن عند عمر قد اشتد بعامله على مصر حتى طلب اليه أن يوفد عليه رجلاً ينبئه من أمر مصر بالحق ، ولكن عمراً كان من حسن النية وصفاء الضمير بحيث لم يخطر له أن عمراً يستطيع أن يخادعه ، أو أن يلهم رسوله ما يجيب به الخليفة ، ولسنا نشك فى أن عمراً قد أحفظ هذا الرسول ، فان جواب هـذا الرسول لعمر يناقض جواب عمرو فى كتاب سابق ، فبينما عمرو يقول إن المصريين استنظروه فأنظرهم ، إذ الرسول يقول أن عمراً لا ينظر إلا لما يقع تحت عينه من مال ، وفى هذا الدليل الواضح على أن عمراً أراد أن يقنع الخليفة بأنه مع رفقه ولطفه بالمصريين لا يستطيع أن يُقنعه

أراد عمر أن يوسع على عمرو لكى لا يتطلع إلى أموال الخراج ، فكتب اليه كتاباً يعلمه بذلك ويبين له طريقة توزيع الخراج

أما بعد فأنى فرضت لمن قبلى فى الديوان (أى فرض العطاء) ولمن ورد علينا من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه إليك وإلى البلدان ، فانظر من فرضتُ له ونزل بك ، فاردد عليه العطاء وعلى ذريته ومن نزل بك ، ممن لم أفرض له ، فافرض له على نحو ما رأيتنى فرضت لاشباهه ، وخذ لنفسك مائتى دينار(٢) ولم أبلغ بهذا أحداً من نظرائك

(١) الخرق ضد الرفق

(٢) لعل هذا الفرض الذى فرضه لعمرو هو جرايته (مرتبه) على عمله لا فرض العطاء ، إذ أن عمر كان يجرى على العمال جراية هى غير نصيبهم من العطاء ، وقد ذكر فى سراج الملوك أن عمر أجرى على عمار فى كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ، وأجرى عليه فى كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ، ومن هنا يعلم أن عماله كان لهم جرايات ، وهى غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله (مع عطائه)

غيرك ، لأنك من عمال المسلمين ، فألحقتك بأرفع ذلك ، وقد علمت أن مؤنًا تلزمك ، فوفر الخراج وخذه من حقه ، ثم عف عنه بعد جمعه ، فاذا حصل إليك وجمعته ، أخرجت عطاء المسلمين وما يُحتاج إليه مما لا بد منهُ ، ثم انظر فيما بقى بعد ذلك فاحمله إلىّ ، واعلم أن ما قبلك من أرض مصر ليس فيها خُمس ، وإنما هى أرض صلح[1] وما فيها للمسلمين فىء ، تبدأ بمن اغنى عنهم فى ثغورهم (أى المرابطين) ، واجزأ[2] عنهم فى أعمالهم ، ثم أقض ما فضل بعد ذلك على من سمى الله[3] . واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك فانهُ قال تبارك وتعالى فى كتابهِ (وجعلنا للمتقين إمامًا) يريد أن يقتدى بهِ ، وان معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال (استوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحما) ورحمهم إن أم إسماعيل منهم ، وقد قال صلى الله عليهِ وسلم : (من ظلم معاهداً أو كلفهُ فوق طاقتهِ فأنا خصمه يوم القيامة) إحذر ياعمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصيما ، فانهُ من خاصمهُ خصمهُ ، والله ياعمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة وآنست من نفسى ضعفًا ، وانتشرت رعيتى ورقّ عظمى ، فأسأل الله أن يقبضنى اليـهِ غير مفرط ، والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعا أن أسأل عنهُ .

• ومن هنا يتضح أنه كان لعمرو منزلة خاصة فى نفس عمر بالرغم من معاملته الشديدة فى مكاتباته له . ولم تقف معاملة عمر لعمرو عند هذا الحد بل قاسمه ماله (عمراً) كما يعلم من رواية البلاذرى (ص ٢٢٧) قال : كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولاّهم ، ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم ، فكتب إلى عمرو بن العاص « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان ، لم تكن حين وليت مصر »

فكتب إليه عمرو : ان أرضنا أرض مزدرع ومتجر ، ونحن نصيب فضلاً عما نحتاج إليه لنفقتنا . فكتب إليه عمر : إنى قد خبرتُ من عمال السوء ما كفى ، وكتابك إلىّ

(١) وهـذا يؤيد رأينا بأن مصر فتحت صلحاً لا عنوة وأن عمر قد أمر بأن يعامل أهالى المدن التى فتحت عنوة معاملة الصلح ، فشمل ذلك جميع المصريين على السواء

(٢) أقض (٣) أى فى القرآن .

كتاب من أقلقه الأخذ بالحق ،وقد سؤت ُ بك ظنًا ، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك ما لك ، فأطلعهُ طلعه وأخرج إليه ما يطالبك ، وأعفه من الغلظة عليك ، فإنهُ برّح الخفاء . فقاسمه عمرو ما له .

خضع عمرو لما أمره به أمير المؤمنين وقاسمه ابن مسلمة ماله ، وكفى نفسه مؤونة الغلظة (وأعفه من الغلظة عليك) وهو كما لا يخفى من أشراف العرب ومن أهل الشرف والرياسة ومن ذوى الرأى فيهم . ولكن أبى عليه عمر أن يترفه فى معيشته كما كان أبوه العاص من قبله ، وقد كان يلبس الخز بكفاف الديباج ، لهذا لا نعجب إذا أثرت هذه الكلمات فى نفس عمرو تأثيراً كبيراً حتى قال : « ان زمانًا عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة لزمان سوء ، لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج » فقال محمد : « مه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكرهه ألفيت معتقلاً عنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكاؤها » قال عمرو : « أنشدك الله أن لا تخبر عمرو بقولى فأن المجالس بالأمانة » فقال محمد : « لا أذكر شيئًا مما جرى بيننا وعمر حىّ » .

وهذه القصة أوضح الأشياء دلالة على ما استحدث عمر فى الأسلام من الأعمال ، فهى تدلنا على أنه استحدث مراقبة العمال ومحاسبتهم محاسبة فعلية وندب من يقوم بذلك من ثقاته . ومثل هذا كان معروفًا قبل الأسلام عند الرومان .

هكذا عامل عمر عمرو بن العاص ؛ ذلك السياسى المحنك والقائد العظيم الذى دوّخ الروم فى فلسطين ومصر ، إلا أن عمر لم يعبأ بكل هذه المزايا بل أجرى الحق مجراه خوفًا أن يقتدى به بقية العمال وتسوء الحالة والأسلام فى غضاضته .

(ط) استقرار أمر مصر لعمرو :

ولّى عمر بن الخطاب عمرو بن العاص على مصر ولاية مطلقة وبقى واليًا عليها ، قائمًا بالعدل محبوبًا عند القبط وجنود العرب ، ضابطًا لبلاده أحسن ضبط ، وقد قام فى هذه المدة بكثير من الأصلاحات العظيمة ، فنظم الأدارة ونصب القضاة ورسم الخطة الأولى فى جباية الخراج ، وعُنى عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الرى ، من كرى

الخلجان وبناء مقاييس النيل وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور، فأقام لذلك العمال لا يفترون عن العمل صيفًا وشتاء.

هذه هى السياسة التى سار عليها عمرو فى مصر على نهج العدل وعدم تحميل المصريين ما لا يطيقون، وبهذه الطريقة أتيح له تنفيذ أوامره على أهون سبيل، لأنه كان دائمًا يضع مصلحة المصريين نصب عينيه، ولم يأل جهداً فى ترفيهم وجلب الخير لهم واكتساب محبتهم، فدانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته، فلم ير إحراج القبط فلا يطيعوه عملاً بالمثل القائل « إذا أردت أن لا تطاع فمر بما لا يستطاع ». وكان عمرو يأخذ من الخراج مما لا بد منه لإصلاح البلاد، ويأخذ لنفسه عطاءه، ويعطى الأعطيات لأربابها، وما يبقى يرسله إلى الخليفة

إستمر لعمرو بن العاص أمر ملك مصر فساس البلاد هذه السياسة الرشيدة، فلم يعامل القبط بمثل ما عاملهم به الروم من قبل، فلما فتح مصر لم يتعرض لهم فى شىء البتة، فأطلق لهم حرية معتقدهم وترك لهم أرضهم وأخذ على عاتقه حمايتهم، وأمنهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم، فشعروا براحة كبيرة لم يعهدوها منذ زمن طويل – ومما يدلك على حسن سياسة عمرو، إقراره قبط مصر على جباية خراج بلادهم، واهتمامه بالنظر فى أمورهم والسهر على ترفيهم، يؤيد ذلك أنه بعد إستيلائه على حصن بابليون كتب بيده عهداً للقبط بحماية كنيستهم ولعن كل من يجرأ من المسلمين على إخراج القبط منها

ومما يدل أيضًا على حسن سياسة عمرو أنه لم يفرق بين الملكية واليعاقبة من المصريين، فلم يتحيز لأحد الطرفين، فكانا متساويين أمام القانون، وأظلهما بعدله وحماهما بحسن تدبيره، ولم يتبع السياسة القائلة « فرق تسد » تلك السياسة العقيمة التى ظهر للملأ أنها تؤدى إلى أوخم العواقب. لهذا لا ينكر علينا أحد إذا قلنا إن عمرو بن العاص قد نال من السلطان فوق ما كان يتمناه، فدانت له البلاد قاصيها ودانيها وأجمعت على محبته حتى كان يقال: « ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة ».

(ى) اعتزال عمرو ولاية مصر

لم تتفق كلمة المؤرخين فى ثبوت السنة التى اعتزل فيها عمرو بن العاص ولاية مصر وتولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فقال بعضهم إن عزله كان قبل استيلاء (منويل) على الاسكندرية ، ثم استدعاه عثمان لما كتب له أهل مصر يسألونه أن يقرّ عمراً حتى يفرغ من قتال الروم ، لأن له معرفة بالحرب وهيبة فى نفس العدو فأجابهم إلى ذلك ، ومن هؤلاء المؤرخين البلاذرى (ص ٢٣١) والمقريزى (ج ١ ص ١٦٧ مأ ج ١ ص ٢٩٩) والسيوطى (ج ١ ص ٦٩) ، وقال ابن الأثير إن عزل عمرو بن العاص كان سنة ٢٦ هـ . وقال الطبرى ، إنه اعتزل سنة ٢٧ هـ . أعنى بعد استيلاء منويل على الاسكندرية .

ونحن نؤيد ما ذكره كل من الطبرى وابن الاثير لأسباب منها :

أولاً – لأن عثمان لم يسرّح عبد الله بن سعد بن أبى سرح لغزو أفريقية ، إلاّ سنة خمس وعشرين من الهجرة ، وهى السنة التى انتقض فيها الروم فى الاسكندرية

ثانيًا – ولأنه أقام على غزوها سنة وثلاثة أشهر ؛ إذ لا يعقل أن يمكث عبدالله أقلّ من هذا الزمن ، والروم فى إمداد متصلة ، والمسلمون بعيدون عن بلادهم . فمن المعقول أن تكون عودة عبد الله بن سعد إلى مصر بعد أن نفله عثمان خمس الخمس فى السنة السادسة والعشرين .

ثالثًا – وقد روى الطبرى أن عثمان بن عفان نزع عمرو بن العاص عن خراج مصر واستعمل عليه عبد الله بن سعد فتباغيا ، فكتب عبد الله بن سعد إلى عثمان يقول : أن عمراً كسر الخراج ؛ وكتب عمرو إن عبد الله كسر علىّ حيلة الحرب ، فكتب عثمان الى عمرو أن ينصرف وولى عبد الله بن سعد الخراج .

وهذه النفرة التى كانت بين عمرو وعبدالله وشكاية كل منهما من صاحبه لا بد أن تتطلب زمنًا حتى يفصل أمير المؤمنين فى الأمر .

لهذا نرى أن اعتزال عمرو بن العاص ولاية مصر كان بعد انتقاض الروم فى

الاسكندرية ، وكان فى أواخر سنة ٢٦ هـ ، أوفى أوائل سنة ٢٧ هـ ، وهو الأرجح ، لأن عبدالله بن سعد لم يتولّ مصر إلاّ بعد غزوأفريقية ، وإذا ثبت ذلك فلايعقل أن يكون اعتزال عمرو فى سنة ٢٥ هـ أو قبلها

وقد قيل فى سبب عزل عمرو بن العاص : أن عثمان أراد أن يجعله على الحرب وعبدالله بن سعد على الخراج فأبى وقال : « أنا إذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها»

وكانت سياسة عمر بن الخطاب تقضى بأن يكون الخراج والحكم فى يد وال واحد، وهذه السياسة موافقة :

أولاً – للسذاجة الأولى

ثانياً – للنظام الجمهورى عند الرومانيين

أما سياسة عثمان بن عفان فكانت تقضى :

أولاً – باختيار العمال من أقاربه ومَن بينهم وبينه صلة

ثانياً – الفصل بين الحرب والخراج ، لأجل أن يستطيع التدخل فى كل شىء ، وتضييق سلطة العمال ، وهى توافق سياسة الأمبراطرة

أما عمرو بن العاص فكان :

أولاً – متعوداً سياسة عمر .

ثانياً – وكان يحرص على أن تكون سلطته عظيمة لأنه كان طموحاً ، فلم يكن بد من أن يقع الخلاف بينه وبين عثمان الذى كان لا يشك فى خيانة عمرو ، ولا يشك فى قوته فى الحرب ، فأراد أن ينتفع بعمرو فى الحرب ، ولكنّ عمراً لم يرض هذا ، إما لأنه اعتدّها إهانة ، وإما لأنه كان يحرص على رياسة الخراج

هذا هو السبب الحقيقى فى عزل عمرو عن مصر ، أضف إلى هذا ميل عثمان لتولية مصر لعبد الله بن سعد ، لأنه كان أخاه من الرضاعة

الكتاب الثالث

عمرو منذ اعتزل ولاية مصر الى أن مات

الباب الاول

أخبار عمرو مع عثمان

غضب عمرو غضباً شديداً وحقد على عثمان لعزله إياه ، وكان ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما . ولما قدم عمرو بعد اعتزاله إلى المدينة ، دخل على عثمان وعليه جُبة يمانية محشوة قطناً فقال له عثمان : ما حشو جبتك ؟ قال عمرو : قد علمتَ أن حشوها عمرو . فقال عثمان : ولم أرد هذا إنما سألت أقطنٌ هو أم غيره ؟

ومما يدلك على شدة غضب عمرو لعزله وتولية عثمان رجلاً يعتبر نفسه أعظم كفاءة منه وأكثر تجربة ، أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأله لما قدم المدينة : كيف تركتَ عبدالله بن سعد ؟ قال عمرو : كما أحببتَ . قال : وما ذاك ؟ قال عمرو : قويٌّ فى ذات نفسه ضعيف فى ذات الله : فقال له عثمان : لقد أمرته أن يتبع أثرك . فقال عمرو : لقد كلفته شططاً . فهذا يبين شدة حنق عمرو وسخطه على عثمان وعلى واليه الجديد . لم يبق عمرو بالمدينة بل اعتزل بفلسطين فى قصره المسمى « العَجْلان » وإنما مكث يرقب الأمور ، وكأنه كان لا يشك فى أن الأمة سيكون بينها وبين خليفتها حدث ، فأشفق من الأقامة فى المدينة حتى لا يناله من هذه الثورة التى كان ينبأ بها شر ، وما كان تردده بين المدينة وفلسطين إلاّ إستكشافاً لما سيقع . على أن عثمان لم تفته إصابة رأى عمرو فكان يستشيره فى مهام الأمور ، سيما حين سعرت نار الفتنة وتفاقم شرها ، وكان عثمان يميل إلى استشارة عمرو حين كانت الامة تُمخض بشر . فقال : ما ترى ياعمرو ؟ قال : أرى أنك قد لنتَ لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان

يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتدّ فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين ، وإن الشدة تنبغى لمن لا يألوا الناس شراً ، واللين لمن لا يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعاً اللين .

وقد أقبل عثمان على عمرو بن العاص يوماً فقال : ما رأيك (فى الفتنة) ؟ قال : أرى أنك قد ركبتَ الناس بمثل بنى أمية ، فقلتَ وقالوا وزغت وزاغوا ، فاعتدل أو اعتزل ، فان أبيت فاعتزم عزماً وامض قُدُماً . فقال له عثمان : مالك قمِل فروك ، أهذا الجد منك ؟ فسكت عمرو حتى تفرّق الناس ثم قال : لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم علىّ من ذلك ، ولكنى قد علمت أن بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا لنشير عليك ، فأحببت أن يبلغهم قولى فأقود لك خيراً أو أدفع عنك شراً .

وفى رواية للطبرى أيضاً قال : لما عزل عثمان عمرو بن العاص جعل يطعن عليه فأرسل عثمان إليه يوماً فخلابه فقال : يا ابن النابغة ما أكثر قمِل جرُبّان جبتك ، إنما عهدك بالعمل عاماً أول ، أتطعن علىّ وتأتينى بوجه وتذهب عنى بوجه آخر ؟ فقال عمرو : إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون الى ولاتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين فى رعيتك . فقال عثمان : استعمالتك على ظلعك وكثرة القالة فيك . فقال عمرو : قد كنتُ عاملاً لعمر بن الخطاب ففارقنى وهو عنى راض . فقال عثمان : لو آخذتُك بما آخذك به عمر لاستقمتَ ، ولكنى لنتُ عليك فاجترأت ، أما والله لأنا أعز منك نفراً فى الجاهلية وقبل أن ألى هذا السلطان . فقال عمرو : دع هذا فالحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهدانا به ، قد رأيت العاص بن وائل ورأيتُ أباك عفان ، فوالله للعاص كان أشرف من أبيك . فقال عثمان : مالنا ولذكر الجاهلية ! فخرج عمرو من عنده وهو محتقد عليه ، فلما كان حصر عثمان خرج من المدينة حتى انتهى إلى قصره بفلسطين ، وبينا هو جالس فى قصره ومعه ابناه محمد وعبدالله وسلامة بن روح الجذامى إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسأله عمرو عن عثمان فقال : قد تركته محصوراً شديد الحصار ، قال عمرو : أنا عبد الله قد يضرط العير والمكواة فى النار ، فلم يبرح مجلسه

هذا حتى مرّ به راكب آخر، فناداه عمرو ما فعل الرجل (عثمان) ؟ قال قتل. فقال عمرو : أنا عبد الله إذا حككتُ قرحة أدميتها إن كنت لأحرض عليه حتى انى لأحرّضُ عليه الراعى فى غنمه فى رأس الجبل . فقال له سلامة بن روح : يا معشر قريش إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه فما حملكم على ذلك ؟ فقال عمرو : أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ليكون الناس فى الحق شرعًا سواء . وكانت عند عمرو أخت عثمان لأمه ففارقها حين عزله عثمان[1] اه

والذى يظهر لنا فى شأن عمرو فى فتنة عثمان أنه إنما نقم منه ما نقم الناس ، لإيثاره بنى أمية على غيرهم من جلة الصحابة ؛ ثم فضّ يده لما بلغ الهياج أشده ولم تجد نصائحه هو والصحابة عثمان نفعًا ، فظلّ كمعظم القوم يشاهد تمثيل هذه الرواية المحزنة على بعد ، ظنًا أن عثمان يخلع نفسه إذا اشتد عليه التضييق ، وعلى كل حال فلم يكن لعمرو فى هذه الفتنة إلاّ ما كان لكثير من الصحابة الذين حضروا قتله ، وانه دخل فيما دخل فيه الناس .

---

(١) الطبرى (ج ٥ ص ١٠٧ — ١٠٩ و ٢٣٣)

الباب الثانى

عمرو وسياسته مع علىّ ومعاوية

(١) لماذا انضم عمرو الى معاوية ؟

ما كاد علىّ بن أبي طالب كرم الله وجهه يتبوأ مركز الخلافة حتى اختلفت كلمة المسلمين وصاروا أحزاباً : فريق أصبح يطالب بدم عثمان ، وهو حزب الأمويين بالشام وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان ، وفريق من الثائرين قتلة عثمان الذين اختاروا علىّ بن أبي طالب يعيثون فى الأرض فساداً فيملئون القلوب خوفاً ورعباً ، وفريق أنصار السياسة الإسلامية القديمة الذى كان يتفق مع الأمويين ولكنه كان يريد أن يعود أمر الخلافة إلى ما كان عليه أيام عمر ، وعلى رأسه طلحة والزبير وعائشة

كان الزبير وطلحة قد بايعا علياً كارهين ، فنقضا بيعتهما وأرادا أن تنتقض خلافة علىّ ، لأن أهل المدينة قد أقروها وعلى رؤوسهم سيوف الثائرين . وقد رأينا أن عمرو بن العاص لم يكن راضياً عن عثمان ولا عن حكمه ، وأن مقتل عثمان لم يغضبه ولم يسخطه وربما أرضاه ، فلم يكن بد إذاً من أن ينضم عمرو إلى علىّ أو الى الزبير وطلحة (لا ينبغى التفكير فى انضمامه إلى الذين اعتزلوا الحركة السياسية كسعد ابن أبي وقاص ، لأن الرجل كان رجل عمل ومطامع) ولكنه كان من المهارة السياسية بحيث لم يشك لحظة فى أن أمر الزبير منحل ، ولكنه لم ينضم الى هذا الفريق أو ذلك الحزب ، لأنه كان لا يرجو خيراً من دولة علىّ لأن علياً كان لا يريد إلا أن يحمل الناس على رأى نفسه مدلاً بنفسه فى كل شىء ، غير معوّل على غيره فى رأى أو علم أو عمل ، وانه لا يرجى منه أن يسير بسيرة أبي بكر وعمر — تلك السيرة التى كان عمادها الشورى فى كل أمر — وأن أمثال عمرو لا يمكن أن يعتمد عليهم فى عمل أو يستعين بهم فى سلطانه ، فهو يائس من خيره ، ولأن عمراً كان قرشياً وكان ميل قريش

إلى خلافة هاشمية قليلاً جداً ، ولأنه رأى أن القوة التى على رأسها عائشة وطلحة والزبير كانت من الضعف بحيث لا تقوى على أن تغلب علىّ بن أبى طالب على أمره أو تفوز بارجاع الحال إلى ما كانت عليه فى عهد أبى بكر ، وقد ظهر له بعد قليل أن هذا الحزب قد انهزم ، فقُتل طلحة والزبير وأسرت عائشة .

وهنا غيّر عمرو بن العاص سياسته دفعة واحدة ، وأصبح فى حزب عثمان ، لأنه كان كما لا يخفى من أشد الناس دهاء ، وكان لا يعمل عملاً إلا اذا تأكد من نجاحه ، يدلك على ذلك أنه لم يسلم إلا بعد أن ظهر له ظهوراً بيناً أن محمداً صلى الله عليه وسلم سوف ينتصر ، وما كان ذهابه إلى الحبشة إلا ليرى ما يكون من أمر محمد وقريش فان كانت الغلبة لقريش كان على أولى أمره مع رسول الله ، ولم يكن قد خذل قريشاً بالقعود عن نصرتها ، ولكنهُ أسلم ودخل فى الاسلام لما رأى أن أمر النبى عليهِ السلام ظاهر على قريش لا محالة : كذلك كان حاله فى هذا الظرف ، فتبين له بثاقب رأيه و بعد نظره أن هذه الثورة لن تنتهى إلا بحدوث انقلاب فى حالة الأمة العربية ، ولم يكن عمرو بالرجل الساكن الذى يلتزم الحيدة فى مثل ذلك الظرف ، بل لا بد من دخوله فى هذه الاضطرابات وأن يكون له ضلع فيها ، عسى أن يناله من وراء ذلك ما كان يؤمل منذ زمن طويل لأنهُ كان طموحاً إلى العلا .

انتظر عمرو يرقب الأمور على بعد ، فرأى أن معاوية بن أبى سفيان لم يكن ليستكين لما يريد به علىّ ولا يستخذى لما يتوقع أن يحيق بهِ من مكروه ، وكان على ذكر من قديم الأحقاد بين البيتين ، ولم ينس معاوية أن علياً قاتل أخيهِ ومقارع أبيهِ فى مواطن كثيرة أيام الجاهلية ، وهو قريب عثمان ، فاستعان عمراً وتعاقدا على النصح والنصرة ، ومعلوم أن المصائب تؤلف بين المصابين ، والمطامع تؤلف بين الطامعين ، وكان ذلك ما يتمنّاه عمرو . فأنتج لهما الدهاء أن يطوّقا علياً إثم دم عثمان ، ليكون لهما بذلك الحجة فى مناوأته فكأنّ مقتل عثمان الذى اشتهر عمرو بالتأليب عليهِ مصدر سياسة عمرو والتزامهِ هذه الخطة : خطة المطالبة بدم عثمان .

ولكن الذى يعرف شدة دهاء عمرو لا يعجب لا لتزامه هذه السياسة ، لأن العمل مع معاوية أرجى للعاقبة وأحرى أن يلبسهُ ملابس العز ، وقد وجد من قتل عثمان مسوغاً لأن تروج دعوى معاوية ، فظاهره على أمره والرجلان (عمرو ومعاوية) لا يعتقدان فى علىّ أنهُ يريد فى خلافته العمل بما يوجب المثوبة عند الله تعالى وانما يريد أن يحكِّم الأحقاد والميول ، وقد أعانهما علىّ على نفسهِ باستبطانه قتلة عثمان واتخاذهم أعواناً .

(ب) عمرو وموقعة صفين

كان معاوية بن أبي سفيان أعظم قرابة عثمان شأناً ، وقد ولاّه الشام عمر وعثمان فنال رضاهما ، وسار سيرة مرضية ، فملك أفئدة الأهلين بحسن سياسته ، وأصبح جند الشام رهن إشارته يأتمرون بأمره وينتهون بنهيهِ .

فلا عجب اذاً إذا أبى معاوية الاذعان للعزل أو الرضى بمبايعة علىّ وشدد فى المطالبة بدم عثمان .

وكان معاوية رأساً لحزب بنى أمية الذى كان يطالب بدم عثمان ، والذى كان يرمى فى حقيقة الأمر منذ أيام عثمان إلى الاستئثار بالسلطان . ومع هذا فهذا الحزب لم يجهر بشىء من هذه الأطماع وإنما انتحل أعذاراً ظاهرة تسيغ له أن يقف من علىّ موقف المحارب ، أضف إلى هذا أن العداء بين بنى هاشم وبنى أمية قديم فى الجاهلية ، وأن الاسلام زاد هذا العداء ، فان بنى حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من على ، كما أن بنى هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد ، والعداء بين بنى هاشم وبين أبى سفيان معروف باقى الأثر . وهذه الأعذار التى انتحلها معاوية هى :

(١) أن معاوية كان يتهم علياً بشىء من أمر عثمان

(٢) ولأن علياً آوى قتلة عثمان

(٣) ولأنه كان بين الرجلين نفور أدى الى أن علياً رأى من أول واجباتهِ عزل معاوية عن الشام – وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الامارة والعزة .

وبعــد انتصار عليّ بن أبي طالب فى يوم الجمل توجه الى الكوفة ووجه جرير ابن عبد الله البجَلى الى معاوية يدعوه إلى بيعتهِ، وزوده بكتــاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والانصار على بيعته، ونكث طلحة والزبير وما كان من أمرهما، ويدعوه إلى الدخول فى طاعته. فماطله معاوية واستنظره وكتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد فانهُ كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك، فقد قدم عليّ جرير بن عبد الله فى بيعة عليّ وحبست نفسى عليك حتى تأتينى فاقدم على بركة الله تعالى (اليعقوبى ج١ ص٣١٥)

فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا ابنيه عبد الله ومحمداً، واستشارهما فى هذا الأمر، فقال له عبد الله: أيها الشيخ، إن رسول الله قبض وهو عنك راض، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فلا تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية، وقال له محمد: بادر إلى هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنبًا. قالوا: فأنشأ عمرو يقول:

تطاول ليلىَ للنجوم الطوارقِ ... وخوف التى تجلو وجوه العواتق
فان ابن هند سالنى أن أزوره ... وتلك التى فيها بنات البوائق
وقد قال عبد الله قولاً تعلقت ... بهِ النفس إن لم يعتقلنى عوائق
وخالفهُ فيــهِ أخوه محمــد ... وإنى لصُلْب العود عند الحقائق

ولمــا قدم عمرو على معاوية أشار عليهِ أن يُلزم علياً دم عثمان وأن يحاربهُ بجند الشام إذا أبى[1]

قال اليعقوبى: قال معاوية: مدّ يدك فبايعنى. فقال عمرو: لا لعمر الله لا أعطيك دينى حتى آخذ من دنياك. فقال له معاوية: لك مصر طعمة، وطلب من عمرو أن يبيت عنده ليلته مخافة أن يفسد عليه الناس ففعل، وقال عمرو:

معاوىَ لا أعطيك دينى ولم أنل ... به منك دنيًا فانظرَنْ كيف تصنع
فان تعطنى مصراً فأربحْ بصفقة ... أخذتَ بها شيخاً يضر وينفع

(١) هذا ما ذكره الطبرى، وهو يخالف ما ذكره اليعقوبى من أن عمراً أشار على معاوية بأن لا يذكر عثمان لأن معاوية خذله. وأما عمرو فقد تركه عياناً وذهب الى فلسطين

ويظهر أن هذه الأبيات والتى قبلها ، وما يقال من أمثال هذا الكلام نثر ، مصنوع من خصوم عمرو ومعاوية ، ليظهروهما بمظهر المكابر للحق الراغب فى الدنيا ومتاعها المستسهل للجور العامل على الدفع فى صدر الحق نظير متاع قليل .

فكتب له معاوية بمصر شرطاً ، وختم الشرط بعد أن بايعه عمرو وتعاهدا على الوفاء (اليعقوبى ج ١ ص ٢١٦) .

رجع جرير إلى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأخبره بحال معاوية وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذين هالهم قتل عثمان ، فبكوا واستبكوا حين رأوا قميصه الذى قتل فيه مخضباً بدمهِ واليهِ إصبع زوجهِ نائلة وكانت معلقة فيه . وضع معاوية الثوب على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد فآلوا على أنفسهم أن لا يهدأ بالهم حتى يأخذوا بثأر عثمان ولو فنيت أرواحهم على بكرة أبيهم ، وأجمعوا على قتال علىّ اعتقاداً منهم أنه هو الذى قتل عثمان وآوى قتلته .

أما مبايعة عمرو لمعاوية حين قدم عليه فشىء لا يمكن تصديقه ، لأنه كيف يعقل أن يبايعه بالخلافة فى مبدأ الأمر وجو السياسة لا يزال مكفهراً ، وعلىّ قد أحرز النصر المبين فى واقعة الجمل ، وعزم على الزحف على الشام لانتزاعها من معاوية ، ولم تخف على عمرو أحقية علىّ بالخلافة بعد عثمان وشجاعته فى الطعن والنزال . فهل يتوهم متوهم أن السذاجة قد بلغت بعمرو أن يكون أول من يبايع معاوية ، وحالة الامة السياسية فى ذلك الظرف المقلق لم تكن لتخفى عليه ؟ والظاهر أن هذه المبايعة التى زعمها المؤرخون ليست إلاّ تحالفاً واتحاداً على التعاون ، فان معاوية كان يهمه كثيراً أن تكون مبايعة عمرو له علانية أمام وجوه أهل الشام وغيرهم ممن ينتصرون له ليكون لهم قدوة فى البيعة ، وهذا ما لم يقله أحد من المؤرخين فيما وقفنا عليه من كتب التاريخ ، فلم يذكروا فى أى مكان وقعت بيعة عمرو لمعاوية ، وأمام أى ملأ من الناس ، بل تركوا هذه النقطة مبهمة غامضة مع أهميتها .

بلغ علياً أن معاوية قد استعد للقتال ومعهُ أهل الشام ، فسار من الكوفة إلى صفين

فى تسعين ألفاً لخمس بقين من شوال سنة ٣٦ هـ ، وسار معاوية من الشام فى خمسة وثمانين ألفاً على مارواه المسعودى ، وعسكر فى موضع سهل على الفرات ، وبات علىّ وجيشه فى البر عطاشا قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : إن علياً لا يموت عطشاً هو وتسعون ألفاً وسيوفهم على عواتقهم فدعهم يشربون وتشرب . فقال معاوية : لا والله أو يموتوا عطشاً كما مات عثمان ، فقال أحد جند علىّ :

أيمنعنا القومُ ماء الفرات وفينا الرماح وفينا الجُحف

وفينـا علىّ له صولة إذا خوّفوه الردى لم يخف

ونحن غـداة لقينا الزبير وطلحة خضنا غمار التلف

فما بالنا أمس أسد العرين وما بالنا اليوم شاة النجف

فندب اليهم علىّ قوماً فأجلوا رجال معاوية عن الماء ، فأرسل اليهِ معاوية يستأذنه فى وروده فأذن لهم ! وبعد يومين من نزول علىّ على هذا الموضع ، بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة والدخول فى جماعة المسلمين وطالت المراسلة بينهما فاتفقا على الموادعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧ هـ ، ولم يتفقا فى غضون هذه المدة على شىء ، ودارت رحى الحرب بينهما من جديد(١)

ومن اطلع على ما كان من أمر سفراء علىّ واشتدادهم على معاوية ، وكذا اشتداد سفراء معاوية على علىّ ، لا يسعه إلاَّ أن يحكم بأن عدم نجاح هؤلاء المندوبين كان راجعاً لقلة خبرتهم بالسياسة وشدة ميلهم الى الحرب مما أفسد القلوب وزاد الفرقة . والذى يظهر من رواية الطبرى أن رسل علىّ إلى معاوية كان فيهم غطرسة ، فكانت كلمات الشر والتفريق والتغالى تبدر من ألسنتهم ، ولم يكونوا ليصلحوا رسل صلح ، فكان معاوية يسيء الرد عليهم — والظاهر أن القوم قد ثملوا بالانتصار على أهل الجمل بالبصرة فظنوا أن ينالوا من جيش معاوية ما نالوا من جيش عائشة .

ولما انقضى المحرم أعادوا القتال سيرته الأولى ، فلما كان اليوم الأول من صفر

---

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج ١ ص ١٧٢) ومروج الذهب للمسعودى (ج ٢ ص ١٤ — ١٥) بتصرف

سنة ٣٧ للهجرة ، ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه ، بل كان كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال عليّ لجنده : حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا ؟ فباتوا يصلحون أمرهم ، وفى ذلك يقول الشاعر

أصبحتِ الامة فى أمر عجبْ والأمر مجموعٌ غداً لمن غلبْ
فقلتُ قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العربْ

واشتعلت نار الحرب بين الفريقين ، أياماً متوالية ، حتى كان اليوم الذى قتل فيه عمار ابن ياسر فاشتدت الحرب بعد مقتله وزحف أصحاب عليّ ، وظهروا على جند معاوية حتى الصقوهم بعسكره ، وأشرف عليّ على الفتح ، فدعا معاوية بفرسه ونادى أهل الشام : الله الله فى الحرمات والنساء والبنات ، وقال معاوية « هلم مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا » غير أن عمرو بن العاص عمد بما أوتيه من فنون الدهاء إلى تغيير الحال رأساً على عقب وتحويل النصر إلى جانب معاوية ، وان ذكرى موقعة صفين لاتزال ترجف لاسمه هيبة ، فبعد أن كادت الدائرة تدور عليه لم يثن ذلك من عزيمة عمرو ، وسرعان ما ابتكر من ضروب الحيل ما أوقع بجند عليّ ، فانقسموا على أنفسهم وغلبوا على أمرهم حيث قال عمرو : « أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه » فرفعوا المصاحف وقال قائلهم « هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم » فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا : «نجيب إلى كتاب الله» ، وانما رمى عمرو بحيلته هذه التى هدت عزائم الجحافل وبددت آمال عليّ على ما نرى إلى أمرين :

الأول : أن يكسر من حدة جند عليّ وحميتهم ، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار :

الثانى : أن يفرق بينهم ويفتّ فى عضدهم فيكفوا عن قتالهم .

رغب أهل العراق فى الموادعة فنصح لهم على أن لا يغتروا بقول أصحاب معاوية لأنه ليس إلاّ خديعة ، فأبوا وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال ، فأرسل اليه فقال الأشتر للرسول « ليس هذه الساعة التى ينبغى أن تزيلنى فيها عن موضعى ،

قد رجوت أن يفتح لى فيها فلا تعجلنى » فرجع الرسول بالخبر فما انتهى اليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر فقال له القوم « والله ما نراك إلاّ أمرته أن يقاتل إبعث اليه فليأتك و إلاّ والله اعتزلناك »

فقال علىّ للرسول : « ويحك ! قل للأشتر أن يقبل فأن الفتنة قد وقعت » فلم يسعه إلاّ المجىء وترك ساحة الحرب . ثم أرسل علىّ الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فقال له معاوية « نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله فى كتابه ، تبعثون منكم رجلاً ترضونهُ ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله » ثم رجع الأشعث إلى علىّ فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا .

فاختار أهل الشام عمرو بن العاص ، وقال أهل العراق : قد رضينا أبا موسى الأشعرى . فقال علىّ « قد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن » و بين لهم تخوفه من أبى موسى لأنهُ كان يخذل الناس عنهُ ، فأبوا إلاّ أياه ، فاضطر للسير على ما رأوا وهو مكره[1] . وكان من نتائج هذه السياسة ما سنفصله

(د) عمرو والتحكيم

(ا) عقد التحكيم : اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى بدومة الجندل حيث كتبا عقد التحكيم فى شهر صفر سنة ٣٧ ه . وهذه صورة الكتاب منقولة عن الطبرى (ج ا ص ٣٣ — ٣٤)

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليهِ علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، قاضى علىّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، و إن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحتهِ إلى خاتمتهِ نحيي ما أحيا ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل ،

(١) انظر اليعقوبى (ج ١ ص ٢١٨ — ٢١٩) ، والمسعودى (ج ٢ ص ٢٠ الى ٢٢) ، والامامة والسياسة لابن قتيبة (ج ١ ص ٢٨٧)

وهما أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشى عملاً به ، وما لم يجدا فى كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة : وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه . وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة ، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ، فان الأمن والإستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرادها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا ، وأجل القضاء إلى رمضان ، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما ، وإن توفى أحد الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه ، ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط ، وأن مكان قضيتهما الذى يتقاضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلاّ من أرادا ، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة ، وهم أنصار على من ترك ما فى هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً ، اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة اهـ

ويلى ذلك أسماء الشهود من الطرفين . — ١٥ صفر سنة ٣٧ هـ

اجتماع الحكمين (عمرو وأبو موسى) ونتائج التحكيم

لم ينته بعد الدور الذى لعبه عمرو بن العاص فى موقعة صفين ، فلم يكن بد من تنفيذ الخطة التى رسمها له دهاؤه المعروف بعزل على بن أبى طالب وتثبيت معاوية بن أبى سفيان وليس من شك فى أنه قضى وقته فى ابتكار ضروب الحيل للايقاع بأبى موسى والوصول الى غايته ، حتى إذا ما حان اجتماع الحكمين بعث علىّ بن أبى طالب أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثى وعبد الله بن العباس يصلى بهم ويلى أمورهم ، وأبو موسى الأشعرى معهم ، وبعث معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل . وقد ذكر المسعودى انه لما دنا وفد علىّ من موضع

الاجتماع قال عبد الله بن العباس لأبي موسى: «إن علياً لم يرض بك حكماً لفضل غيرك والمتقدمون عليك كثيرون، وأن الناس أبو غيرك، وإني لأظن ذلك لشر يراد بهم، وقد ضم داهية العرب معك، إن نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة؛ وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة» ووصى معاوية عمراً فقال: «يا أبا عبد الله إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبي موسى وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم اليك رجل طويل اللسان قصير الرأي، فأخذ الجد ولا تلقه برأيك كله». ووافى عمراً سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، والمغيرة ابن شعبة، وغيرهم من جلة الصحابة الذين تخلفوا عن مبايعة عليّ، ولم يغمسوا أيديهم في الفتنة.

وإنا نقف مما ذكره المسعودي على أربعة أمور:

(١) إن علياً أكره على اختيار أبي موسى فلم يثق به لأنه فارقه وخذل الناس عنه وفعل أشياء سنذكرها في محلها، أما معاوية وأهل الشام فكانوا راضين بعمرو

(٢) لم يكن أبو موسى بالرجل الذي يقف أمام داهية العرب (عمرو) هذا الموقف الذي يحتاج الى الحنكة في السياسة، وابتكار ضروب المكر والدهاء أكثر مما يحتاج إلى استقصاء مسائل الدين

(٣) انه قد تخلف عن مبايعة عليّ كثيرون من جلة الصحابة، من أمثال عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص، والمغيرة بن شعبة داهية السياسة، وأمثال هؤلاء الرجال لا يستهان بهم

(٤) ان ما قاله عبد الله بن العباس لأبي موسى لم يكن من شأنه أن يرضيه ولا أن يبعثه على الإخلاص والشدة في نصر عليّ

إجتمع الحكمان في شهر رمضان سنة ٣٧ هـ، وفي هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره، وظهرت للملأ مقدرة هذا الرجل السياسية وما أوتيه من حذق وذكاء، يؤيد ذلك ما نذكره مما دار بينه وبين أبي موسى من أطراف الحديث،

وكيف استدرجه حتى وافقه أبو موسى على خلع عليّ ، وكيف أثبت موكله معاوية بن أبي سفيان . قال المسعودى فى « مروج الذهب » قال عمرو : يا أبا موسى رأيتُ أول ما تقضى به من الحق أن تقضى لأهل الوفاء بوفائهم وعلى أهل الغدر بغدرهم (ومن هنا نعلم لمن يريد أن يقضى عمرو) ، فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه وذكر الحدث الذى حلّ بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال : يا عمرو هلم الى أمر يجمع الله فيه الألفة ويلم الشعث ، ويصلح ذات البين ، فجزاه عمرو خيراً وقال : إن للكلام أولاً وآخراً ، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله ، فاجعل ما كان من كلام نتصادر عليه فى كتاب يصير اليه أمرنا . فقال أبو موسى : فاكتب . فدعا عمرو بصحيفة وكاتب وكان الكاتب غلاماً لعمرو . فتقدم اليه ليبدأ به أولاً دون ابى موسى لما اراد من المكر به ، ثم قال له بحضرة الجماعة : اكتب فانك شاهد علينا ، ولا تكتب شيئاً يأمرك به احدنا حتى يستأمر الآخر فيه ، فاذا امرك فاكتب ، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا . اكتب

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص ، تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (ثم قال عمرو) : نشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله اليه ، وقد أدى الحق الذى عليه (قال أبو موسى « اكتب ») ثم قال فى عمر مثل ذلك (ثم قال عمرو « اكتب ») : وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين ، وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى منهم وأنهُ كان مؤمناً (فقال أبو موسى « ليس هذا والله مما قعدنا له ») . قال عمرو : والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً . قال أبو موسى : اكتب . قال عمرو : فظالماً قُتل أو مظلوماً ؟ قال أبو موسى : بل قتل مظلوماً . قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطاناً يطلب بدمه ؟ قال أبو موسى : نعم .

قال عمرو : فهل تعلم لعثمان وليًا أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى : لا . قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه ؟ قال أبو موسى : بلى . فقال عمرو للكاتب : اكتب . وأمره أبو موسى فكتب . قال عمرو : فأنا نقيم البينة على أن عليًا قتل عثمان . قال أبو موسى : هذا أمر حدث فى الاسلام وانما اجتمعنا لله فهلم إلى أمر يصلح الله به أمة محمد قال عمرو . وما هو ؟ قال أبو موسى : قد علمتَ أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لا يحبون عليًا أبداً ، فهل نخلعهما جميعًا ونستخلف عبد الله بن عمر ؟ فعمد عمرو إلى كل ما قاله أبو موسى فصوَّبه وعدّد له جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر ، فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعًا اهـ

ويظهر للمتأمل فيما كتب فى هذه الصحيفة التى وافق أبو موسى على كل ما شملته واقراره بأن عثمان قتل مظلومًا ، وأن لمعاوية الحق فى أن يطلب بدمه المسفوك ، وأن عليًا قتله بدليل ايوائه قتلته (ولو أن ايوائه لهم ليس دليلاً قطعيًا بأنه هو قاتله ، ولكن إلى أبعد من هذا ذهب أعداؤه) بحيث أن من أراد أن يبدى رأيه فيما يقف عليهِ مما دوّن بهذه الصحيفة بحسب ما نرى ، يكون ارتيابه فى علىّ اكثر منهُ فى معاوية ، وما ذلك إلا من جراء تفوق عمرو على نظيره في ذلك الاجتماع التاريخي الهام تفوقًا جعله يقرّ بكل ما كان يرمى اليهِ عمرو ، حتى تمكن هذا من تنفيذ غرضهِ والوصول إلى غايته ، وهى خلع علىّ بن أبى طالب وتثبيت معاوية بن أبى سفيان . ولا يفوتنا أن عمراً انما أراد أن يقدّم أبا موسى عليهِ فى الكلام ليكون الخلع من جانبهِ اولاً ، ثم يكون لعمرو الخيار فى ان يخلعهما معًا او يخلع عليًا ويثبت معاوية كما سيأتى :

قال الطبرى : قال عمرو : (بعد أن عدّدا أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة وأبى الفريقان) : ما رأيك ؟ قال أبو موسى : رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختارون لأنفسهم من أحبوا . فقال له عمرو : إن الرأى ما رأيتَ وقال : يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . فتكلم أبو موسى :

إن رأيي ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجوا أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة. فقال عمرو: صدق، تقدمْ يا أبا موسى فتكلم. فتقدم أبو موسى ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولمّ شعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأيه عليه، وهو أن نخلع عليًا ومعاوية فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وإنى قد خلعت عليًا ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً. ثم أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال: ان هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولىُّ عثمان بن عفان رضى الله عنه، والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه، فتنابزا وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة؛ ثم انصرف أهل الشام الى معاوية وسلموا عليه بالخلافة. (١)

ونحن نشك فى هذا ونميل الى ما قاله المسعودى وهو (ج ١ ص ٣٧) انه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب فى الصحيفة. واقرار أبى موسى بأن عثمان قتل مظلومًا وغير ذلك، وأنهما لم يخطبا وانما كتبا صحيفة فيها خلع علىّ ومعاوية، وأن يولى المسلمون من أحبوا.

وهنا تظهر قيمة عمرو السياسية فانه لم يكن يرمى مباشرة الى استخلاف معاوية، لأنه كان يعلم أن هذا أمر لا ينال الا بالسيف وانما كان يرمى:

أولاً: إلى أن يكسب له من الوقت ما يمكّنه من جمع جيشه وتقويته ولمّ شعثه، وكان يعلم أن جيش علىّ متخاذل، وقد وفق فى هذا كله فتخاذل جيش علىّ. وليس أدل على ذلك من خروج الخوارج ومن عجز علىّ بعد انقضاء الهدنة عن تسريح جيش لقتال معاوية

---

(١) روى الطبرى أن عبد الله بن العباس قال لابى موسى حين أراد عمرو أن يتقدمه أبو موسى: ويحك إنى والله لاظن عمراً قد خدعك إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الامر قبلك ثم تتكلم أنت بعده فأن عمراً رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى فيما بينك وبينه فاذا قمت فى الناس خالفك.

ثانيًا : وكان يرمى عمرو الى أن يسوّى بين علىّ ومعاوية بأن يجرد عليًا من صفة الخلافة التى كان يدّعيها ، وقد وصل إلى ذلك باتفاقه مع أبى موسى على خلع الرجلين وجعل الأمر شورى بين المسلمين . ولم يكن عمرو يشك فى أن عليًا لن يقبل هذا الحكم وفى أن أهل العراق لن يقبلوه أيضًا ، ولكنهُ كان يشك فى أنه سيكسب طائفة القراء والمتورعين ، وربما كسب الصحابة الذين اعتزلوه ، وليس هذا بالشىء القليل

وعلى كل حال فاستخلاف معاوية بن أبى سفيان توقف بلا ريب على ما كان بين عمرو وأبى موسى من البون الشاسع فى المقدرة السياسية ودرجة إخلاص كل منهما، وما أوتيه عمرو من المكر والدهاء والمكيدة التى اشتهر بها لدى العرب كافة

أما من حيث إخلاص كل من الرجلين وتفانيهما فى نصرة صاحبيهما فعمرو بن العاص قد اختاره معاوية لاعتقاده بقدرته وحنكته فى تذليل أمثال هذه الصعوبة ، ورضى به أهل الشام عن طيبة خاطر ، واكره علىّ على اختيار أبى موسى ، ولم يكن ليرضى به حكماً لأسباب منها :

أولاً : لأنه كان يعلم علم اليقين أن مثل أبى موسى لا يقوى على مناظرة داهية العرب وأنه مغلوب على أمره لا محالة ، ذلك لان أبا موسى رجل دينى لم يذق للسياسة طعماً ، وهذه المسألة فضلاً عن كونها دينية بحتة إلاّ أنها تحتاج إلى الحنكة والدراية بالأمور السياسية اكثر مما تحتاج إلى الإلمام والتعمق فى أصول الدين ، فكانت النتيجة خذلانه وتفوق عمرو عليه (١)

ثانيًا : كذلك لم يكن علىّ ليرضى بأبى موسى حكماً لأنه ليس بثقة ، فقد فارقه وخذل الناس عنه حين جاءه أهل الكوفة يستشيرونه فى الخروج مع علىّ فقال لهم : أما سبيل

---

(١) وفى ذلك يقول عبد الله بن عباس :

أبا موسى بليت وكنت شيخاً ... قريب القعر مخزون اللسان
وما عمرو صفاتك يا ابن قيس ... فيا لله من شيخ يمانى
فأمسيت العشية ذا اعتذار ... ضعيف الركن منكوب العنان
تعض الكف من ندم وماذا ... يرد عليك عضك للبنان

الآخرة فإن تقيموا وأما سبيل الدنيا فإن تخرجوا . وقال : أما والله إن بيعة عثمان رضى الله عنه فى عنقى، فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان إلاَّ قتلوا حيث كانوا — وأبو موسى رجل يكره الفتن كما يظهر من قوله لأهل الكوفة : ولا تكلفوا الدخول فى هذا فإنها فتنة صماء : النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فاغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر . وتنجلى هذه الفتنة — وغير ذلك من الأقوال التى تثبط الهمم وتضعف العزائم . و يظهر أن تثبيط أبى موسى الناس عن علىّ كان لتوهمه إيواءه قتلة عثمان ، فكان يرى ضرورة قتل هؤلاء النفر ووجوب قتالهم شرعًا ، كما يتبين من إحدى خطبه من قوله : فثبطوا أيها الناس واجلسوا فى بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وكانت نتيجة توقف أبى موسى عن استنفار الناس للجهاد أن غضب عليه علىٌّ ابن أبى طالب فعزله « مذمومًا مدحوراً » كما جاء فى كتاب العزل .

ومما ذكرنا يعلم أن الرجلين مختلفان فى المبدأ ، فعلىّ يرى أن أبا موسى قد خانه ، وهذا يرى أن عليًا لا يجوز نصره إلا بعد ان يقتل قتلة عثمان . وما دامت الصلة بينهما على هذه الحال ، فأى حكيم عاقل يتصور أن يكون أبو موسى الذى طالما ثبط الهمم بالأمس عن مساعدة علىّ ظهيراً له اليوم مع ما يضمره كل من الرجلين من الحقد والكراهية للآخر ، سيما أن أبا موسى يرى أن عبد الله بن عمر أليق بالخلافة ، وما دام هذا رأيه فلا ينتظر منه غلبًا عليها .

هذه كانت ميول أبى موسى نحو علىّ ، وتلك كانت علاقته به ، وليس الأمر كذلك بين عمرو ومعاوية . فعمرو يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته و يتفق معهُ فى الغرض الذى كان يرمى اليهِ وهو المطالبة بدم عثمان ، وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وحنكته التجارب فلا يهمهُ إلاّ الوصول إلى مقصوده مهما استعمل فى سبيل

ذلك من الخدع، وابتكر من ضروب الحيل – ومثل هذين لا يتفقان . ولا أدل على تقدير كل من الرجلين وما ينتظر أن يكون من أمرهما من قول معاوية لعمرو : «وأنا وأهل الشام راضوان بك، وقد ضم اليك رجل طويل اللسان قصير الرأى » وقول عبد الله ابن العباس لأبى موسى : «إن عليًا لم يرض بك حكمًا وقد ضم داهية العرب معك » .

على أن المؤرخين يظلمون أبا موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأى ، وأما نحن فنعتقد أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم وصادف أن خالف رأيه رأى علىّ وبنى هاشم، فكان هذا مصدر سوء حظه، وليس من شك فى أن رأى أبى موسى كان رأى طائفة عظيمة من معاصريه

ولم يكن ما قام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافيًا وحده لتثبيت ملك صاحبه، بل كانت هناك أمور جديرة بالذكر والاعتبار منها :

الأول : إضطراب حالة جند علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، الذى أراد معاودة الكرة على معاوية . ولكن ماذا كان يصنع وقد أصاب جنده خلل واضطراب فاختلفوا على أمرهم وخرجت من بين صفوفه الخوارج، ولم يكن من شيعته إلاّ أن تسلل رجالها من معسكرهم فأصبح المعسكر خاليًا ؟ ولما دخل الكوفة ودعا رؤساءهم ووجوههم وسألهم عن رأيهم فمنهم المعتل، ومنهم المكره، وأقلهم من نشط حيث فضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التى كادت تستأصلهم، فكان هو وجنده كما قال أخو هوازن :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلاّ ضحى الغد
فلما عصونى كنتُ منهم وقد أرى مكان الهدى أو أننى غيرُ مهتد

الثانى : إتحاد جند معاوية – أما حال أهل الشام مع معاوية فكانت على العكس من ذلك، جند مطيع وقلوب متحدة، وفى هذا كفاية لمن يريد العظائم، ولذلك كان شأنه دائمًا فى علو .

ولعلّ كثيراً من جند علىّ إنما تخاذلوا عن نصره بعد ما كان من الحكم وبعد ما اعتقدوا أنهم غير مكلفين نصره، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجهروا بذلك، لأن أنصار علىّ من الثائرين بعثمان كانوا ذوى بأس .

وكان من أثر تلك القوة المتحدة التى كانت مع معاوية بن أبى سفيان أن تمكن هذا من سلخ ما كان تحت سلطان علىّ بن أبى طالب شيئًا فشيئًا حتى فاجأته يد المنون سنة ٤٠ للهجرة .

والذى نراه فى هذه المسألة الدقيقة أنهُ مع إقرارنا لعمرو بن العاص بالدهاء والقدرة على النكاية بعدوّه ، أنهُ بعمله هذا لم يصب عليًا وحده ، ولا جند المسلمين فحسب ، ولكنهُ أصاب الاسلام وزاد كلمة المسلمين تفريقًا ، فان عمله هذا هو الذى خلق مذهب التحكيم ، وأوجد الخوارج الذين كانوا أعداء لعلىّ ومعاوية على السواء . وقد مكث الاسلام يعانى من البلاء بهم شيئًا كثيرًا . وكل هذا نتيجة لعمل عمرو — ولم يكن من الصعب عليهِ أن يجد حلاً لما بين علىّ ومعاوية من أول الأمر تحقن بهِ الدماء وتصان الكرامة وتجتمع عليهِ الألفة ويكون له فخره بين الأمة قاصيها ودانيها على مر الدهور

ونحن نعتقد كل الاعتقاد أن عمرو بن العاص كان قادراً على ذلك لو شاءه ، ولكن الرجل كان لا يأمل أن ينال مع علىّ ما يرغب ، فجشم المسلمين الأهوال وحملهم هو ومعاوية على مركب وعر ، ولم يباليا فى سبيل مآربهما بما حملا عليه الناس . وقد وجد عمرو من قتل عثمان مسوغًا لأن تروج دعوى معاوية فظاهره على أمره . ولو تريث على كرم الله وجهه وصنع ما تقضى به السياسة من إرضاء المسلمين وعدم عزل ولاة عثمان وقتل قتلته ، لكى يدفع عن نفسه الريب فلا يجد معاوية داعيًا قويًا كهذا يبرر رفضه بيعة علىّ ودعوة أهل الشام لحربه باسم الدين . ولا يمكن أن نعتقد أن معاوية كان بعمله هذا يريد إحقاق الحق ، بدليل أنهُ سكت عن المطالبة بدم عثمان ولم يتتبع بقية قتلته حين أفضت اليه الخلافة ، ولم يمده حين كان محصوراً بالمدينة ، فكأنه كان ينتظر قتله إلاَّ أنه إنما جعل المطالبة بدمه سبيلاً إلى الخلافة ، فلما حصل عليها سكن ثائره ، وما قيل فى معاوية يقال فى عمرو فأنه لما تولى معاوية ، كان أول ما طلب منه الاستيلاء على مصر والولاية عليها .

هذا ما نراه أقرب إلى المعقول فيما وقفنا عليهِ — ورب قائل يقول : إن تبعة ما وقع

من عمرو يوم صفين وفى يوم التحكيم واقعة عليهِ لا محالة . فنجيب بأن الذنب ليس ذنبهُ بل هو ذنب الذين خالفوا عليًا ولم يتبعوا رأيه ، وقد كان قابْ قوسين أو أدنى من الانتصار — على أن عمراً ذلك الرجل الفذ إنما أراد أن يصل الى غايتهِ من أى طريق يسلكه مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع والدهاء التى امتاز بها على العرب كافة . وقد أدى لصاحبـهِ حق الخدمة ، وعمل بما تقضى بهِ صفة الدهاء والسياسة الموصوف بهما ، بينما لم يبلغ هذه الصفة أبو موسى الذى كان يرى عدم نصرة علىّ واجبًا شرعًا ما دام قتلة عثمان فى صفوفه .

وإن كنا قد أنحينا باللائمة على كل من عمرو ومعاوية لاتباعهما هذه السياسة التى أدت إلى خلع علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأن تدخلهما كان لأغراض شخصية وأهواء ، وان دهاء عمرو قد ساعد على تحقيق غرضه ، والوصول الى غايته ، فلا ينبغى أن يعزب عن بالنا أمرٌ على جانب عظيم من الأهمية ، وهو أنهُ نظراً للحالة السياسية التى وصلت اليها الأمة العربية فى ذلك الزمن ، كان لا بد من حدوث هذا التغيير إما على أيدى عمرو ومعاوية، أو على يد غيرهما . وكل ما يقال فى عمرو ومعاوية . ان الظروف قد تهيأت لهما فاستفادا منها فوجدا من قتل عثمان سبيلاً إلى إحداث هذا التغيير الذى حصل فى الواقع من جهتين متباينتين .

الأولى : جهة عربية خاصة : وهى أنهُ لما تولى عثمان بن عفان الخلافة طمع بنو أمية فى أن يستردوا سلطانهم على قريش ، ولو تم لهم ما أرادوا لاستقر سلطانهم على الأمة الأسلامية بأجمعها . وقد تولى منهم عثمان وولىّ ذوى قرباه على الامصار بحيث لو طالت خيانه لنجح بنو أمية فيما كانوا يرمون إليه ، وهو انتزاع الخلافة من بنى هاشم وحصرها فى بنى أمية ، وكان معاوية كما لا يخفى أقوى بنى أمية فى ذلك العصر ، ومعه جند الشام وهم أقوى أجناد العرب يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه فاتخذهم سلاحًا لتنفيذ أغراضه .

الثانية : جهة عامة : وهى أن العرب بالتقائهم مع الامم المقهورة سواء أكانت تلك الأمم فارسية أم أممًا خاضعة للحكومة البيزنطية ، أخذوا عنهم نظم الحكم وحاولوا تقليدهم

فى الخضوع لنظام ملكى فلم يكن بد حينئذ من أن تتأثر هذه الأمة البدوية بهذه الأمم المتحضرة، كالأمة الرومانية وأهل مصر والشام وغيرها. وبعضهم كانوا يتأثرون بهذا المبدأ ويرغبون فى أن يؤسسوا الحكم الامبراطورى الذى يلائم الحالة التى أصبحت فيها بلادهم، وقد اتسع ملكهم وكبر سلطانهم، بحيث أصبحت نظم الحكم التى كانت مألوفة فى أيام أبى بكر وعمر غير صالحة لهذه الأمبراطورية الضخمة المتألفة من شعوب مختلفة فى الجنس والعادة والخلق والدين وسائر أنواع الحياة(١) هذه النظم التى كانت محصورة فى دائرة ضيقة هى مكة والحجاز وبلاد العرب: وهذا هو حزب الأرستقراطية وهم زعماء الأمة العربية على العموم، وأعظم ممثل لهؤلاء الزعماء هم بنو أمية.

لهذا لم يكن بد إذاً من انقسام العرب الى قسمين:

الأول: قسم يدافع عن المذهب الموروث، مذهب الحرية ذى النظام البدوى البسيط كالذى كان فى عهد أبى بكر وعمر — ذلك النظام الذى ما كان يصلح إلا فى أيامهما، لا فى ذلك العصر وقد تطورت الأمة العربية تطورات عديدة ومرّ بها أدوار سياسية كبيرة.

الثانى: قسم يدافع عن المذهب الجديد، مذهب تأسيس امبراطورية إسلامية ذات نظام يلائم الحالة التى وصلت إليها الأمة العربية.

والنتيجة الطبيعية لكل ذلك هى:

أولاً: وقوع الحرب

ثانياً: انتصار أصحاب المذهب الجديد الذى يؤيد زعماءه من العرب أهلُ الشام والفرس، على أصحاب المذهب القديم الذى يميل اليه كثيرون من أهل بلاد العرب

---

(١) لا ينبغى أن يعترض بأن هذه الامبراطورية كانت عظيمة فى عهد عمر. فان عمر لم يزد على أن افتتح وحاول تثبيت الفتح وتنظيمه. ولو قد طالت حياته لرأى هذا التغيير، وربما كان استطاع لرجاحة حلمه وحسن سياسته أن يطب للامر وأن يحدث هذا التغيير من غير اخلال بالنظام الاجتماعى الاسلامى. على أن من تفقه التاريخ وتدبر حوادثه لم يشك فى أن قتل عمر نفسه إنما كان مقدمة من مقدمات هذه الثورة التى لم يكن منها بد

ولا سيما أشد أصحاب النبي عليه السلام تورعًا وحرصًا على السنة الموروثة ، كسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وغيرهما ممن اعتزلوا الفتنة .

وإن التاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، فقد دخلت الرومان فى نفس هذه التطورات حين إمتدت فتوحهم فى آسيا وأفريقية وأوربا وعظم ملكهم ، فقامت الحروب الاهلية التى انتهت بأحلال النظام الامبراطورى محل النظام الجمهورى القديم .

أما ما كان من أمر عمرو ومعاوية ، فقد أفادتهما هذه الظروف التى خدمت معاوية بقتل عثمان فتلمس المعين على مناوأة علىّ وتذرع بالباسه جناية عثمان ، ووجد عمرو سبيلاً الى معونة معاوية لأغراض بيناها ، فتم التغيير على أيديهما — وذلك لا بد من حدوثه — ولو كف عمرو ومعاوية أيديهما عن القيام به لقام به غيرهما من العرب

هذا ما يمكن أن يقال عن سياسة عمرو مع معاوية وتدخله فى أمور الأمة الاسلامية ، التى أفادها من جهة تغيير نظام الحكم القديم الى الحكم الجديد ، الذى كانت الامة فى حاجة طبيعية اليه بمقتضى الحالة السياسية التى وصلت اليها بامتداد فتوحها وبسط سلطانها على أمم مختلفة .

الباب الثالث

ولاية عمرو الثانية على مصر

اعتزل عمرو بن العاص ولاية مصر فى خلافة عثمان ، فكان لا ينساها بل يريد أن يستردها ويتولى أمرها مرة ثانية ، يدلنا على هذا أنّ أول ما طلبه من معاوية هى « مصر » . ومن هنا يستدل على أمرين :

(١) على أنه كان يحب مصر حبًا جمًا حتى انضم الى معاوية من أجلها بخلاف ما كنا ننتظر وتفانى فى خدمته ليفوز بأمنيته

(٢) وعلى أنه كان يكره عثمان كراهة شديدة من حين عزله عن ولاية مصر وكان بينهما من الملاجاة ما ذكرناه

إنضم عمرو إلى معاوية ولم يكن يستغنى هذا عن الاهتداء برأيه والعمل بمشورته فكان ساعده الأيمن وعضده الأقوى ، وقد كان من وراء انضمامه لمعاوية ما قدمناه . وكان معاوية قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فأراد الاستيلاء على مصر ، وكانت حالها إذ ذاك مما يضاعف آماله فى تحقيق أمنيته فى الوصول الى غايته ، ذلك أنه كان بمصر قوم قد ساءهم قتل عثمان ، فكتب معاوية الى مسلمة بن مخلّد ومعاوية بن حديج (وكانا قد خالفا عليًا وناوأ محمد بن أبى بكر عامله على مصر) يقويهما ويمنيهما الأمانى الطيبة فكتبا اليه يطلبان المدد ، وكانت الفرصة قد سنحت لعمرو ابن العاص لاسترداد مصر سنة ٣٨ هـ بعد أن غاب عنها زهاء اثنتى عشرة سنة ، فجهزه معاوية فى ستة آلاف أقبل بهم إلى مصر ، حيث انضمت إليه العثمانية ، فأقام بهم وكتب إلى محمد بن أبى بكر « أما بعد فتنحّ عنى بدمك يا ابن أبى بكر فانى لا أحب أن يصيبك منى ظفر ، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك . فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فانى لك من الناصحين والسلام »

ولما لم يجد هذا الكتاب نفعًا سار عمرو لقتال محمد بن أبي بكر وانتدب كل منهما نحواً من ألفي رجل، فلم يحتمل جند محمد هجمة الجنود الشامية ولا من مالأهم من جنود مصر، فقتل منهم من قتل وفر الباقون واختفى محمد بن أبي بكر فخرج معاوية بن خُديج يطلبه حتى ظفر به فقتله — ويقال إنه أحرقه بالنار. وقد قال المقريزى إن الموقعة المذكورة كانت فى مدينة يقال لها المنشأة (١)

ولما تم لعمرو الانتصار سار فى طريق الفسطاط حتى دخلها واستولى عليها، وكان ذلك فى صفر سنة ٣٨ هـ فأقره معاوية واليًا عليها وأعطاه إياها على أن يُعطى عطاء الجند وما بقى فله، واستقرت ولاية مصر لعمرو بن العاص من جديد.، وأصبح له القدح المعلى والسلطان المطلق فى إدارة شؤون هــذه البلاد، فشمر عن ساعد الجد فى إصلاح ما أفسدته أيدى أسلافه الذين نقم عليهم المصريون وتاقوا إلى الخلاص من حكمهم، إلاّ أن أجل هذه الولاية كان قصيراً وسرعان ما قصفته يد المنون

(ب) استكثار معاوية أن تكون مصر طعمة لعمرو ونشوء الجفاء بينهما :

خشى معاوية خروج عمرو عليه فأراد أن يدفع ما عسى أن يترتب على خروجه من النتائج، فكتب إليه وهو بمصر كتابًا أراد فيه أن يقيد ما بيده من عهد الولاية حتى لا يجد مبرراً للخروج عليه فى وقت ما، و بذلك يأمن معاوية خروج عمرو عن طاعته، فأرسل إليه كتابًا ضمنه هذه العبارة: «على أن لا ينقض شرطٌ طاعة»، فأدرك عمرو ما يرمى إليه معاوية وكتب إليه: «على أن لا تنقض طاعة شرطًا» فهذا القلب فى العبارة قد قلب الحقيقة لصالح عمرو من أن الطاعة لا توجب التخلى عن مصر التى استكثرها معاوية عليه لما استقر له الأمر، فحاول الرجوع على عمرو بمصر فأصلح بينهما معاوية بن حديج. ولا يعلم إلاّ الله ما كان يحدث بين الرجلين من الخطوب والمحن لو تشبث معاوية بتغيير عهده.

---

(١) وقد ذكرها اليعقوبى المسناة. أما المنشأة فقد ذكرها المرحوم على مبارك باشا فى خططه فقال: يوجد من هذا الاسم عدة قرى أكبرها وأشهرها منشأة (أخميم) ثم منشأة (بكار) من مديرية الجيزة ومنشأة (سدود) من مديرية المنوفية ومنشأة (سيوط) ومنشأة (عاصم) وهى قرية من مديرية الدقهلية بمركز دكرنس على الشاطىء الشرقى للبحر الصغير. والظاهر أن الواقعة كانت فى هذه القرية وباسمها سميت.

وقد روى ابن عساكر أنه لما صار الأمر كله[1] فى يدى معاوية استكثر طعمة مصر لعمرو ماعاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتدبيره وبعنايته وسعيه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشام على مصر فلم يفعل معاوية ، فتنكر له عمرو فاختلفا وتغالظا وظن الناس أنه لا يجتمع أمرهما ، ولكن قبل أن يتفاقم الخطب وتستعر نار الخلاف استعاراً تدخل بعض المسلمين فى الأمر وأصلحوا بين الرجلين (وإن كان هذا الصلح ظاهرياً) على أن يكتب بينهما كتاب بمثابة ضمان لكل منهما خلاصته :

(١) أن تكون لعمرو ولاية مصر سبع سنين . .

(٢) وأنّ على عمرو السمع والطاعة لمعاوية .

وتواثقا وتعاهدا على ذلك وأشهدا عليهما به شهوداً ، ثم مضى عمرو إلى مصر والياً عليها ، وذلك فى أواخر سنة ٣٩ للهجرة فلم يمكث غير ثلاث سنوات تقريباً حتى مات وهو أمير عليها

وصفوة القول أن المودة والوئام لم يدوما بين عمرو ومعاوية ، لأن عمراً كان يود أن تكون له الشام مع مصر ومعاوية قد استكثر عليه مصر ومثل هذين الرجلين لا يتفق لهما أمر ، فيعلم مما تقدم أنه اتفاق ظاهره المحبة وباطنه يشعر بالدهاء وأن عمراً لم يبايع معاوية حبًّا به أو مودة له ، بل طلباً لمصر ورغبة فى استرجاع ما كان له عليها من سلطان — ولم يكن معاوية أيضاً بأقل بغضاً منه . يدلك عليه ما روى أن معاوية قال يوماً لجلسائه « ما أعجب الأشياء » ، فقال يزيد « أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض لا يدعمه شىء من تحته ولا هو منوط بشىء من فوقه » وقال آخر « حظ يناله جاهل وحرمان يناله عاقل » وقال آخر : « أعجب الأشياء ما لم يُرَ مثله » وقال عمرو بن العاص « أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق » (يعرّض بعلىّ ومعاوية) فقال معاوية « بل أعجب الأشياء أن يعطى الإنسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف » (يعرّض بعمرو ومصر التى أخذها له طعمة) .

---

(١) ولا يتبادر الى الذهن من قوله « لما صار الامر كله فى يدى معاوية » أن مصر انتهت إلى معاوية بعد اصطفاء معاوية للخلافة والحسن رضى الله عنهما ، بل أخذ عمرو مصر من محمد بن أبى بكر لما كان والياً عليها من قبل على فى خلافته قبل وفاته بسنتين .

(حـ) محاولة قتل عمرو :

اجتمع ثلاثة من الخوارج وأجمعوا أمرهم على قتل علىّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص جميعاً في يوم واحد هو اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة . فأما ابن ملجم فقد قتل علياً كرم الله وجهه ، و بوفاته انتهى عهد الخلافة الشرعية ، ولم يفز الذى ندب نفسه لقتل معاوية منه بأرب ، أما ما كان من أمر عمرو فان عمرو بن بكر[1] الذى عزم على قتله ، فانه جلس له فى الليلة المعهودة فلم يخرج عمرو بن العاص لمرض ألمّ به وندب خارجة بن حذافة قاضى مصر أن يصلى بالناس ، و بينما هو فى الصلاة ضربه الخارجي بالسيف فقتله يظنه عمراً ، ولما علم الخارجي أن المقتول غير عمرو قال : « أردتُ عمراً وأراد الله خارجة » فذهبت مثلاً . ولما وقف الرجل بين يدى عمرو بكى فقيل له « أجزعا من الموت مع هذا الاقدام ؟ » فقال « لا والله ولكن غمّاً أن يفوز صاحبيّ بقتل علىّ ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو » فأمر عمرو بضرب عنقه فضرب وصلب .

ولما بلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان كتب إلى عمرو :

وقتل وأسباب المنايا كثيرة ... منية شيخ من لؤى بن غالب
فياعمرو مهلاً إنما أنت عمه ... وصاحبه دون الرجال الأقارب
نجوت وقد بلّ المرادى سيفه ... من ابن أبي شيخ الأباطح طالب
و يضربنى بالسيف آخر مثله ... فكانت علينا تلك ضربة لازب
وأنت تناغى كل يوم وليلة ... بمصرك بيضاً كالظباء السوارب

(د) بعض أخبار عمرو ومعاوية :

يظهر أن عمرو بن العاص كان فى خلافة معاوية يختلف كثيراً الى الشام ، فكان الخليفة لا يقطع أمراً دون الاستعانة برأيه والعمل بمشورته[2] وقد عثرنا فى تواريخ

(١) سماه المسعودى « زادوية عمرو بن بكر »

(٢) ذكر الطبرى أن عمرو بن العاص كان مع معاوية حين تسليم الحسن بن على الامر الى معاوية وحين جرى الصلح بين معاوية وقيس بن سعد بعد أن امتنع هذا عن بيعته .

الطبرى والمسعودى وأبى المحاسن وغيرها على أخبار عديدة عن عمرو بن العاص رأينا أن نأتى ببعضها علها تبين ما كان لهذا الرجل من جليل الأعمال وفاضل الصفات، وإن كان التاريخ لم يكشف لنا أعمالاً خاصة قام بهسا ذلك الأمير مدة ولايته الثانية على مصر كشق الترع وبناء الجسور وإقامة الأبنية وغيرها، ولو طال عمره فى هذه الولاية لما ضن علينا التاريخ بذكر كثير من إصلاحاته، إذ من المعقول أن مدة الثلاث أو الأربع سنوات التى مكثها فى مصر لا تكفى أكبر قائد حربى ومصلح عظيم لإطفاء شعلة هذه الفتن التى كانت ضاربة أطنابها فى البلاد، لانقسام أهلها واختلاف ميولهم نحو معاوية وعلىّ، فكان لكل منهما شيعة وأنصار.

وقد ذكر المسعودى أن عمرو بن العاص دخل يوماً على معاوية بعد ما كبر ودق ومعه مولاه وردان فأخذا فى الحديث وليس عندهما غير وردان فقال عمرو « يا أمير المؤمنين ما بقى مما تستلذه ؟ » فقال معاوية « أما النساء فلا أرب لى فيهن، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجلدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيها ألين، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما ادرى أيه ألذ وأطيب، وأما الطيب فقد دخل خياشيمى منه حتى ما أدرى أيه أطيب، فما شىء ألذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف ومن أن أنظر إلى بنىّ وبنى بنىّ يدورون حولى، فما بقى منك ياعمرو ؟ » فقال: « مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته » فالتفت معاوية إلى وردان فقال: « ما بقى منك ياوردان ؟ » فقال: « صنيعة كريمة سنية أعلقهـا فى أعناق قوم ذوى فضل وأخطار يكافئوننى بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى »

وإنا نقف مما ذكره المسعودى على مبلغ ميل عمرو لاستثمار المال، ولا غرو فقد نشأ تاجراً فنمى فى نفسه حب الكسب منذ نعومة أظفاره حتى إذا ما وصل إلى مرتبة الأمراء لم يقف به هذا المركز عن مباشرة مهنة التجارة ابتغاء الكسب وتنمية ثروته

وقد ذكر الطبرى أن معاوية بن أبى سفيان ولى عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة فأتاه المغيرة بن شعبة وقال « استعملت عبد الله بن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر فتكون أنت بين لحيى الأسد » فعزله عنها واستعمل المغيرة، ولما بلغ عمراً ذلك

أراد أن يكيد المغيرة فدخل على معاوية وقال له « استعملت المغيرة على الكوفة ؟ » فقال « نعم » فقال عمرو « أجعلته على الخراج » فقال « نعم » فقال عمرو « تستعمل المغيرة على الخراج فيغتال المال فيذهب فلا تأخذ منه شيئاً ، إستعمل على الخراج من يخافك ويهابك ويتقيك » فعزل المغيرة عن الخراج واستعمله على الصلاة ، فلقي المغيرة عمراً فقال « أنت المشير على أمير المؤمنين بما أشرت في عبد الله » قال « نعم » فقال عمرو « هذه بتلك »

ومن أخباره مع معاوية والأنصار ما رواه صاحب الأغاني (ج ١٤ ص ١٢٢) قال : حضرت وفود الأنصار باب معاوية بن أبي سفيان ، فخرج إليهم حاجبه فقالوا له « إستأذن للأنصار » فدخل عليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم . فقال له عمرو « ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين أردد القوم إلى أنسابهم » فقال الحاجب « هي كلمة إن مضت عرتهم ونقصتهم وإلاّ فهذا اللقب راجع اليهم » فقال له عمرو « أخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل » فقال الحاجب ، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلاّ الأنصار فنظر معاوية الى عمرو نظر منكر فقال له « باعدت جدًّا » فقال « أخرج فقل من كان ههنا من الأوس والخزرج فليدخل » فخرج فقالها ، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الانصاري وهو يقول :

يا سعد لا تجب الدعاء فما لنا   نسب نجيب بهِ سوى الأنصار
نسب تخيره الإله لقومنا   أثقل به نسباً إلى الكفار
إن الذين ثووا ببدر منكم   يوم القليب هموا وقود النار

فقال معاوية « لقد كنا أغنياء عن هذا » . ولا ندري إن كان عمرو أراد بهذا المباعدة بين معاوية والأنصار إتماماً لمقاصده السياسية في إغرائهم بمعاوية أو هو يريد الحط من قدر الأنصار فقط لأنهم شايعوا عليّ بن أبي طالب أيام الفتنة ، ونرجح أنه إنما أراد أن يحط من قدر الأنصار لأنهم أساءوا إلى قريش حين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا يدل على ميل نفر من المسلمين في هذا العصر إلى ما كان مألوفاً في الجاهلية من العصبية .

(ﻫ) وفاة عمرو :

إلى هنا انقضت ولاية عمرو الثانية على مصر بانقضاء أجله ، فاغتالت يد المنون رجلاً من شجعان العرب وأبطالهم ودهاتهم ، كان غرة فى جبين الاسلام ذا همة عالية وإقدام على المكاره فى سبيل الوصول إلى متمناه ، اشتهر بتحببه إلى أهل مصر ببذل العدل فيهم فأحبوه وخضعوا له فى ولايتيهِ الأولى والثانية حتى مات ، ففى يوم عيد الفطر سنة ٤٣ للهجرة هبط نجم من النجوم الساطعة وتقوض ركن من أركان الدين وانكسفت شمس سعادة مصر وأفعمت قلوب الأهلين حزناً وكمداً ، فبكوا فى فقد عمرو العدل والوفاء والجد ، والشجاعة والاقدام ، فكان هذا اليوم من أيام مصر المشهودة خيم فيه الحزن فى جو البلاد قاصيها ودانيها .

روى ابن عساكر قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى ساعة الموت فولّى وجهه الى الحائط وجعل يبكى طويلاً فقال له ابنه « ما يبكيك أما بشّرك رسول الله صلى الله عليهِ وسلم بكذا ، أما بشرك بكذا ؟ » وأقبل عمرو بوجهه وقال « إن أفضل ما يعُد علىّ شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، ولكنى قد كنت على أطباق ثلاث ، قد رأيتنى وما أحد من الناس أبغض إلىّ من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ولا أحب من أن أتمكن منهُ فأقتله ، فلو مت على تلك الطبقة كنت من أهل النار ، فلما جعل الله الاسلام فى قلبى أتيت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم لأبايعه فقلت : أبسط يدك لأبايعك ، فبسط يده ، ثم انى قبضت يدى فقال : (ما لك يا عمرو ؟) فقلت : أردت أن أشترط . فقال : (تشترط ماذا ؟) فقلت : أن تغفرلى ما تقدم . فقال : (أما علمت يا عمرو أن الاسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟) فبايعتهُ ، فما كان أحد أجل فى عينى من رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ولو سئلتُ أن أنعتهُ ما طقت لأنى لم أكن أطيق ان أملأ عينى منهُ إجلالاً له ، فلو مت على تلك الطبقة لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء بعد فلست أدرى ما حالى فيها » وقال لبنيه : « إن أنا متّ فلا تتبعنى نائحة فاذا دفنتمونى فى قبرى

فسنوا عليّ التراب سنّاً[١] فليس جنبى الأيمن أولى بالتراب من الأيسر، ولا تجعلوا فى قبرى خشبة ولا حجراً فاذا فرغتم من دفنى فأقيموا عند قبرى قدر ما ينحر جزور و يقسم لحمها فأنى أستأنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع بهِ رسل ربى » ثم قال لبنيه « يا بنيّ ما تغنون عنى من أمر الله شيئاً » قالوا « يا أبت إنهُ الموت ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا » فقال : « أسندونى » ثم قال وقد استقبل القبلة « اللهم انك أمرتنا فعصينا ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقام العائذ بك فأن تعف فأنت أهل للعفو ، وان تعاقب فيما قدّمت يداى ، اللهم لا قوىّ فأنتصر ولا برىء فأعتذر ولا مستكبر بل مستغفر أستغفرك وأتوب اليك ولكن لا إله الاَّ الله ، فما زال يقولها حتى مات فى يوم الفطر من سنة ٤٣ للهجرة[٢]

وهذا يدل على أن عمراً كان يعلم أنهُ بعد موت النبى صلى الله عليهِ وسلم لم يتخذ الدين وحده غاية لحياته السياسية ، وانما كانت له أهواء وأغراض أثرت فيهِ وأحس ساعة الموت ندمه فاستغفر منها وتاب .

روى فى كتاب (حياة الحيوان الكبرى - باب وعل) أن عمرو بن العاص لما حضرتهُ الوفاة قال له ابنهُ « يا أبتاه إنك كنت تقول لنا ، ليتنى كنت ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت بهِ حتى يصف لى ما يجد ، وأنت ذلك الرجل فصف لى الموت » . فقال : « يا بنى ، والله كأن السماء قد أطبقت على الأرض وكأنى أتنفس من سم إبرة وكأن غصن شوك يجذب من قدمى إلى هامتى » ثم قال :

ليتنى كنتُ قبل ما قد بدا لى فى رؤوس الجبال أرعى الوعولا[٣]

وقد قال فيه الشاعر :

ألم تر أن الدهر أخنتْ صروفهُ على عمرو السهمى تجبى له مصرُ
فلم يغن عنهُ حزمه واحتياله ولا جمعه لما أتيح له الدهر
وأمسى مقيماً بالعراء وضلت مكايده عنهُ وأموله الدثر

---

(١) أى صبوه صباً

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٠٥) ، والعقد الفريد (ج ٢ ص ٤) ، والمعارف لابن قتيبه (ص ٩٦) ، والمستطرف فى كل فن مستظرف (ص ٣٢٩)

(٣) يقول بطلر (ص ٤٩٤) إن ابن عباس هو الذى طلب من عمرو أن يصف له الموت ، وبعيد أن ابن عباس كان فى مصر فى ذلك الوقت .

وقد خلف عمرو على ما ذكره المسعوى ثلثمائة وخمسة وعشرين ديناراً ومن الورق (الفضة) ألفي الف درهم (٢٫٠٠٠٫٠٠٠) وضيعته المعروفة بالرهط وقيمتها عشرة آلاف درهم .

وروى ابن عساكر أنه كان يقيم كروم الرهط (بستان له بالطائف) بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم عدا الدور العديدة التى كان يمتلكها فى مصر ودمشق . وقال صاحب كتاب « حياة الحيوان » : وخلّف عمرو من المال سبعين بهاراً دنانير (والبهار جلد ثور يسع أردبين) ، وكان عند حلول أجله أخرجه وقال : من يأخذه بما فيه ؟ فأبي ولداه أخذه ، فبلغ معاوية فقال : « نحن أحق بهـذه الأموال التى جمعها أبوك لدفع العدو ، فأخذها وأدخلها فى بيت المال »

وأما نحن فنجزم بأن هذا القول غير صحيح ، إذ يلزم أن يكون عنده مائة وأربعون أردبًا من الذهب تأخذ فراغًا يزيد على عشرين متراً مكعبًا وهى تبلغ أكثر من أربعين مليونًا من الجنيهات أو ثمانين إلى مائة مليون دينار . ومحال أن يجمع عمرو بن العاص هـذا المبلغ من مصر فى أقل من عشرين سنة إلى أربعين باعتبار أنها فى يده يأخذ ما زاد عن عمارتها وأعطيات جندها

(و) قبر عمرو :

إتفق أبو المحاسن وابن قتيبة وابن الزيات فى كتابه « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ص ٨٥ » والدميرى فى كتابه « حياة الحيوان - باب وعل » على أن عمرو ابن العاص دفن بسفح المقطم فى ناحية الفج وكان طريق الناس الى الحجاز

وقد اختلف فى قبره فقال صاحب كتاب (المزارات المصرية) إن قبر عمرو ابن العاص غربى قبر الامام الشافعى والموضع الذى به يسمى مقابر قريش . وقال غيره : هو غربى الخندق وشرقى المشهد(١)

وقيل أيضًا : هو القبر الكبير المشار اليه بقبر القاضى قيس ، والمستحب لمن زار هذا المكان أن يحضر قلبه ويخلص نيته فانه مكان مبارك . وإذا صح ما ذكره صاحب

(١) بنى على حافته الشرقية قبر الامام الشافعى . والمشهد هو مشهد السيدة آمنة ابنة موسى الكاظم

(كتاب المزارات المصرية) أمكن تعيين قبر عمرو بالضبط ، وفى هذا المكان قبر يعرف الآن بقبر « سيدنا عمرو بن العاص »

على أننا نرى أن موضع قبر عمرو لابد أن يكون قد لعبت به يد النسيان منذ قرون طويلة فظل التاريخ فى سكون تام ، بحيث يصعب كشف اللثام عن حقيقة هذا الموضوع لاقتلاع كثير من أحجار المقطم ، فلم يعد لموضعه أثر تقريباً ، ولا ننسى قول عمرو حين حضرته الوفاة « وسنوا علىّ التراب سنًّا ولا تجعلوا فى قبرى خشبة ولا حجراً » مما يدل على أن قبر عمرو لم يعد له أثر تقريباً ، أضف الى ذلك ما ذكره بطلر (ص٤٩٤) أن مدينة الفسطاط التى أسسها عمرو بن العاص قد اندثر معظم أبنيتها تحت الأرض فلم يعد يظهر منها إلاَّ القليل من المبانى كجامع عمرو الذى يدل على موضع بنائه الأصلى وبقربه قصر الشمع وغيره من الأبنية التى يرجع عهد بنائها الى الروم .

على أن الاهتداء إلى بعض أسوار مدينة الفسطاط التى ظهر بعضها بالحفر والتنقيب لاسيما الباب الذى خرج منه المقوقس لمقابلة عمرو مما يزيد أملنا فى العثور على الموضع الذى دفن فيه عمرو بن العاص لكى نجدد بناء هذا القبر بما يليق بمقام عمرو ونستأنس بقبره فنذكر تاريخ حياته وما قام بهِ من الأعمال الجليلة

وقد روى ابن الزيات أن عمرو بن العاص وعقبة بن عامر الجهنى فى قبر واحد ، وقيل انهم ثلاثة فى قبر واحد ، وهم عقبة وعمرو وأبو بصرة الغفارى

الخاتمة

الى هنا انتهى بنا البحث والتنقيب بعد طول الجهد ومواصلة العمل فى حياة عمرو ابن العاص رضى الله عنه : ذلك العربى الصميم والقائد العظيم والسياسى المحنك ، ونرجو أن يكون القارئ قد ألم بشىء كثير من مآثر هذا الرجل ، ووقف على أدوار حياتهِ وما قام به من الأعمال الجلّى والمآثر العظمى .

هنالك صلة كبيرة بين عظماء الرجال وبين الظروف التى ينشئون عليها ويشبون

فى أحضانها : فمن هؤلاء من يهيء الظروف ومنهم من تلده هذه الظروف ، فتظهر مواهبهم للعالم جلية ناصعة : تلك المواهب التى تعمل على نموها الأحوال والأيام فتنشأ منها الأعمال الجليلة والمآثر الفاخرة التى تكلل التاريخ ، وذلك من فتح الفتوح وتمصير الأمصار أو العمل على تحرير بلادهم وغير ذلك مما يبقى أثراً خالداً على كر الأيام ومر الأعوام ، فمثلاً « نابليون » فهو وليد الثورة الفرنساوية غيّر الحالة السياسية والاجتماعية فى فرنسا وفى غيرها وقلب العالم رأساً على عقب

أما عمرو بن العاص فهو وإن كان قد ولدته الظروف كذلك وأظهرتهُ فهو وليد الاسلام الذى كوّنهُ قائداً محنكاً وسياسيًّا قديراً وواليًا عادلاً وداهية من أكبر دهاة العالم الذين دوخوا ممالكه وأقالوا دوله ، فلولا الاسلام ما ظهرت مواهب هذا الرجل وما أوتيه من جليل الصفات الى هذا الحد ، فبعد أن كانت تلك المواهب محصورة فى دائرة ضيقة أصبح وقد اتسعت أمامه دائرة العمل فتجلت سجاياه ومواهبهُ فى ميدان فتوحهِ الواسعة للبلاد التى غزاها وفى كفائته لادارة شؤونها والعمل على ترقيتها وترقية أهلها . إلا أنه امتاز عن هؤلاء العظماء بأنهُ قد ولّدَ بعض الظروف ، فهو الذى سعى لفتح مصر ففتحها وطرد الروم منها وكان السبب فى نشر الاسلام فى أرجائها تدريجًا ، فنبه ذكره وسما قدره وعظم شأنهُ وكتب فى سمائها أكبر مثل يسطره له التاريخ الى أبد الدهر وقد امتاز عمرو بين قومه بمزايا عديدة ظهر أثرها فى أعماله ظهوراً بينًا وتجلت صورتها للناس كلما ذكر اسمهُ ، فكانت ذات أثر كبير فى أحوال الأمة الاسلامية : الدينية والسياسية والحربية والاجتماعية . وبتحليل نفس عمرو يعرف المرء الصلة بين مواهبهِ وبين هذه الأحوال – تلك النفس التى حللناها فيما مررنا بهِ من استقصاء أخباره وتتبع آثاره وذكر أقواله المأثورة وحكمه التالدة . ولا ريب فى أن اسم عمرو بن العاص قد ملأ كل مكان استغنى عن تعريفه بنسب أو حسب ، وأصبح معروفاً لدى جميع طبقات العالم الاسلامى ، ولا يجهل هذا الاسم أحد لانفراده بتلك المأثرة العظيمة مأثرة فتح مصر وانتزاعها من قبضة الروم مما أضحى له موضع اعجاب العالم جميعًا لاسيما مؤرخى الفرنجة الذين اشتغلوا بتاريخ الفتوح الاسلامية ، ولا نبالغ إذا قلنا إن عمرو بن العاص

كان نادرة فى عصره وحسنة من حسنات الدهر وهاديًا من هداة الاسلام وليثًا من ليوث العرب الذين أسسوا عظمة بلادهم فنهضوا بها الى أوج السعادة .

وقد رأيتَ مكانة عمرو من الشرف فى قريش فى الجاهلية واحترام العرب له ، فلما أسلم حفظ له النبى صلى الله عليه وسلم شرف تلك المكانة فتأدب عمرو بآدابه عليه السلام ، فسمح بنفسه وأخلص للرسول الخدمة ، ولم تفت النبى صلى الله عليهِ وسلم شجاعة عمرو وإقدامهِ فولّاه على جند المسلمين فى غزوة ذات السلاسل ، ولا غرو إذا كان النبى عليهِ السلام مصيبًا فى اعتقاده فقد كان عمرو موفقًا للنصر فى جميع المواقع التى اشترك فيها ، فانتصر فى غزوة ذات السلاسل وغزوة سواع ، وفى وقائعهِ مع أهل الردة وفى اشتراكه فى حروب الشام وفلسطين ، وفى مصر و بلاد المغرب ، وهذا ولا ريب من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب . وحسبك دليلاً على شجاعته مخاطبتهِ جيفراً وعباداً ابنى الجُلندى وكذا مخاطبتهِ قرة بن هبيرة ، وقذفهُ بنفسهِ فى معامع الوقائع غير هياب ولا وجل ، وكيف كان يعرض نفسهُ للأخطار فى كثير من المواقع التى قاتل فيها ، وكيف كان يحمل اللواء ويقاتل بنفسهِ ، وكيف سبق خالد ابن الوليد الى أخذ الراية فى موقعة اليرموك تلك الموقعة التى جنى المسلمون ثمار الانتصار فيها لاتباعهم مشورتهِ والعمل برأيه باجتماع وحدات المسلمين فى مكان واحد ليكونوا قوة واحدة يدفعون بها العدو و ينتصرون عليهِ ، وقد كان من وراء رأيهِ السديد انتصار العرب فى هذه الموقعة وفى غيرها من المواقع حتى كان النصر . أما حبه للجهاد فقد كان يفوق الوصف — ذلك الحب الذى استولى على قلبهِ وسائر جوانحهِ استيلاءً عظيما حتى كان يتسابق اليهِ غير مبال بجموع أعدائهِ مهما كثرت وقوة جنده مهما قلت ، وان محاولتهِ فتح مصر بأربعة آلاف مقاتل أو أقل لأقوى دليل واسطع برهان على صحة ما تقول .

وكان عمرو من دهاة العرب المشهورين ، وقد قرأت صحف دهائه عند النجاشى حين أوقع بعمارة بن الوليد ، وانظر كيف أوقع التفريق فى صفوف علىّ فى موقعة صفين وقد أشرف جيش علىّ على الانتصار ، وكيف تغلب بما أوتيه من ضروب الحيل وفنون الدهاء على أبى موسى عند عقد التحكيم وغير ذلك من أخباره فى الدهاء التى يقف

أمامها المرء حائراً لهذا العقل البشرى والذكاء الإنسانى الذى ذلل أمثال تلك الصعوبات وفك أعقد العقد حتى هدّت حيله عزائم الجحافل فتبددت آمال الرجال وأقطاب السياسة ومما يدل على دهائه أيضاً ما روى عنه أنه عند استيلائه على مصر كان يتنكر ويخرج وحده متشبهاً بالرجل من عامته ليرى ما عليه القبط من النية للمسلمين ، فتمادى به السير راجلاً حتى لحق بطرف الفسطاط فرأى جماعة قد التأبت على سوء منه فقال لهم «اعملوا بى كل ما تؤثرون من السوء ولا تردونى إلى يد الأمير فأنى هربت منهُ » فقال بعضهم ردوه فأنهُ يقتله ويكون لكم بذلك عارفة عند الأمير » فساقوه إلى دار الامارة فأخذ يتضور ويتأبى فى سياقته حتى قرب من الدار ، فقام اليهِ الشرط فقال «لا يفوتنكم منهم أحد ، فجمعوا له عن آخرهم » .

وكان عمرو من شيوخ قريش فى الجاهليه ، فلما أسلم أثر الأسلام فى نفسهِ فاقتلع منها كثيراً من رذائل الجاهلية ، فألبست تلك النفس ثوب الفضيلة وتجلت عن حسن خلقهِ مما كان له نصيب وافر فى تقدم الأسلام ونصرتهِ ، فأصبحت نزاعة إلى مكارم الأخلاق فتجلى فيها الحلم وطهارة السريرة والرجوع إلى الحق وتكفيره عن خطئه بأجلى مظاهرها ، يدلك على ذلك ما رواه ابن عساكر عن الشعبى عن قبيصة قال «صحبت عمرو بن العاص فما رأيت أبين طريقاً ولا أكرم جليساً ولا أشبه سريرة بعلانية منهُ» وما رواه أبو المحاسن أنهُ تصادف أن وقع بين عمرو والمغيرة بن شعبة كلام فاستشاط عمرو غضباً وقال له : « يا آل هصيص أتسبنى ؟ » فقال له عبد الله ابنه « إنا لله دعوتَ بدعوة القبائل وقد نهى عنها !! » فندم عمرو على ما فرط منهُ وكفر عن خطئه بأن أعتق ثلاثين رقبة . وقد كان تقياً يخشى عقاب ربهِ ويخاف هول اليوم الآخر فتمنى لو سلبه الله ماله أو أثكله ولده أو نزع منهُ سلطانهُ رجاء عدم تعذيبه بالنار . روى عن ربيعة عن لقيط قال : سمعت عمرو بن العاص يصلى بالليل وهو يبكى ويقول : « اللهم آتيت عمراً مالاً فأن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبهُ بالنار فاسلبهُ ماله ، وإنك آتيت عمراً أولاداً فان كان أحب إليك أن تثكل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار فاثكله ولده ، وإنك آتيت عمراً سلطاناً فان كان أحب إليك أن تنزع منهُ سلطانهُ ولا تعذبهُ بالنار فانزع منهُ سلطانه

ونعتقد أن هذا كان فى آخر أيامه حين مرت به ساعة حاسب فيها نفسه على ما أتى فى أيام الفتنة بعد أن سكنت النفس وثاب اليها الرشد وعلم ان الله تعالى سائله عما احتقب فى دنياه فعاد على نفسهِ باللوم وتمنى الخروج من كل ما أوتى إذا كان ذلك كفارة عما غمس يده فيهِ ، وهو ندم ظاهر ترجى معهُ المغفرة لمن يقبل المثوبة من عباده ويعفو عن السيئات إنهُ هو التواب الرحيم .

وكان عمرو لطيف الأخلاق طيب الفكاهة ، أراد معاوية أن يختبر بديهته يوماً فقال عمرو « أخرج من عندك » فأخرجهم معاوية فقال عمرو « يا أمير المؤمنين أسارك » فأدنى معاوية رأسه منه فقال عمرو : « من معنا فى البيت حتى أسارك ؟ »

أما سياسة عمرو فلم تخف على العرب فى جاهليتهم قدرتُه فيها فندبوه ليكون رسولهم الى النجاشى ، وندبهُ النبى صلى الله عليهِ وسلم بعد إسلامهِ ليكون رسوله لدى ملك عمان ، ولا يعزب عن بالنا حسن سياسته فى مصر وكيف ألف بين قلوب المصريين واستمالهم اليهِ وسار معهم على نهج العدل وسعى فى ترفيه حالهم وترقية شؤونهم ورعى معهم حرمة العهود والمواثيق ، وإن ذكرى موقعة صفين لا تزال ترجف لاسمه هيبة — تلك الموقعة التى أشرف فيها جيش علىّ على الانتصار فلم يثن ذلك من عزيمة عمرو ، وسرعان ما ابتكر من ضروب الحيل ما أوقع بجند علىّ فانقسموا على أنفسهم وغلبوا على أمرهم ، وقد كان من وراء تلك السياسة ما فصلناه

هذه هى نفس عمرو قد حللناها تحليلاً ، ونحن نرجو أن نكون قد وفقنا إلى إثبات أن عمراً قد كان أحسن مثال للعربى فى هذا العصر الذى ظهر فيهِ الاسلام وانتشر وامتدت فتوحه ، فكان ممن أعان على ظهوره وانتصاره ، وكان من غير شك أحد المؤسسين لدولة العرب التى لن يزال اسمه مقروناً بها .

فرحم الله عمرو بن العاص رضى الله عنهُ ورحم من ترحّم عليهِ